



Hadhramaout AL-Thaqafiah - December 2021 - ربيع الثاني ١٤٤٣هـ -
مجلة فصلية - السنة السادسة - العدد (22)

حقائق جديدة حول إمارة الكسادي

قراءات في (أوراق مكلاوية) للجعيدي

وقفات مع الشاعر صالح بن علي الحامد

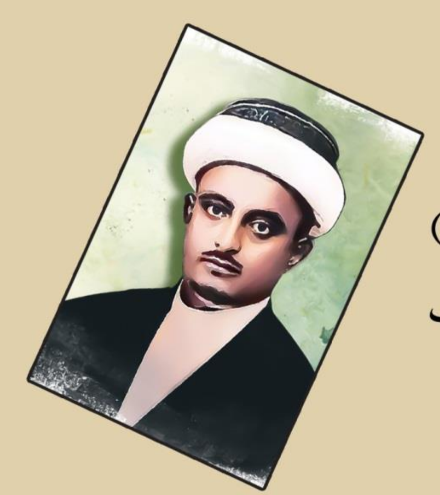
أرضٌ بِلا ظِلال

من أعلام حضرموت



الشاعر حداد بن حسن الكاف

(١٩٠٩- ١٩٦٩م)



نعتذر عن نشر الصورة في العدد (٢٠)

على أنها للشاعر حدّاد بن حسن الكاف

بينما هي لأحد أقاربه.

محتويات العدد

حديث البداية

أضواء

دراسات

ترجمة

نقد

ملف العدد

قراءات في (أوراق مكلاوية) للجعيدي

كتابات

نقاش

إبداع

توقيع قلم

حضرموت الثقافية

مجلة فصلية

السنة السادسة العدد (22)

أكتوبر - ديسمبر 2021م

تصدر عن مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

مراسلات المجلة

hc.magazine16@gmail.com

Baaesa-١@hotmail.com

موقعنا على الشبكة الإلكترونية

www.hadramout.center

العنوان: المكلا - حي الشهيد - (معهد باشريف سابقًا) - ت: ٣٥٠١٣٥

العدد (22)
أكتوبر
ديسمبر
2021م

الجدل أو الذات

الجدل فعل حضاري، وآلية من آليات تنشيط المعرفة في مجالات العلوم الإنسانية، وقد ينشأ عنه نوع من الصراع، فالإنسان مشغول منذ القدم بتحديد موقعه في العالم من خلال نشر أفكاره والدفاع عنها، وقبل ذلك فالكاتب يعيش الجدل داخل ذاته من خلال ممارسته دور الكاتب والمتلقي، وحركة الجدل هي بالأساس حركة تجريبية يبحث من خلالها الكاتب عما يطور آراءه، فلا تتوقف لديه المعرفة بناء على هذا.

غير أنه بإلقاء النظر على أفكار بعض كتابنا وآرائهم تجدها تتكرر من خلال ما يدخلون فيه من جدل، دون أن يوجد أحدهم لها منفذاً جديداً في إطار تطوير أفكاره، وإن كان يكتبها منذ عشرات السنين، فثقافته ذات كينونة واحدة، لا يتزحزح عنها لتطويرها في الاتجاه نفسه، وعندئذٍ يغدو الجدل الذي يمارسه أشبه بالشكل فقط، ذلك



د. عبدالقادر علي باعيسى
رئيس التحرير



لأن منطلقه الأساس هو ذاتيته، أعني أفكاره في ارتبـاطها الحميم بـذاته، ومن ثم لا يستطيع إحداث تغيير في الآراء المخالفة له، لاعتداده المطلق بـما يراه، ولأنه ينظر إلى الآراء المخالفة له على أنها مصدر خاطئ للمعرفة، فتبدو لغته -لذلك- أداة للتعبير عن ذاته باسـم الجدل، فالعلاقـة القـائمة بـين الذات والآخرين هي علاقـة نفي بالأسـاس، لا جدل، حـتى يكثر لديه السبـاب والشـتم، ويرتفع التوتر، فالذات تتغلب لديه على الموضوع، والعاطفة على الفكرة، راغبًا من خلال ذلك، وبقـوة، في الانتقال من خلال (الجدل) إلى موقع السيطرة وفرض الرأي. وكثير من كتابـنا على هذه الشاكلة.

وعلى أية حال فأحدنا لا يمكن أن يرى نفسه بصورة منطقية إلا من خلال الآخر، ولا شك أن الذات هي نقطة انطلاق مهمة في الجدل، لكنها لا تصل إلى الأنوية، أي (أنا) فقـط ولا أحـد غيري، المسـؤولة عن كثير من أزمات الفكر الحضرمي، والإنساني عامة، والجدل نفسه هو قضية فلسـفية لا يفهم بـمعزل عن تجادل طرفين مختلفين، أو فكرتين مختلفتين، أو أكثر، لما فيه تنشيط الفكر الإنسـاني أيًا كان مجاله تاريخًا، أو فكرًا نقديًا، أو رؤى ثقافية، أو آراء سياسية، في المجال المتجادل عليه.



مركز حضرموت للدراسات التاريخية يقيم الندوة العلمية (منظومات الضبط الاجتماعي في حضرموت) بالشراكة مع جامعة سيئون





عصام حبريش الكثيري — أ. د. عبدالله الجعيدي — أ. د. محمد عاشور الكثيري

إعلام المركز

تحت رعاية الأستاذ عصام حبريش الكثيري وكيل محافظ محافظة حضرموت لشؤون الوادي والصحراء أقام مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بالشراكة مع جامعة سيئون الندوة العلمية (منظومات الضبط الاجتماعي في حضرموت) صباح السبت ٢٥/ ١٢/ ٢٠٢١م وذلك في قاعة الصبان بكلية التربية بمريمة سيئون.

بدأت الندوة بتلاوة عطرة من القرآن الكريم تلتها كلمة رئيس اللجنة العلمية أ. د. محمد يسلم عبدالنور الذي رحب بالحضور الكريم مستعرضًا الأبحاث التي التزمت بمحاور ومعايير وشروط الندوة وقد بلغ عددها اثني عشر بحثًا شارك بها عدد من الأساتذة والباحثين من عدة جامعات ومراكز بحثية مختلفة، مقدمًا شكره لكل من أسهم وعمل على إنجاح هذه الندوة.

بعد ذلك تحدث أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي مدير المركز عن أهمية منظومات الضبط الاجتماعي في حضرموت ودورها في إصلاح المجتمع وماشكلته من تجارب مهمة تحتاج إلى دراسة وافية ومنهجية للحفاظ على التراث والاستفادة منه، معبراً عن امتنانه وتقديره لجامعة سيئون بهذه الشراكة العلمية في إقامة مثل هذه الندوات، وعن تقديره وشكره العميق للسلطة المحلية.

تلاه أ. د. محمد عاشور الكثيري رئيس جامعة سيئون بحديثه عن أهمية هذه الندوة العلمية التي جاءت نتيجة شراكة مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر مع جامعة سيئون وذلك لتسليط الضوء على منظومات الضبط الاجتماعي في حضرموت وإبراز الموروث الاجتماعي لخدمة الشأن العام، مشيراً إلى أن جامعة سيئون خطت خطوات واثقة خلال مشوارها القصير وهي عازمة على أن يكون لها الدور الفعال في إنتاج المعرفة الهادفة















لخدمة المجتمع مشيداً بذات الوقت بجهود مركز حضرموت ودوره الفعال في خدمة التراث والتاريخ بحضرموت، ومقدماً شكره للسلطة الملحية على اهتمامها ودعمها متمنياً أن تحقق الندوة الأهداف التي أقيمت من أجلها.

وقد أشاد الأستاذ عصام الكثيري وكيل محافظ محافظة حضرموت لشؤون الوادي والصحراء في كلمته بهذه الندوة بالجهود التي بذلت من أجل إنجاحها راجياً أن تخرج بتوصيات تخدم حضرموت بما يحقق مصالحها وأمنها.

بعد ذلك بدأت جلسات الندوة ففي الجلسة الأولى التي أدارها، أ. د. عبدالله محمد بن شهاب تناول الباحثون المواضيع الآتية:

قدم أ.د مسعود سعيد عمشوش ورقته البحثية التي عنونها بـ(المقدم والأبو والمنصب في كتاب فان دن بيرخ (حضرموت والمستوطنات العربية في الأرخبيل الهندي)، والباحث محمد عطبوش حول (ترجمة مقال روبرت سيرجنت (الحرم والحوطة الحمى المقدسة في الجزيرة العربية))، قدمها بالنيابة عنه أ. د. خالد يسلم بلخشر، والباحث حسين العيدروس عن (النقابة الأسرية في حضرموت (نقابة العلويين أنموذجًا))، والباحث عمر عبدالله بامطرف عن (الحوط) قدمها نيابة عنه أ. د. محمد يسلم عبدالنور، والباحث أحمد صالح الرباكي عن (حوطة عينات ودورها في الضبط الاجتماعي القرن العاشر القرن الخامس عشر الهجري دراسة وثائقية تحليلية)، ود.عبدالقادر علي باعيسى عن (الحوط في حضرموت الأبعاد والدلالات)، ثم تلتها جلسة النقاشات حول














الأبحاث المقدمة وتعليقات وملاحظات الحضور وإجابات الباحثين.

ثم بدأت الجلسة الثانية والتي أدارها، أ. د. سالم عبدالله باصريح وقد قدم فيها الباحثون المواضيع الآتية:

قدم أ. د. محمد عبدالقادر العيدروس بحثه عن (أثر جمعية الحق في التوازن الاجتماعي)، و أ. د. محمد بن هاوي باوزير عن (نظام الحويف (غيل باوزير أنموذجًا)، و الباحث رياض باكرموم عن (لمحة حول نظام الحكم القبلي في حضرموت في ضوء إشارات من النقوش القديمة)، و أ.د. علي صالح الخلاقي عن (أهمية الأحلاف والاتفاقات القبلية في الضبط الاجتماعي في حضرموت، و الباحث طاهر ناصر المشطي عن (الضبط الاجتماعي (السوارح) عند الحموم والقبائل المجاورة سارحة عمرو بن ذي جدن أنموذجًا)، وأخيرا الباحث صبري هادي عفيف عن "نظام الحارات (الحويف) في حضرموت تريم أنموذجًا".

تلا ذلك جملة من النقاشات حول ماقدم وبعض الملاحظات والتعليقات من الحضور والباحثين.

وفي ختام الندوة أعلنت اللجنة العلمية عن التوصيات الآتية:

١ - تطوير الأحكام الإيجابية من منظومات الضبط الاجتماعي في حضرموت.

٢ - تنمية المناحي العلمية التي قدمتها أنظمة الضبط الاجتماعي.

٣ - إنجاز مزيد من الدراسات العلمية عن منظومات الضبط الاجتماعي في حضرموت.

٤ - إعادة تفعيل منظومات الضبط الاجتماعي ومراجعة دورها واستخدامها في مسار حضرموت الحالي.

٥ - إضافة مواد وأحكام منظومات الضبط الاجتماعي في إلى مواد القانون.

ثم تم تكريم اللجنة العلمية والجهات الداعمة والباحثين والمشاركين في هذه الندوة بشهادات شكر مثمنين لهم عملهم الكبير في إنجاح هذه الندوة راجين لهم التوفيق والنجاح في قادم الأيام.



المهندس سالم باسمير في زيارة للمركز



إعلام المركز

استقبلت إدارة مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر ممثلة بـ أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي مدير المركز، و أ. د. سالم عبدالله باصريح رئيس لجنة البلدان بالموسوعة الحضرمية، و أ. د. محمد يسلم عبدالنور رئيس لجنة الأعلام بالموسوعة الحضرمية، و د. حسن صالح الغلام مدير إدارة الأبحاث والدراسات، رئيس لجنة القبائل والأسر في الموسوعة الحضرمية، و د. عبدالقادر علي باعيسى مدير إدارة الإعلام و الثقافة، استقبلت المهندس سالم علي باسمير رئيس مجلس إدارة مؤسسة موانئ البحر العربي اليمنية و أ. أنيل عبدالله الكثيري مسؤول النقل الدولي واللوجستات بميناء المكلا، وأ. مروان محمد اليزيدي رئيس قسم التسويق والإعلام، والمهندس محمد هلال الجعيدي مهندس الشبكات بالميناء، في لقاء ودي عملي جرى خلاله تبادل وجهات النظر حول قضايا مختلفة أبرزها ما يتعلق بالوضع الثقافي، ورغبة المركز في مد شراكاته إلى أكثر من جهة محلية بما يعمل على تفعيل نشاطه الثقافي وامتداد آفاقه مستقبلاً.

من جانبه أعرب المهندس باسمير ومرافقوه عن سعادتهم بهذه الزيارة واهتمامهم بالثقافة والتاريخ على المستوى الشخصي والوطني، وستسفر عن هذه الزيارة زيارات لاحقة متبادلة بين الطرفين خدمة للوضع الثقافي وإنعاشه.



وفي ختام اللقاء أهدى أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي لضيف المركز بعضًا من أعداد مجلة حضرموت الثقافية، ومؤلفاته الخاصة، بينما بادله المهندس باسمير بإهداء نماذج من بروشورات إدارة مؤسسة موانئ البحر العربي اليمنية إلى المركز.

بعد ذلك طاف الدكتور الجعيدي وإدارة المركز بالوفد الضيف على مكاتب المركز وأروقته.





زيارة د. محمد جعفر بن الشيخ أبوبكر إلى مركز حضرموت





إعلام المركز

استقبل مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر د. محمد جعفر حسين بن الشيخ أبوبكر رئيس دائرة الدراسات والبحوث في الأمانة العامة لهيئة رئاسة المجلس الانتقالي الجنوبي، وكان في استقباله أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي مدير المركز وعدد من رؤساء الدوائر في الموسوعة الحضرمية.

في مستهل اللقاء رحب الدكتور الجعيدي بالدكتور بن الشيخ أبوبكر ترحيبًا أخويًا حاراً مقدراً جهود المجلس الانتقالي في الجوانب الإنسانية والثقافية، ومن جانبه أعرب الدكتور بن الشيخ أبوبكر عن سعادته بزيارة المركز وإقامة نوع من الشراكة الثقافية معه مثمنًا ما أنتجه مركز حضرموت للدراسات التاريخية من معرفة منذ تأسيسه.

حضر اللقاء أ. د. سالم عبدالله باصريح رئيس لجنة البلدان، و أ.د. محمد يسلم عبدالنور رئيس لجنة الأعلام، و د. حسن صالح الغلام مدير إدارة الأبحاث والدراسات ورئيس لجنة الأسر والقبائل في الموسوعة الحضرمية، ود.عبدالقادر علي باعيسى مدير إدارة الإعلام والثقافة في المركز.

افتتاح ركن المركز في معرض الحياة الدائم للكتاب

إعلام المركز

افتتح أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي مدير مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر ركن مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر في معرض الحياة الدائم للكتاب التابع لدار حضرموت للدراسات والنشر في حي السلام بالمكلا حيث تم تخصيص ركن خاص بإصدارات المركز من الكتب ومجلة حضرموت الثقافية من قبل دار حضرموت ومؤسسها الأستاذ سالم عبدالله بن سلمان الذي استقبل الدكتور الجعيدي في مكتبه مرحبًا به ومشيداً بهذا التعاون الثقافي النير بين المركز والدار



ومثنيًا على النشاطات التي يقوم بها المركز.

الجدير بالذكر أن هذا الإنجاز يعد إحدى نتائج الاتفاق بين الطرفين الذي أكد عليه الأستاذ محمد سالم بن علي جابر مؤسس ورئيس إدارة المركز في أثناء زيارته الأخيرة إلى حضرموت في أغسطس الماضي، والأستاذ سالم عبدالله بن سلمان مدير دار حضرموت للدراسات والنشر.

الشيخ حسين العامري يزور المركز



إعلام المركز

قام الشيخ حسين غالب العامري رئيس مؤسسة العوامر الاجتماعية التنموية بزيارة إلى مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر رافقه خلالها الأستاذ عماد أحمد العامري المدير التنفيذي للمؤسسة، وقد كان في استقبالهما أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي مدير المركز، وجرى خلال اللقاء تبادل الأحاديث الودية وإعطاء الشيخ العامري نبذة تعريفية عن نشاطات المركز وخصوصا مشروع الموسوعة الحضرمية.

وفي ختام اللقاء قام الشيخ حسين بجولة تعريفية في أقسام المركز مبديًا إعجابه بما سمعه وشاهده راجيًا له كل تطور ونجاح.

الدكتور سعيد القميري في زيارة لمركز حضرموت



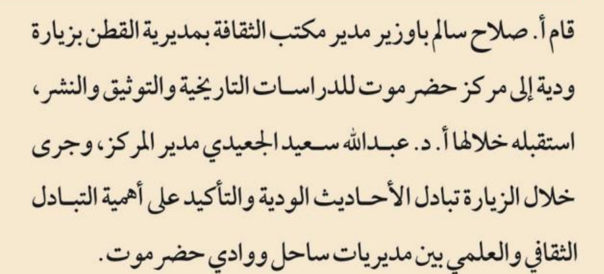
إعلام المركز

قام د. سعيد القميري المدير التنفيذي لمركز اللغة المهرية للدراسات والبحوث يرافقه أ. ناجي سعد بلحاف مدير العلاقات العامة بالمركز بزيارة إلى مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر التقوا خلالها بـ أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي مدير المركز الذي عبر عن سعادته بهذه الزيارة مشيداً بمركز اللغة المهرية للدراسات والبحوث ومستعرضًا أبرز نشاطات مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر منذ إنشائه في ديسمبر من عام ٢٠١٥م، وداعيًا إلى توقيع اتفاقية تعاون ثقافي مشترك بين المركزين.

من جانبه أبدى الدكتور سعيد القميري سعادته ومرافقه بزيارة مركز حضرموت مرحّبًا بأهمية توقيع اتفاقية تعاون مشترك بين المركزين لما فيه خدمة الثقافة والمعرفة ومقدمًا عددًا من إصدارات مركز اللغة المهرية للدراسات والبحوث هدية لمكتبة مركز حضرموت.

حضر اللقاء أ. د. سالم عبدالله باصريح رئيس لجنة البلدان في الموسوعة الحضرمية، و د. عبدالقادر علي باعيسى مدير إدارة الإعلام والثقافة في مركز حضرموت.

الأستاذ باوزير في زيارة لمركز حضرموت





قام أ. صلاح سالم باوزير مدير مكتب الثقافة بمديرية القطن بزيارة ودية إلى مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، استقبله خلالها أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي مدير المركز، وجرى خلال الزيارة تبادل الأحاديث الودية والتأكيد على أهمية التبادل الثقافي والعلمي بين مديريات ساحل ووادي حضرموت.

وقد أثنى الأستاذ باوزير على الدور الهام الذي يقوم به مركز حضرموت في حفظ التاريخ الحضرمي وإبرازه من خلال مايقيمه المركز من مؤتمرات وندوات ومحاضرات وكذلك من خلال طباعة الكتب.

وفي نهاية اللقاء شكر الأستاذ باوزير الدكتور الجعيدي على حفاوة الاستقبال متمنيا للمركز كل نجاح وتقدم.

حضر اللقاء د. حسن صالح الغلام مدير إدارة الأبحاث والدراسات في المركز.



الأستاذان الخلاقي وباوزير في زيارة لمركز حضرموت





تقدير مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر لإسهامه في إهداء الوثائق التاريخية المهمة المتعلقة بتاريخ حضرموت والتي تم الكشف عنها لأول مرة، وقد تسلم الشهادة التقديرية بالنيابة عنه أ. د. علي الخلاقي.



إعلام المركز

استقبل مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر أ. د علي صالح الخلاقي أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة عدن، مدير دائرة الإعلام بمركز عدن للدراسات والبحوث التاريخية والنشر، و أ. د. محمد بن هاوي باوزير أستاذ التاريخ القديم بجامعة عدن، مدير إدارة الندوات والمؤتمرات بمركز عدن للدراسات والبحوث التاريخية والنشر.

وكان في استقبالهما أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي مدير مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر وعدد من مديري الإدارات بالمركز ورؤساء اللجان العاملة في الموسوعة الحضرمية، وجرى خلال اللقاء تبادل وجهات النظر حول طبيعة العمل في المركزين الشقيقين وآليات تطويره مستقبلاً في مختلف المجالات.

بعد ذلك قدم أ. د. الجعيدي شهادة تقديرية من المركز للشيخ ناصر علي محمد الفقيه بن عز الدين البكري تضمنت

وفي السياق نفسه قدم أ. د. محمد بن هاوي باوزير كتاب شبوة تاريخ وحضارة بحوث المؤتمر العلمي الثالث الصادرة عن مركز عدن للدراسات والبحوث التاريخية والنشر هدية إلى مكتبة المركز، إضافة إلى كتابه الاغتراب والانتماء في الشعر المهاجر الحضرمي، وقدم أ. د. علي صالح الخلاقي عدداً من إصداراته الجديدة اهداءً إلى مكتبة المركز، وهي: المعتقدات الشعبية في بلاد يافع، والأسلحة التقليدية في الشعر الشعبي اليمني، وحملة بن قملا الوهابية على حضرموت، ومعجم الأسلاف والأعراف القبلية في بلاد يافع.

الدكتور الكسادي في زيارة لمركز حضرموت



إعلام المركز

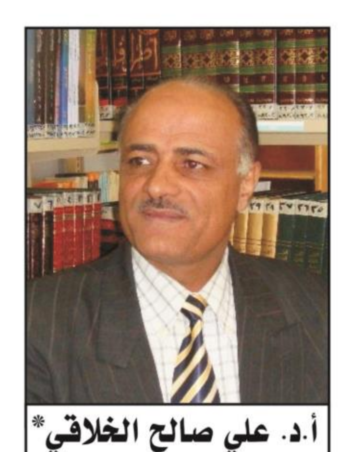
قادم أ.د. عادل أحمد الكسادي أستاذ علم الاجتماع في كلية الآداب بجامعة حضرموت بزيارة إلى مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر استقبله خلالها أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي مدير المركز، وجرى خلال اللقاء تبادل وجهات النظر حول عدد من القضايا الثقافية والمجتمعية المتعلقة بالشأن الحضرمي، واطلاعه على نشاطات المركز وما قام به من نشاطات وفعاليات وما طبعه من إصدارات وما يطمح إليه في المستقبل.

وفي ختام الزيارة أهداه الدكتور الجعيدي عدداً من إصدارات مجلة حضرموت الثقافية الصادرة عن المركز مؤخراً.



في وثائق لم تُنشر من قبل:

حقائق جديدة حول إمارة الأخوين عبدالرب وعبدالحبيب بن صلاح الكسادي ومواقفهما المتناقضة من حركة بن قملا والدعوة الوهابية



أ.د. علي صالح الخلاقي*

توطئة:

تعدُّ الإمارة الكسادية في حضرموت (١١١٥ - ١٢٩٩هـ/ ١٧٠٣-١٨٨١م)، التي نشأت في المكلا، أول إمارة يافعية تكونت في حضرموت وأطولها بقاءً. ومع ذلك فإن الكثير من تاريخ هذه الإمارة ما يزال مجهولاً أو يلفه الغموض؛ لعدم تدوين تاريخها وسيرة حكامها من قبل معاصريها، ثم فقدان وثائقها وأرشيفها وضياعها بعد القضاء عليها من قبل القعيطيين. وعلى الأرجح أنه تم إتلاف كل ما يخص هذه الإمارة من وثائق لأسباب سياسية. كما ظلت هذه الإمارة الكسادية بعيدةً عن اهتمام المؤرخين والباحثين، ولم تنل حقها من البحث والدراسة التاريخية، حتى خصص الباحث سامي ناصر مرجان ناصر مشكوراً أطروحته العلمية لتاريخ هذه الإمارة التي صدرت في كتابه الموسوم (الإمارة الكسادية في حضرموت). ورغم جهوده المبذولة وحرصه على جمع أشتات دراسته من مصادر ومراجع شتى لاستيفاء موضوع دراسته وفق ما قيض له الحصول عليه من مصادر ومراجع ووثائق، فإن الاضطراب والتناقض يظل سيد الموقف في كتابه وفي المؤلفات التي تعرضت لشذرات من تاريخ هذه الدولة وحكامها، فعلى سبيل المثال يذكر المؤلف أن النقيب عبدالرب بن صلاح بن سالم بن أحمد بن سالم الكسادي حكم الإمارة الكسادية بعد وفاة أخيه الأكبر عبدالحبيب(١). مستنداً في ذلك إلى ما قاله صاحب "**إدام القوت**" من أن صلاح بن سالم الكسادي مات وله ثلاثة أبناء: عبدالرب وعبدالحبيب وعبدالنبي، ويقول: "**وكان النفوذ لعبدالحبيب، لأنه الابن الأكبر، ولمّا مات خَلَفَهُ أخوه عبدالرب، وبقي يحكم المكلا إلى أن توفي سنة ١١٤٢هـ**"(٢). لكن صاحب "**إدام القوت**" يناقض ذلك في صفحة أخرى من مؤلفه (٣)؛ إذْ يذكر نقلاً عن "**تاريخ باحسن الشحري**" أنه لما مات صلاح بن سالم خَلَفَهُ على المكلا ابنه عبدالرب بن صلاح، ثم أخوه عبدالحبيب. كما أن التاريخ الذي ذكره لوفاة عبدالرب سنة ١١٤٢هـ غير صحيح وبفارق أكثر من قرن؛ إذ إنَّ وفاته كانت سنة ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م(٤). ونجد مثل هذا اللبس في التواريخ في أكثر من موضع لدى ابن عبيد الله؛ لاعتماده على الروايات الشفوية، نظراً لغياب الوثائق وعدم وجود ما يؤكد تسلسل من تولى الإمارة الكسادية قبل النقيب عبدالرب بن صلاح وفترات كل منهم.

حقائق جديدة تكشفها الوثائق التاريخية

في البدء وجب الشكر والعرفان بالجميل للشيخ ناصر علي محمد الفقيه بن عز الدين البكري الذي فتح لنا خزائن أرشيف أسرته النفيس، وأتاح لنا تصوير وثائق ومراسلات تاريخية كثيرة، تعود في غالبها إلى جد الجد لوالده، المرجعية العامة والشخصية الاجتماعية والدينية الفقيه، نائب الشرع(٥)، عبدالحبيب بن أحمد بن حيدر بن علي بن أحمد بن علي بن حيدر عز الدين البكري الذي يعد شخصية محورية ذات تأثير بالغ، يمتد إلى مساحة زمنية كبيرة وجغرافية واسعة في عصره، تشمل حضرموت ويافع ولحج وأبين والبيضاء، ويمتد تأثيرها وحضورها إلى عُمان ورأس الخيمة والشارقة والمهجر الهندي، وكانت له علاقة مؤثرة ورأي مسموع لدى أمراء الدولة الكسادية والإمارة البريكية والسلطنة الكثيرية وحكامها ولدى سلاطين يافع آل هرهرة، وحتى لدى ناجي بن قملا قائد الحملة الوهابية إلى حضرموت التي عُرفت باسمه، وقد استطاع بمكانته المؤثرة وعلاقاته الواسعة وحنكته الجمع بين متناقضات هذه الكيانات في علاقاته المميزة وكلمته المسموعة لدى الجميع(٦).

كشفت لنا الوثائق التي تتعلق بموضوع بحثنا، وهي تعود إلى زمن حاكم الإمارة الكسادية النقيب عبدالرب بن صلاح الكسادي وشقيقه عبدالحبيب، جوانب من ذلك الغموض الذي ساد خلال العقود الماضية لدى الباحثين والمهتمين ممن تعرضوا لتاريخ الإمارة الكسادية، وتميط اللثام عن حقائق جديدة من تاريخها الغامض والمجهول. وتجيب هذه الوثائق عن تساؤلات مهمة، بما في ذلك حول مدة إمارة الشقيقين عبدالرب وعبدالحبيب أبناء صلاح بن سالم الكسادي، وتكشف عن أيهما تولى الإمارة قبل الآخر؟!. بل تضعنا أمام تساؤل وجيه وهو: هل تولى عبدالحبيب الإمارة فعلاً وتوفي قبل أخيه عبدالرب، أو لا؟!.



ومن الحقائق الجديدة التي تكشفها هذه الوثائق أن عبدالحبيب بن صلاح لم يَتَولَّ الإمارة، قبل أخيه النقيب عبدالرب مطلقًا، كما أنه لم يلقَ ربه قبل تولي أخيه عبدالرب، كما ورد لدى المؤرخ ابن عبيد الله ومن أخذ عنه، بل إنه عاش طويلاً معاصراً ومزامنًا لحكم أخيه النقيب عبدالرب، وشاركه في الحكم كأحد المقرَّبين. وما يؤكد ذلك رسائل تخصه وتخص أخاه النقيب عبدالرب وغيرهما من رجالات الإمارة الكسادية والمقرَّبين منها، تكشف بعض خفايا الأسرة الكسادية المجهولة.

من ذلك رسالة محررة يوم الاثنين ١١ من شهر ربيع الآخر ١٢٢٨هـ وجَّهها أحد رجالات الإمارة الكسادية، هو عبد المطلوب بن سالم بن بوبكر بازنبور إلى الفقيه عبدالحبيب بن أحمد حيدر البكري، وفيها يقرئه السلام من الوالد عبدالرب وأصناه عبد النبي وعبدالحبيب وأولادهم صالح وصلاح وعبدالكريم وإخوانهم. وهذا



يعني أن النقيب عبدالرب هو الرجل الأول في الإمارة الكسادية، وربما الأكبر سنًا ومكانة، ويأتي بعده كما في الرسالة عبدالنبي ثم عبدالحبيب(٧).

وبالمثل هناك رسالة مؤرخة يوم الاثنين ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٤٤ هجرية(٨)، أي بعد ستة عشر عامًا على الرسالة السابقة، تذكر سفر النقيب عبدالرب والنقيب عبدالحبيب إلى مسقط؛ استجابة لدعوة سعيد بن سلطان للوساطة بين الكسادي وآل بن بريك، وهذا يعني أن عبدالحبيب قد رافق أخاه، أي إنه لم يتولَّ الإمارة حتى ذلك التاريخ ١٢٤٤هـ، بل كان من رجالات الإمارة، وهذا يدحض خبر وفاته قبل تولي أخيه عبدالرب، كما شاع في بعض المؤلفات. بل عاصر إمارة أخيه النقيب عبدالرب معظم سنوات حكمه، وكان من المقرَّبين والمساعدين له، بدليل مرافقته في رحلته إلى مسقط، وكانت له مكانته وتأثيره، وهو أمر لا خلاف فيه في ظل الحكم الأسري، الذي يستند فيه الحاكم الأول على إخوته وأبنائه وأقربائه.

موقفان متناقضان من حملة بن قملا والدعوة الوهابية

كما تكشف لنا المراسلات التي بين أيدينا عن موقفين متناقضين لكل من النقيب عبدالرب بن صلاح الكسادي وشقيقه عبدالحبيب إزاء الموقف من حملة بن قملا الوهابية، ومن دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب بشكل عام. ففي الوقت الذي وقف النقيب عبدالرب موقف الترقُّب والحذر أو التوجس والريبة من حملة بن قملا، ثم العداء لدعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب بشكل عام، فإن مواقف شقيقه عبدالحبيب على العكس من ذلك؛ إذْ كشفت لنا مراسلاته ومواقفه أنه كان مؤيداً ومناصراً للوهابية، بل من أشد المتحمِّسين للجهاد في سبيلها.

مواقف النقيب عبدالرب

لاستجلاء موقف النقيب عبدالرب بن صلاح الكسادي غير المؤيد لحملة بن قملا أو للدعوة الوهابية، نذكر أن هناك مساعيَ قد بُذلت من قبل رجالات كل من الإمارتين الكسادية والبريكية، في عهد كل من النقيب عبدالرب بن صلاح الكسادي، حاكم المكلا، والنقيب ناجي بن علي بن بريك حاكم الشحر - رغم الصراع والخلاف القائم بينهما - لتوحيد جهودهما؛ بغية مواجهة خطر حملة بن قملا قبل وصولها إلى الساحل قادمة من وادي حضرموت بعد أن سيطرت على أهم مدنه هناك.





ومثل هذه المساعي كشفت عنها رسالتان تعودان كما يتضح من مضمونهما إلى قُبَيْل وصول حملة بن قملا إلى الشحر سنة ١٢٢٤هـ، وتحديداً حينما بلغت الحملة عقبة (عبد الله غريب) قادمة من وادي حضرموت في طريقها إلى الساحل الحضرمي، والرسالتان متبادلتان بين شخصيات اعتبارية ذات تأثير، وهي مقربة إلى حُكَّام الإمارتين الكسادية في المكلا والبريكية في الشحر.

الرسالة الأولى صدرت من بندر الشحر، حاضرة آل بن بريك، من عبد الله بن يحيى حسين هرهرة، وهو مقرب من الأمير ناجي بن علي بن بريك، وبعث بها إلى بندر المكلا، إلى ابن أخيه علي بن ناصر بن يحيى بن ناصر هرهرة والفقيه عبدالحبيب بن أحمد بن حيدر وعبرهما إلى حُكّام الإمارة الكسادية في المكلا، يلفت فيها الانتباه إلى أنه لا بد قد بلغهم وصول بن قملا إلى عبدالله غريب الذي يهدف كما قال: **"أن يوكِّل قوة من أهل البنادر ويَرجَّ بهم في بعضهم البعض (أي يدفعهم ليقتل بعضهم بعضًا) وبا يهلك الناس"**. ويذكرهم بما قام به بن قملا من قَبْل من اعتداء على قبة الشيخ أبي بكر بن سالم والحبيب حسين وحبس الحبيب أحمد بن سالم. ويطلب منهم التفاهم مع حاكم المكلا النقيب عبدالرب الكسادي لقيام تحالف أو عصبة من أهل البنادر (يقصد الشحر والمكلا) بحيث لا يكون قبول أو تعاون مع ابن قملا، ووعد بأنه سيعمل كذلك مع ابن بريك الذي يحصِّن الشحر بمراتب عسكرية، وإذا ما قُبضت الشحر والمكلا فلن يجد بن قملا مدداً وسيفشل في نهاية المطاف. وطلب منهم أن يبلغوه إذا ما عرفوا أن هناك رغبة لعُصبة وائتلاف سيكون بين النقيب عبدالرب الكسادي وناجي علي بن بريك ضد ابن قملا(٩).

جاء الرد سريعًا من قبل علي بن ناصر بن يحيى بن الشيخ علي هرهرة(١٠)، والفقيه عبدالحبيب ابن أحمد حيدر، في رسالة جوابية بعثا بها إلى الحبيب شيخ بن عبد الله بن أحمد



آل الشيخ أبي بكر بن سالم وكذلك السلطان عبد الله بن يحيى بن حسين بن الشيخ علي هرهرة في الشحر، وهما من ذوي المكانة لدى آل بريك. وتذكر الرسالة الجوابية ما توارد من أنباء عن وصول ابن قملا ومن معه إلى البنادر (الموانئ)، وطمعه في أن يفتن بين أهالي البنادر، وأن هناك من حَسَّن له هذا الأمر (أن معه سمق من أحد)، ولعل المقصود بهذا التلميح النقيب عبدالحبيب بن صلاح لمواقفه الواضحة المؤيدة لدعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب. جاء بالنص: "وما ذكرتموه في جانب بن قملا ومن معه قوم ملقوفة وصَّال إلى البنادر ومتسمّق في أهل البنادر وبا يرج في بعضهم البعض حقيق ذلك وعندنا علم حقيق أن معه سمق من أحد والوالد النقيب عبدالرب بن صلاح (حاكم المكلا) ما عنده علم ولا هو



راضي والله الشاهد قوله تعالى: **﴿إن من أموالكم وأولادكم فتنة﴾**، وصار ابن قملا يتابع قبصات (وخزات) يافع، وهتك مناصبهم سبب رضا بعضهم البعض، ولا أحد قام في وجهه والتالية (في الأخير) عاد معه الشحر والمكلا واعلموا أن قام لهدته (لمواجهته) بن بريك فهو لها أهل وقصد نحوه وإن هو الكسادي، وكذلك فإن الله بايهدي وبايقدر صالحت أحوالهم وصارت اليد واحدة وعسى الله يؤلف بين قلوبهم"(١١).



لم يكتب النجاح تلك المساعي في توحيد الجهود بين الكسادي وابن بريك في وجه بن قملا الذي وصل إلى الشحر، ربما لكونها جاءت متأخرة في الوقت الذي كانت فيه حملة ابن قملا في الطريق (عقبة عبدالله غريب)، ووصلت إلى الشحر فعلاً، ولم يكن للأمير ناجي بن علي سوى القبول بقدوم ابن قملا وعدم اعتراضه أو مواجهته طالما لم يهدف للسيطرة أو الاستيلاء على الحكم، واقتصرت مهمته على إزالة ما لم ينص عليه الشرع مما يعمل من تجصيص القبور وإقامة التوابيت والقباب والتوسلات بالأموات إلى غير مما اعدوه مخالفًا لعقيدة الإسلام الصحيحة(١٢).

كما يتجلىَّ موقف النقيب عبدالرب بن صلاح الكسادي المعادي للوهابيين والمؤيد لأشد خصومهم الأتراك العثمانيين في عدد من رسائله. منها رسالة بعث بها شخصيًا إلى الفقيه عبدالحبيب بن أحمد حيدر البكري ومحررة يوم ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٢٨هـ(١٣). فبعد المقدمة والسلام والتعرض لأخبار حضرموت، يأتي على أخبار الشام، ويقصد بها الحجاز، فيقول: "وإن سألت عن أخبار اليمن والشام حسبما يبلغكم من شان الترك وصلوا في قوة عظيمة قدر مئة وأربعين ألف واصطفوا الشام الجميع جدة ومكة والطائف وجانب من الحجاز الجميع يذكرونهم نافذين إلى الدرعية ربنا ينصرهم وأيدهم". وهو هنا يبين موقفه الواضح المؤيّد للترك الذي لا غبار عليه ولا لبس فيه، بل إنه يتباهى ويتفاخر بقوتهم التي يصفها بالعظيمة ويذكر عددها الكبير الذي بلغ (١٤٠ ألفًا) وهو رقم مبالغ فيه، أراد منه تضخيم قوة الترك، ولم يخفِ سروره وغبطته لسيطرتهم على مدن الحجاز (الشام) الرئيسة، جدة ومكة والمدينة والطائف، وتأهبهم للاتجاه نحو الدرعية، ويدعو الله أن ينصرهم.

وفي رسالة ثانية محررة يوم الاثنين ١٣ شهر رجب سنة ١٢٢٨هـ(١٤) بعث بها النقيب عبدالرب إلى الفقيه عبدالحبيب بن أحمد حيدر البكري، أي بعد حوالي شهرين من رسالته السابقة، يذكر فيها حسب الأخبار الواردة من الشام - أي الحجاز- أن الوهابيين لم يعد لهم ذكر هناك، يقول: "**وإن سألتم عن أخبار الشام الترك في قوة عظيمة والوهابي معاد له ذكر، وأخبار اليمن قد الواقع عندكم**". وهو هنا يبدي فرحه لتعاظم قوة الترك وفرحته لهزيمة الوهابيين على يد الأتراك العثمانيين، وتأكيده أنهم لم يعد لهم ذكر في الحجاز.

أما الرسالة الثالثة للنقيب عبدالرب بن صلاح فقد بعث بها إلى الشيخ عبد النبي بن عوض دينيش البكري(١٥) وكذلك الفقيه عبدالحبيب أحمد حيدر البكري، وهي بدون تاريخ، لكن من مضمونها يتضح أنه بعث بها بعد هزيمة الوهابيين النهائية في عقر دارهم على يد قوات إبراهيم باشا وسقوط عاصمتهم الدرعية بعد قرابة ستة



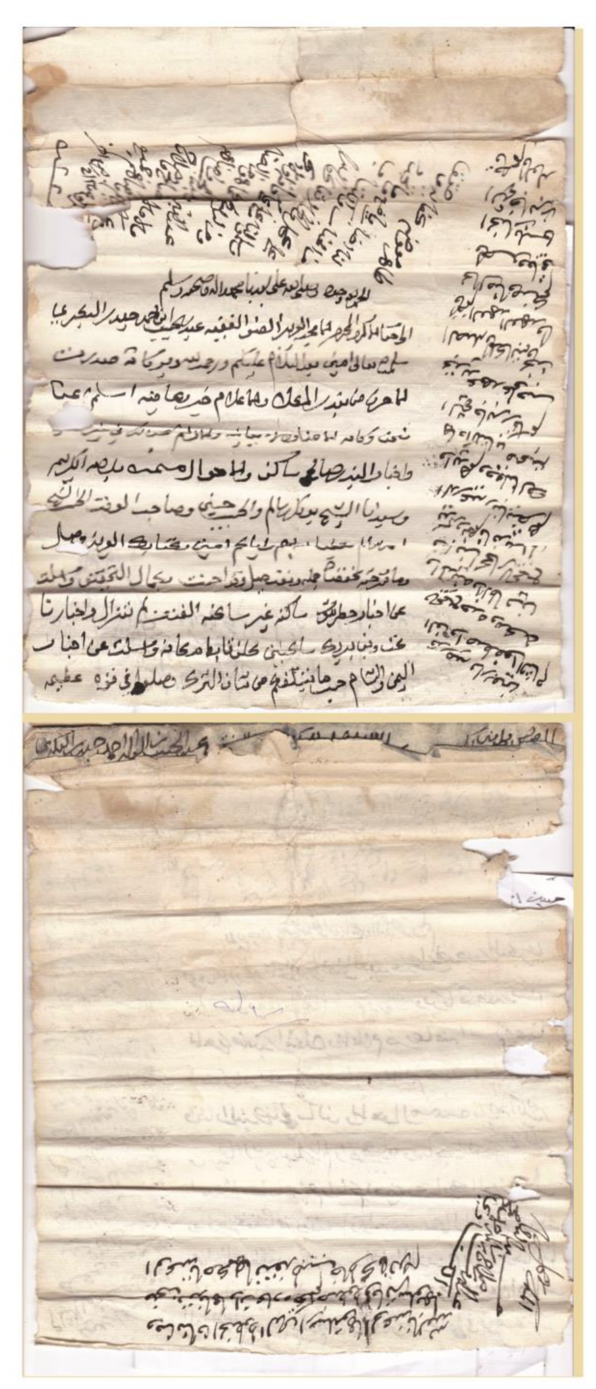
أشهر من المعارك الطاحنة واستسلام الإمام عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود في ١١ من ذي القعدة سنة ١٢٣٣هـ/ ١١ سبتمبر ١٨١٨م وطلبه الأمان لأتباعه. ففي تلك الرسالة يذكر أخبار تلك السيطرة يقول: "وإن سألتم عن أخبار الشام [يقصد الحجاز] من شان الباشا فهو واصل في أخبار كثرة للحج، ومن شان ولده نفذ إلى الدرعية وحط عليها وضيّق عليهم، وبعد هم طلبوا الأمان ووالده الباشا أعطاهم على شرط يردُّون جميع ما شلّه سعود من حجرة النبي عليه أفضل السلام ولا جَبَوا له(١٦)، ولكن طلبوا منه مهلة إلى الحج وأخذ عليهم خمسين محبوس من أولاد سعود ومن مشايخ العرب، ونفذ بهم إلى مصر إلى والده، وعبدالله بن سعود يواجه الباشا في الحج، وحط رُتبة في الدرعية والقصيم خيَّاله وعسكر"(١٧).

وفي ذلك العام كانت قد انتهت الدولة السعودية الأولى، وفقد السعوديون في أثناء تلك المعارك زهاء عشرين من أقرباء الإمام، وتم نقل الإمام عبدالله بن سعود الكبير إلى الأستانة عن طريق القاهرة، وهناك تم قطع رأسه مع عدد من قادته ممن تم أسرهم في الدرعية.

مواقف النقيب عبدالحبيب

أما مواقف النقيب عبدالحبيب بن صلاح الكسادي فكانت على النقيض من مواقف أخيه النقيب عبدالرب بن صلاح إزاء الوهابية، والمؤكد أنه كانت له صلة مباشرة أو غير مباشرة بحملة ابن قملا والتواصل معه ومع أتباعه الحضارم، ولا يستبعد أنه مَنْ أوعز إليهم بالوصول إلى الساحل الحضرمي.

وبين أيدينا رسالة بعث بها عبدالحبيب بن صلاح الكسادي إلى عبدالحبيب بن أحمد حيدر البكري مؤرخة يوم الأحد ١٢ رجب سنة ١٢٢٨هـ تبين أنه يتتبع أخبار مسار حملة ابن قملا القادمة في طريقها إلى حضرموت والمؤلفة من ستة آلاف؛ إذ قال: "وصلت إلينا أخبار أن بأن

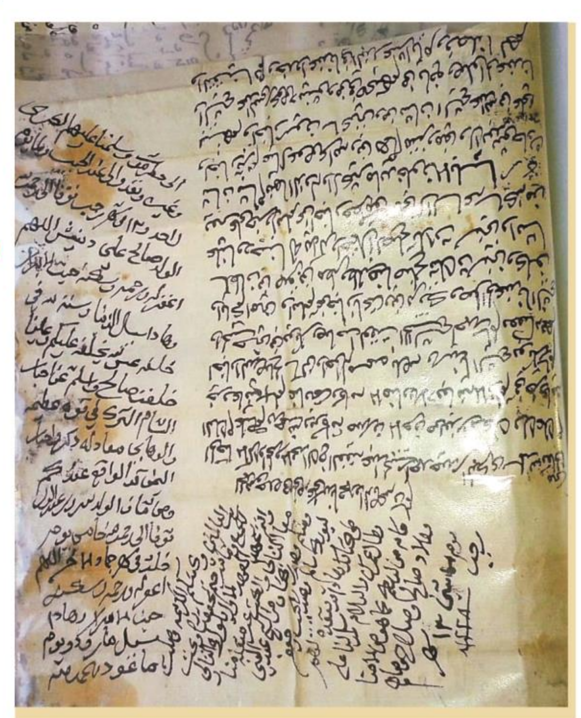


ناجي بن قملا وبن عفرا خارجين إلى حضرموت ... قدر ستة آلاف، وقد وصلوا إلى بلد الأمواه وحال صدرت وعادهم ما بعد وصلوا"(١٨).

ونتعرف من رسالته لأول مرة على "ابن عفرا" الذي كان ضمن قيادة الحملة إلى جانب ناجي بن قملا، ولا ندري هل واصلت تلك الحملة طريقها إلى حضرموت من بلد "الأمواه"، الواقعة في منطقة عسير، ويبدو أن هناك تتبعًا ورصدًا لأخبار وتحركات ابن قَمْلا ومن معه من قبل عبدالحبيب بن صلاح الكسادي رغم بُعد المسافات.



أما تأثره وتعلقه بدعوة الإمام محمد عبد الوهاب وإخلاصه لها، فنلمسه بوضوح من صيغة رسائله ومضمونها التي تطغى عليها الروح الجهادية. ففي رسالته الموجهة من المكلا إلى بني بكر - يافع للفقيه عبدالحبيب بن أحمد حيدر البكري يستهلها بعد البسملة بقوله(١٩): "من **الواثق بالله عبدالحبيب بن صلاح بن سالم الكسادي، إلى الأخ في دين الله عبدالحبيب بن أحمد حيدر البكري حماه الله من الآفات واستعملنا وإياه بالباقيات الصالحات**". وبعد السلام يقول بالنص: "الأحرف من محروس بندر المكلا والأعلام سارة، أخبار المسلمين قدها عندكم نَصرُهُم على عداهم وجعلهم الظاهرين، كما قال صلى الله عليه وسلم: "لم تزل طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم لحتى يلاقوا السيخ الدجال"(٢٠)، فحصل بين المسلمين والترك وقايع كثيرة في "تربة"(٢١)، وقعت جملة وقايع وكل وقعة والله تعالى ينصر المسلمين، وكذلك وقعت لقيّة في القنفذة وحصلت كسيرة كبيرة في الترك، وبعدها وقعت لقيّة في الطائف وحصلت كسيرة في الترك، الحاصل أنهم وصلوا قدر أربعين ألف واليوم معاد إلاّ قدر أربعة آلاف، هذا ما صحت عندنا من أخبار المسلمين والترك، وأنت يا أخي إن كان تعصّب رجال ومرادهم الجهاد في سبيل الله للثواب والأجر والغنيمة يكون وصولكم إلينا أنت ومن معكم وبانطلع البحر نجاهد على كل من خالف الله ورسوله، وقال صلى الله عليه وسلم: "**غزوة واحدة في البحر أفضل من عشر غزوات في البر، وأن من فاته الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فليغزي البحر**"(٢٢)، وأنت إن كان وفقك الله لذلك تصل بناس موحدين لله وكل من يحب الإسلام، ولا يكون تصلون لطلب الدنيا، ومن يؤثر الدنيا على الآخرة فإنها دار زوال والآخرة دار قرار، فالمراد يا أخي طاعة الله والاستعداد لدار القرار، وعند ذلك ما يخيّب الله



من قصده على هذا الوجه المشروع وتجيه الدنيا صاغرة راغمة، وإن قد حصلت حد مثل الوحيري(٢٣) أو بن عمر علي أو غيرهم من يحب الله وكتب له الأجر والغنيمة تصل ولو خمسمئة من المسلمين الذين يريدون وجه الله، ونحن إن شاء الله علينا الزاد والزانة والخشب ورجال البحر وجميع آلت البحر والله ناصر جنده. وصدر كتاب للولد طاهر ولا شرحنا له ما شرحناه لك، وأنت إن قد عزمت تصل به معك ويكون تصل برجال الذي توفي كلمة الله ويخافون من عقابه ويعرفون الحق من الباطل ويتبعون الحق ويتركون الباطل وجند الله منصور، والجواب سريع بما ترجَّح عندك، وما دار في نظرك والسلام".

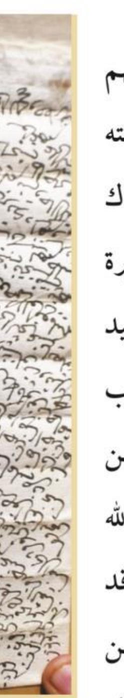
الرسالة السالفة بدون تاريخ، لكن يتضح من مضمونها أنها أرسلت سنة ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م، أي بعد الهزائم التي ألحقتها قوات آل سعود ضد قوات طوسون باشا نجل والي مصر العثماني محمد علي باشا في المواجهات الشرسة التي جرت في تربة والطائف والقنفذة، وفيها يقسِّم الفريقين إلى مسلمين وأعدائهم، ويقصد بهم الأتراك، وكأنهم حسب رسالته غير مسلمين؛ لكي يبرر الجهاد ضدهم ويفرح لهزيمتهم، ولهذا نراه يعد ما تحقق





انتصاراً للمسلمين وهزيمة للترك، الذين لم يبقَ من قوتهم سوى (٤ آلاف) من إجمالي عددهم (٤٠ ألفًا) كما بلغته الأخبار، ولعل الرقم في عدد القتلى من قوات الأتراك مبالغٌ فيه، ربما ليجعل من النصر عليهم ذا قيمة كبيرة ومشجعة للمتحمِّسين للجهاد. وفي رسالته يطلب تجنيد المزيد من المقاتلين للجهاد في سبيل الله، بغرض الثواب والأجر والغنيمة، وسيطلع بهم البحر لمجاهدة كل من خالف الله ورسوله، ويفضّل أن يكونوا موحدين لله ومحبين للإسلام ويؤثرون الدنيا على الآخرة. ويبدو أنه قد وصل إليه بعض المجاهدين من قبل مثل الوحيري أو ابن عمر علي ممن ارتاحت لهم نفسه ويطلب الحصول على أمثالهم ممن يحب الله وكتب له الأجر والغنيمة، ولو بعدد (٥٠٠ من المسلمين) الذين يريدون وجه الله، وسيتكفَّل بمؤنتهم وعتادهم (الزاد والزانة)، وكذلك وسائل النقل البحري (الخشب ورجال البحر وجميع آلة البحر).

وبالمثل نجده في رسالته الثانية المحررة يوم السبت ١٧ صفر عام ١٢٣٠هـ والموجهة أيضًا للفقيه عبدالحبيب بن أحمد حيدر البكري، يذكر بعد الاستهلالة التقليدية أخبار الحجاز (الشام) وعُمان والتأكيد على الجهاد لإقامة دين الله. يقول بالنص(٢٤): "أخبار الشام رايقة والمسلمين في زَوْد... وأخبار عمان سعيد بن سلطان عاهد الإمام عبدالله بن سعود رسَّل له مطاوعة ونقلهم وقام بالأمر والمعروف ونحنا إن شاء الله مرادنا أن تقومون دين الله بقدر طاقتكم وترغبون في الأجر وتكونون أنصار لله بنصر دين الإسلام وتحصل الغنائم إن شاء الله، ونحنا إن شاء الله إذا ثبت الجهاد با نرسل لكم بالذي يشلكم إلى الساحل والخشب إن شاء الله تحصل وتحصل الغنايم والخير وأما جهاد بالفلوس ما يصح لأن المجاهد إلا ما حصله من غنيمة وإذا ثبت ذلك عندكم جهزنا لكم الخشب لحيث نحنا شرحنا لكم في الكتاب الأول إن كان



با يحصل من عندكم رجال للجهاد للزاد والمزناد وخيش علينا نحنا إن شاء الله واصلين والخشب باتصلكم إلى شقرة والتحقيق منا لكم متى ما طلبناكم يكون إلى شهر معروف ومن كان مع الله كان معه ونحنا مرادنا برجال المئة والمئتين ما تلقي شي، والجواب مطلوب من قبل أحمد علي سعد ومخرج يافع معه ومتوجهين إلى أي جهة إلى المخا أو إلى الجبال إن كان مراده بخشب على المخا من بحر وشي با يصبح منه لا نكره، الخشب موجودة والرجال موجودة، والحقيق يصل منه لنا ومنكم بجميع الحقايق والكتب متصلة بيننا وبينكم".

ومن خلال إمعان النظر في رسالته يتبين لنا ثقته في الانتصار على الأتراك العثمانيين، بدليل ذكره لخبر سلطان عمان سعيد بن سلطان ومعاهدته للإمام عبدالله بن سعود، مع أن ذلك الأمر حدث قبل أعوام مضت على تاريخ الرسالة، وقد جرت أحداث وتطورات، وساءت العلاقة بعد ذلك بين الطرفين، أي بين سلطان عُمان والإمام عبدالله بن سعود. وفي الرسالة يحث على الجهاد لنصرة دين الإسلام والترغيب في الأجر والحصول على الغنائم، وأبدى استعداده في حالة ثبوت الجهاد للتكفل بنقل المجاهدين





القادمين من يافع من نقطة تجمعهم في ميناء "شُقُرة" عبر البحر أو إلى الجبال حسب الحاجة، وشدد على طلب أعداد كبيرة من المجاهدين من بلاد يافع، لأن المائة والمئتين في نظره قليل ولا تكفي، بل حدد اسم أحمد علي سعيد الذي سيكون على رأس خروج القوم، بما يدل على أن هناك أنصار يتواصل وينسق معهم.

الخلاصة:

تكشف الوثائق التاريخية التي ننشرها لأول مرة، وتعود إلى عهد النقيب عبدالرب بن صلاح الكسادي وأخيه النقيب عبدالحبيب بعض الخفايا عن شخصيتيهما، وتميط اللثام عن حقائق ظلت مجهولة عمن تولى الحكم منهما قبل الآخر وعلاقة كل منهما بحملة بن قملا وبالدعوة الوهابية إجمالاً، وتصوب معلومات متضاربة هنا وهناك اعتمدت على الروايات المتناقلة التي لا أساس لها من الصحة وتتناقل كمسلَّمات.

وفي ضوء هذه الوثائق اتضحت لنا حقيقة أن عبدالحبيب بن صلاح لم يَتَولَّ الإمارة، قبل أخيه النقيب عبدالرب، كما أنه لم يلقَ ربه قبل توليّ أخيه الإمارة، وأن النقيب عبدالرب ظل لعقود رأس الإمارة الكسادية في ظل حياة أخيه عبدالحبيب، الذي عاصره ورافقه في بعض أسفاره، ومن أهمها السفر إلى مسقط تلبية لدعوة سعيد بن سلطان للوساطة بين الكسادي وآل ابن بريك سنة ١٢٤٤هـ. وهذا يدحض بالحُجَّة والدَّليل ما ورد في بعض المؤلفات من أن وفاة النقيب عبدالحبيب سبقت تولي النقيب عبدالرب الحكم، وأنه خَلَفَهُ بعد وفاته. بل ليس هناك ما يثبت إن كان عبدالحبيب قد تولى الإمارة بعد وفاة أخيه عبدالرب، أما قبله فأمر لا يقبل الشك بعد ما كشفته الوثائق الأصلية التي تعود إلى الشقيقين عبدالرب وعبدالحبيب وغيرها.

ومثلما انقسم المجتمع الحضرمي بين مؤيد أو معارض لحملة ابن قملا، كشفت الوثائق أيضًا أن مثل هذا الانقسام، قد برز أيضًا داخل الأسرة الكسادية في المواقف المتناقضة للشقيقين عبدالرب وعبدالحبيب من حملة ابن قملا ومن الدعوة الوهابية؛ إذْ وقف النقيب عبدالرب بن صلاح الكسادي، حاكم المكلا، موقف التوجس والريبة من حملة ابن قملا، ثم سعى عبر رجاله للتحالف مع خصمه النقيب ناجي بن علي بن بريك حاكم الشحر في وجه الحملة قبل وصولها، ورغم أن الحملة وصلت الشحر، ولم تدخل المكلا، فإن النقيب عبدالرب، كما دللت رسائله، كان معارضًا لها وللدعوة الوهابية إجمالاً، وكان يفرح لانكساراتهم وهزائمهم أمام قوات محمد علي باشا الوالي العثماني على مصر في معارك الحجاز ونجد، بل يبدي تأييده للقوات التركية، ويعبر عن إعجابه بضخامة عددها، ولا يخفي سروره لكل انتصاراتها، ويتابع سيطرتها على مدن الحجاز، وحتى توجّهها لحصار الدرعية، ويدعو لها بالنصر.

وعلى النقيض من ذلك اتخذ النقيب عبدالحبيب بن صلاح الكسادي مواقف مؤيدة ومساندة للدعوة الوهابية. ولا يستبعد تواصله مع قادة حملة ابن قملا وأتباعهم في وادي حضرموت قبل أن تتجه الحملة إلى الساحل وتبلغ الشحر، والأرجح أنه هو من طمّع ابن قملا ومن معه بالوصول إلى البنادر (الموانئ). وقد كشفت لنا رسائله تأثره بدعوة الإمام محمد عبدالوهاب،



وتكشف لنا لغة رسائله أنه من أكثر المتحمِّسين لنصرتها؛ إذْ سعى لتجنيد مجاهدين من يافع، وربما من حضرموت بغية إرسالهم لدعم المسلمين ومساندتهم، ويقصد بهم قوات آل سعود ضد أعدائهم الذين يقصد بهم الأتراك، وعلى نفقته بحراً بوساطة الزوارق البحرية أو عبر الجبال للجهاد في سبيل الله، بغرض الثواب والأجر والغنيمة.

وعلى عكس شقيقه النقيب عبدالرب نجده متشبعًا بأفكار دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب، وحرص على أن يصبغ رسائله بها لحض المجاهدين الذين يفضل أن يكونوا **"موحدين لله ومحبين للإسلام ويؤثرون الدنيا على الآخرة"**. ولأن مثل هذه الدعوة للجهاد قد جاءت متأخرة، فلم يكتب لها النجاح، والسبب أنها تزامنت مع اقتراب هزيمة آل سعود، ثم سقوط عاصمتهم الدرعية على يد الأتراك العثمانيين، وهو ما أضعف الدعوة الوهابية في حضرموت، وأنهى تأثير حملة ابن قملا، التي أصبحت بعد ذلك مجرد سحابة صيف عابرة في التاريخ الحضرمي.

---

* أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية جامعة عدن.

الهوامش:

١) انظر: الإمارة الكسادية في حضرموت، سامي ناصر مرجان ناصر، دار الوفاق، عدن، ط١، ٢٠١٢م، ص٩٩.

٢) معجم بلدان حضرموت المسمى إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، السيد عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف، تحقيق: إبراهيم المقحفي، عبدالرحمن حسن السقاف، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ٢٠٠٢م، ص٥٠.

٣) معجم بلدان حضرموت المسمى إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، ص٥٢.

٤) انظر: الإمارة الكسادية في حضرموت، سامي ناصر مرجان ناصر، دار الوفاق، عدن، ط١، ٢٠١٢م، ص١٠١.

٥) نائب الشرع، لقب مُنح له من قبل مولى عينات لنيابته في القضاء والفقه في يافع.

٦) تمت الاستفادة من تلك الوثائق في أبحاث نشرت وأخرى في طريقها للنشر، منها بحث للدكتور علي صالح الخلاقي بعنوان (الصراع الكسادي-البريكي في وثائق تاريخية تُنْشرَ لأوَّل) قُدِّم إلى المؤتمر العلمي الرابع "التاريخ والمؤرخون الحضارمة في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي" الذي نظمه مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر يوم ١٩ ديسمبر ٢٠١٩م في المكلا- حضرموت. وبحث بعنوان (من وثائق تاريخ إمارة آل بن بريك في الشحر - اتفاقيتان بين النقيب ناجي بن علي بن ناجي بن بريك وآل بني بكر وخُلاقة في يافع سنة ١٢٢٥هـ)، أ.د. علي صالح الخلاقي، مجلة "حضرموت الثقافية" العدد(٧) مارس

٢٠١٨م، الصفحات ١١-١٤. وكتاب المؤلف الصادر هذا العام بعنوان (حملة بن قَمْلا الوَهَّابية على حضرموت مطلع القرن ١٣هـ/ ١٩م- ما لها وما عليها مع وثائق تاريخية تُنشر للمرة الأولى).

٧) انظر صورة رقم (١)، من محفوظات الشيخ ناصر علي محمد الفقيه بن عزالدين البكري.

٨) انظر صورة رقم (٢)، من محفوظات الشيخ ناصر علي محمد الفقيه بن عزالدين البكري، والرسالة مرسلة للفقيه عبدالحبيب بن أحمد حيدر الفقيه البكري، من طاهر معوضة سعيد عوسان بتاريخ يوم الاثنين ٢٠ ربيع أول سنة ١٢٤٤ هجرية.

٩) انظر الوثيقة رقم (٣)، من محفوظات الشيخ ناصر علي محمد الفقيه بن الفقيه بن عزالدين البكري.

١٠) علي بن ناصر بن يحيى بن الشيخ علي هرهرة، من أسرة سلاطين يافع آل هرهرة، كان جدهم الشيخ علي هرهرة مصلحًا ومرشدًا دينيًا في يافع العليا العلامة نصبه السيد الشيخ أبا بكر بن سالم مولى عينات قبل أن تدركه الوفاة عام ٩٩٢هـ ثم لما مات الشيخ علي خلفه ابنه الصالح أحمد بن علي ولما توفي أحمد بن علي خلفه ابنه الشيخ صالح بن أحمد وفي أيامه تزايد اختلال أمر الدولة الإمامية وعم الفساد والظلم على عهد الإمام المتوكل ثم الإمام المهدي صاحب المواهب حتى ثار على هذا الإمام جميع سادات اليمن من سلاطين وأمراء ومشايخ الذين ضمهم إلى الدولة الإمامية الإمام المتوكل على الله إسماعيل فاجتمعت كلمة يافع العليا على طاعة الشيخ صالح بن أحمد وأقاموه سلطانًا عليهم وأناطوا به مهمة إنقاذهم من جور حكم الإمام فحالف السلطان معوضة بن عفيف اليافعي سلطان القارة وابتدأت الحركة من يافع انظر: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، أحمد فضل بن علي محسن العبدلي، دار العودة بيروت ط٢ ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص ١٠٨-١٠٩.

١١) انظر الوثيقة رقم (٤)، من محفوظات الشيخ ناصر علي محمد الفقيه بن الفقيه بن عزالدين البكري.

١٢) انظر: (الصراع الكسادي – البريكي في وثائق تاريخية تُنْشَرُ لأوَّل مَرَّةٍ)، أ. د. علي صالح الخلاقي. بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الرابع "التاريخ والمؤرخون الحضارمة في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي" الذي نظمه مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر يوم ١٩ ديسمبر ٢٠١٩م في المكلا- حضرموت.

١٣) انظر الوثيقة رقم (٥)، من محفوظات الشيخ ناصر علي محمد الفقيه بن عزالدين البكري.

١٤) انظر الوثيقة رقم (٦)، من محفوظات الشيخ ناصر علي محمد الفقيه بن عزالدين البكري.

١٥) شيخ بني بكر-يافع في ذلك العهد، وآل دينيش هم بيت المشيخة في بني بكر حتى اليوم.

١٦) جَبَوا له: وافقوا له.

١٧) انظر الوثيقة رقم (٧)، من محفوظات الشيخ ناصر علي محمد الفقيه بن عزالدين البكري.





١٨) انظر الوثيقة رقم (٨)، من محفوظات الشيخ ناصر علي محمد الفقيه بن عزالدين البكري.

١٩) انظر الوثيقة رقم (٩)، من محفوظات الشيخ ناصر علي محمد الفقيه بن عزالدين البكري.

٢٠) نص الحديث كما جاء في مسند أحمد: "لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ".

٢١) مدينة تربة أو «تربة البقوم»، مدينة قديمة تقع على حدود نجد مع الحجاز، وتبعد عن جنوب شرق مكة المكرمة بحوالي ١٩٠ كيلومترًا.

٢٢) لم يرد في الحديث ذلك النص وإنما ورد قوله صلى الله عليه وسلم: «غَزْوَةٌ فِي الْبَحْرِ أَفْضَلُ مِنْ عَشْرِ غَزَوَاتٍ فِي الْبَرِّ، مَنْ جَازَ الْبَحْرَ غَازِيًا فَكَأَنَّمَا جَازَ الأَوْدِيَةَ كُلَّهَا».

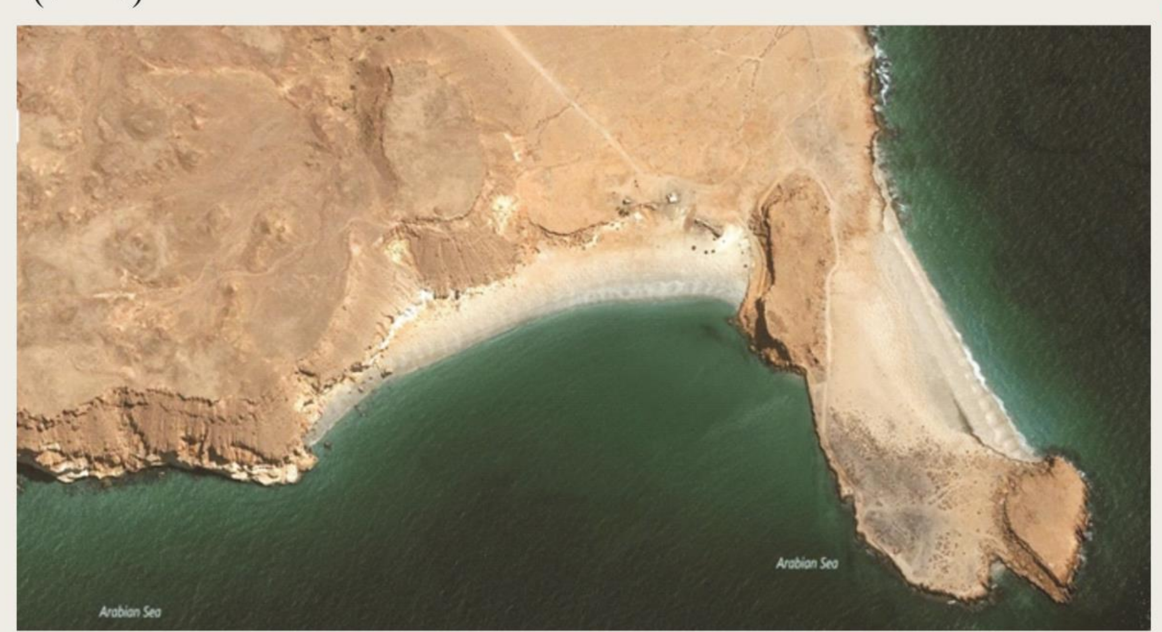
٢٣) آل الوحيري، هم شيوخ ناصفة مكتب لبعوس في يافع (آل عمرو والسيل).

٢٤) انظر الوثيقة رقم (١٠)، من محفوظات الشيخ ناصر علي محمد الفقيه بن عزالدين البكري.

ميناء شُرْمَة التاريخي في العصور القديمة

(من عصور ما قبل التاريخ إلى قبيل الإسلام)

(٢ - ٢)





طاهر ناصر المشطي

ثانيًا: مستوطنة شرمة وما جاورها خلال حقبة حضارة جنوب الجزيرة العربية:

وفيما يتعلق بالبيانات التي تم جمعها من قبل البعثة الفرنسية في موقع شرمة والمناطق المجاورة لها لحقبة حضارة جنوب الجزيرة العربية (العصر الجاهلي)، ترى البعثة ضعف النشاط البشري وقلته في تلك العصور بالمقارنة مع النشاط البشري في عصور ما قبل التاريخ والعصر الإسلامي(٤٥).

وعلى كل حال فقد ورد أقدم ذكر لميناء شرمة قبل الإسلام باسمها المعروفة به اليوم في خريطة بطليموس الإسكندري(٤٦) المتوفى عام ١٦٧م، وقد وضع هذه الخريطة في أجواء سنة ١٤٠م، ذكر اسم الأسعاء وسماها Alasa Emporiam، وذكر إلى غربها ميناء (بروم) وإلى شرقها ميناء شرمة إضافة إلى عدد من المرافئ القديمة التي لا يستطاع تبيان أسمائها الصحيحة على الخريطة المذكورة(٤٧)، ولكن شرمة سُكنت قبل ذلك التاريخ بوقت كبير، كما ذكرنا آنفًا.

١ - أهم المعالم الأثرية لحضارة جنوب الجزيرة العربية في ميناء شرمة هي:

أ. الشرفة الميغاليثية Megalithic terrace:

هذا الهيكل الضخم المثير للإعجاب، يقع في أعلى نقطة من الجزء العلوي باتجاه قمة الهضبة الشرقية، على حافة منحدر ارتفاعه نحو ثلاثين مترًا، والذي يسيطر على الميناء (الشكل)(٤٨)، رجحتها البعثة الفرنسية على أنها قاعدة مبنى الطابق السفلي الذي يعود لحضارة الجنوب العربي، لتحديد أكده وجود بعض القطع غير المنتظمة لعصور ما قبل الإسلام (الجاهلية) في مستويات العصور الإسلامية(٤٩). وحجارة الميغاليث(٥٠) الضخمة هذه لم تجزم البعثة بحقيقة

هذا المبنى الضخم، فتارة افترضته أنه قاعدة لمعبد حميري يشرف على الخليج(٥١)، وتارة تشبهه بالمخطط التفصيلي لشرفات المعابد خارج أسوار المدن (extra-muros)، وتارة ترجحه على أنه فنار أو قلعة تشرف على الميناء لحراسته وإرشاد السفن(٥٢). ومهما يكن فإن هذه الأنقاض تدل على ضخامة هذا الهيكل المثير للإعجاب، والذي ينتمي لحضارة جنوب الجزيرة العربية.



الشكل (٢٣) أنقاض الشرفة الميغاليثية
Megalithic terrace

ب. شقفات الخزف من حقبة ما قبل الإسلام:

كما جرى تحديد عدد من شقفات الخزف من حقبة ما قبل الإسلام في الموقع، منها ما هو مستورد من الهند وعمان وإيران(٥٣)، مما يؤكد أن شرمة كانت ميناءً نشطًا في تلك الحقبة، غير أن من الغرابة أن الحفريات لم تظهر أي أثر لطبقات من حقبة حضارة جنوب الجزيرة العربية(٥٤)؛ إذْ إن طبقات العصور الوسطى دائمًا ما تفترش مباشرة على القاعدة التحتية، أو على ودائع عصور ما قبل التاريخ، ومع ذلك، تم توثيق هذا النشاط الاستيطاني للعصر الجاهلي بشكل جيد(٥٥).

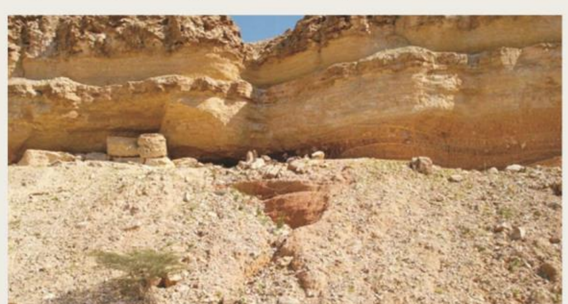
ج. المقبرة القديمة:

وهي مطمورة تحت الرمال عند الركن الجنوبي الغربي من الهضبة الشرقية، يوجد بها عشرات القبور الدائرية.

أما أهم المعالم الأثرية لحضارة جنوب الجزيرة العربية في محيط ميناء شرمة هي:

أ. موقع الجاهلية:

يقع هذا الموقع شمال شرق قرية المعيملة على الضفة الشرقية لوادي ضبة، هذا الموقع عبارة عن مغارة (جولة كبيرة، يعتقد أنها كانت محطة لاستراحة القوافل القادمة من ظفار إلى ميناء قنا، وهي تحمل تجارة حضرموت من اللبان والمر والبخور في العصر الجاهلي (ما قبل الإسلام).



الشكل (٢٤) كهف الجاهلية

وقد أشار إليه الباحث والمؤلف الدكتور محمد عبدالقادر بافقيه عند ذكره لأهم المستكشفات الأثرية في حضرموت في بداية الستينيات من القرن الماضي، وذكر مجموعة مواضع، منها موضعان بخصان الديس حيث قال الدكتور عنهما:

الموضع الأول: مخربشات في كهف في حلفون بالمشقاص.
- (يقصد به كهف الجاهلية).

الموضع الثاني: مخربش ثمودي (؟) على صخرة ملساء من الديس الشرقية (بمتحف المكلا)(٥٦) يقصد بها صخرة الواسطة.

.. والدليل على إن المنطقة ممر لطرق القوافل بالإضافة إلى المخربشات هو أسماء الأماكن المجاورة لها مثل (الميزاع) عين غيضة بيت نمور والتي تعني العبور، ومنطقة أخرى تسمى (عبور) والمجزعة وهي ملتقى طرق برية أيضًا.

ب. كتابات بخط المسند ومخربشات:

تنتشر هذه الكتابات في كثير من المناطق منها:

- **خلة مشبأ:** بوادي ثوب وهي عبارة عن حصاة كبيرة بها كهف، وبجانبها قبور قديمة لا يعرف من قبر فيها، كان البدو يحجون إليها، حيث يأتون من جميع الغياض المجاورة، وتوجد بالكهف كتابات جنوبية قديمة.
- **نجّة براح:** وتقع شرق الغاغ، وهي عبارة عن منطقة أثرية بها كتابات جنوبية قديمة.
- **الحضرميات:** وهي عبارة عن حصاتين بها كتابة جنوبية قديمة بالوقر (محفورة)، في منطقة وادي عسموت.





• **حضركات:** بوادي شزوة حيث عثر الأهالي على كتابات جنوبية قديمة وذلك بعد أن نبش السيل المار بموقع يسمى (المخر) عن هذا الكنز، وهو عبارة عن مجموعة الحجارة المتوسطة الحجم في شكل دائرة، وكل حجر من هذه الأحجار عليها كتابات بخط المسند.

• مناطق طرق القوافل القديمة مثل منطقة حصاة حمورة وحصاة الواسطة، والجاهلية ومشبأ ونابخ بطريق غيل بن يمين وغيرها...





الشكل (٢٥) نماذج من مخربشات كهف الجاهلية

ج. حصن الكافر:

يقع هذا الحصن الأثري إلى الشمال من قرية حلفون على تل صغير بجانب الطريق المتجهة من حلفون إلى المعيملة في الجهة الغربية منها، وهذا الحصن القديم ما تزال أساساته موجودة، تقدر مساحة آثار حصن الكافر بأكثر من ٥٠٠٠ قدم مربع وقدرنا أبعاده بـ ٦٠ قدمًا باتجاه من الشرق إلى الغرب وحوالي ٨٥ قدمًا باتجاه من الشمال إلى الجنوب هذه آثار الأساسات الظاهرة على سطح الأرض ربما تكون هناك أجزاء أخرى منه تحت التراب. يعتقد أن مثل هذه الحصون وظيفتها حراسة طرق القوافل من لصوص البر.



الشكل (٢٦) حصن الكافر (حلفون)

د. قبور الجاهلية:

هذه القبور تنتشر في مواقع مختلفة من المنطقة تعرفنا على ثلاثة مواقع وهي: الموقع الأول في مدخل غيضة بيت نمير؛ حيث توجد ستة قبور دائرية وقبور أخرى تعرضت لجرف السيول، الموقع الثاني في وادي شبدوت لم نتمكن من الوصول إليه، ولكن سنحاول إن شاء الله في المرة القادمة – والموقع الثالث شمال غرب قرية المعيملة على الضفة الغربية لوادي ضبه، في اتجاه مقابل لموقع الجاهلية، حيث توجد مجموعة من القبور المدورة لما قبل الإسلام.





الشكل (٢٧) نماذج لقبور عصر ما قبل الإسلام على ضفاف وادي ضبة

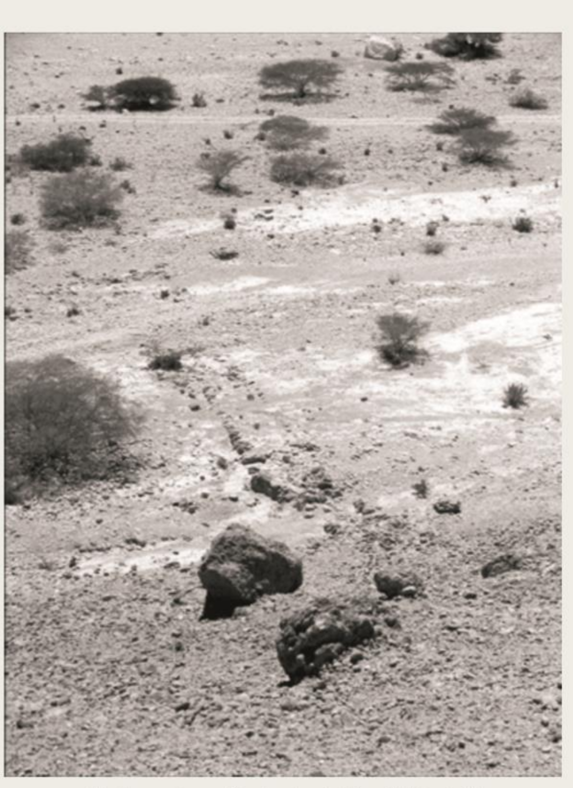
هـ. آثار زراعية:

منها الحاجز المائي الذي عثرت عليه البعثة الفرنسية في الطرف الشمالي من مجرى وادي ضبة، على بعد ٢٠٠ متر من المنبع عند التقائه مع وادي حمم عند الموقع (N/٥٠,٠٧٨٩٧٢°E°١٤,٩٤٦٦٦٦).[٥٧]

ومنها ثلاثة سدود صغيرة مرتبة من خلال القنوات الطبيعية عند الموقع (N/٥٠,٠٨٣٥٥٥°E°١٤,٨٤٧٤٧٢).[٥٨]

وغيرها من الآثار الخاصة بالزراعة.





شكل (٢٨) بقايا حاجز مائي بوادي ضبة

من خلال العرض السابق لمظاهر الاستقرار البشري في ميناء شرمة والمناطق المحيطة به، نلاحظ نشاط السكان واشتغالهم بالزراعة والرعي وصيد الأسماك والملاحة البحرية منذ عصور ما قبل التاريخ، فكانت المنطقة الجنوبية من جزيرة العرب (حضرموت وعُمان) قد أدَّتْ عملًا رياديًا في الملاحة البحرية منذ الألف الرابع قبل الميلاد، ومع الرخاء والاستقرار الذي دام منذ أواخر القرن الأول ق.م حتى أواخر القرن الأول الميلادي ازداد الإقبال مجددًا على السلع النفيسة من عطورات وبهارات وعاج وغير ذلك مما يجلب من اليمن وأفريقيا والهند، وازداد عدد السفن التي كانت تطوف ذلك البحر والمحيط الهندي، وشيئًا فشيئًا أخذت السفن الرومانية الإغريقية المنطلقة من مصر تحذو حذو السفن اليمنية والهندية في الاستعانة بالرياح الموسمية في رحلتي الذهاب والإياب بين مصر والهند(٥٩)، فازداد التنافس بين الأساطيل التجارية المختلفة. ومع استقرار الأحوال في الإمبراطورية الرومانية انتعشت الموانئ على طول ذلك الطريق البحري للمحيط الهندي، وكانت موانئ حضرموت خاصة قنا وسمهرم وسياجورس **Syagros** وميناء كدمة يعرب (يروب) أو (خور جربون) وميناء شرمة وميناء دمقوت وريسوت وميناء المصينعة وغيرها من الموانئ النشطة في جنوب الجزيرة العربية في ذلك الزمن، وكان يصدر من هذا الميناء بعض المنتجات الزراعية للمنطقة ومنها اللبان وغيرها.

وهكذا يبدو أن تجار الإغريق والرومان وإن سيطروا على غالب تجارة الهند في المحيط الهندي والبحر الأحمر فقد ظل العرب ينتفعون ببيعها، ويقومون بنقل منتجاتهم الخاصة من البخور والصموغ ومشتقاتها بقوافل الإبل، ويعملون على تصريفها، ويجنون أرباحها. وهو أمر لم ينتفع به الجنوبيون وحدهم، وإنما انتفع به العرب الشماليون أيضًا لمدد طويلة مما سنعود إلى ذكره فيما بعد.

وإن السفن الإغريقية والرومانية وإن عرفت الطريق البحري القصير المباشر إلى الهند فإنها ظلت تلجأ إلى الموانئ العربية من حين إلى آخر للاتجار معها مباشرة، أو للراحة فيها والتزود منها بالماء والزاد خلال رحلاتها الطويلة إلى سواحل الهند وعودتها منها. بل ظلت تسمح لبعض السفن العربية بالاشتراك معها في التجارة، وذلك مما يعني أنها لم تقاطعها جملة ولم تحرمها من التجارة جملة. وقد كان للحميريين على ساحل البحر الأحمر وساحل البحر العربي أسطول تجاري ضخم لا يمكن تجاهله(٦٠)، وكان الساحل اليمني مزدحمًا بأصحاب السفن والملاحين العرب وهم دائبون على أعمالهم التجارية مع أرتيريا والصومال وبريجازا (في الهند) وعمان وفارس وغيرها(٦١).

الدلائل على مساهمة ميناء شرمة والمناطق المجاورة في تجارة حضرموت في العصور القديمة:

١. تتشابه بعض المواد من الواردات الهندية إلى ميناء شرمة مع بعض المواد الواردة إلى ميناء قنا(٦٢)، التي يعود تاريخها إلى القرنين الثالث والرابع الميلادي. وبعض الأواني الزجاجية التي يمكن أيضًا أن تعود إلى ذلك الوقت(٦٣)، هذا ما أكدته التنقيبات الأثرية في كلا الميناءين. وهذا يعني تزامن النشاط التجاري للميناءين في هذه المدة الزمنية. وقد شهدت تلك القرون نمو النشاط التجاري





العربي البري والبحري، فقد كانت موانئ اليمن قبلة السفن القادمة من الشمال (مصر)، ومن الجنوب (أفريقيا)، ومن الشرق (الهند)، وكان اليمنيون والهنود معًا أول من تعرف على نظام حركة الرياح الموسمية واستفاد منه في تسيير السفن في الاتجاهين، وزادت بسبب ذلك أنواع السلع وكمياتها التي كانوا يتاجرون فيها(٦٤).

٢. انتقال قبيلة آل غراب من ميناء قنا إلى شرمة أحدث طفرة نوعية لميناء شرمة: يذكر بامطرف بانضمام قنا إلى اتحاد (سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت)، انتقلت قبيلة آل غراب– التي كانت تسكن منطقة (قنا) بما فيها حصن الغراب الذي سمي باسم هذه القبيلة– من حصن الغراب إلى شرق الشحر في (شرمة) وتحالفت مع قبيلة الحموم وهي فرع من قبيلة حضرموت المهيمنة على ساحل الشحر الشرقي(٦٥). إن انتقال قبيلة آل غراب من ميناء قنا وهي القبيلة التي تمتلك خبرة وعلاقات في التجارة الداخلية والخارجية والملاحة البحرية وكانت تسيطر على تجارة اللبان لا شك في أنها قد سخرت تلك العلاقات التجارية والخبرة عند انتقالها لموطنها الجديد . وبتحالف آل غراب مع الحموم أعطى الحضارم في المنطقة الشرقية قوة إلى قوتهم وتماسكًا إلى تماسكهم، ولا شك في أن ميناء شرمة في هذه المدة قد شهد طفرة كبيرة بقدوم آل غراب إليه ... ومما يؤكد تشابه مخطط الشرفة الميغاليثية في ميناء شرمة إلى حد ما مع مخطط مبنى يقع في الجزء العلوي من حصن الغراب في بئر علي الذي لا يبعد سوى ٢٠٠ كم عن ميناء شرمة، والذي اقترح بأنه موقع فنار أو موضع إشارة(٦٦).

٣. توسط موقع ميناء شرمة بين مينائي قنا وسمهرم: يتحدث صاحب كتاب الطواف حول البحر الإرتيري(٦٧) في هذه المدة عن نشاط ميناء قنا، وهو الميناء الرئيس لدولة حضرموت الذي كان يصدر منه أجود أنواع اللبان والذي يجلب إليه بحرًا من الميناء المعروف في النقوش باسم (ساكلن/ سمهرم) في إقليم ظفار شرق بلاد المهرة، وربما أن ميناء شرمة قد استغل في هذه المدة نتيجة لموقعها المتوسط بين ميناء سمهرم إلى شرقها وميناء قنا في غربها، ومنابت أشجار اللبان في شمالها، وهذا الخط التجاري المهم الذي كان ينقل بوساطته سلع اللبان والبخور والتوابل من ميناء سمهرم إلى ميناء قنا في تلك المدة، بالإضافة لانتشار أشجار اللبان على نطاق واسع شمال وشمال شرق وشمال غرب.

٤. ارتباط ميناء شرمة بطرق القوافل التجارية: بالإضافة لارتباط ميناء شرمة بخطوط الملاحة العالمية، هناك دلائل على وجود طريق للقوافل التجارية من وإلى ميناء شرمة عبر وادي جثمون. فالقوافل القادمة من جهة الشرق (المشقاص) أو الذاهبة إليها تسلك طريقًا عبر وادي حمم إلى الطريق التجاري العام، والقوافل القادمة من جهة الغرب (المعراب) أو الذاهبة إليها تسلك وادي شبدوت نحو الطريق التجاري بين الشرق والغرب، واتصال تلك الطرق بمناطق إنتاج اللبان في المنطقة، كما تدل الآثار على وجود مستوطنات قديمة أسماؤها مستوحاة من اللغات العربية الجنوبية القديمة بما يدل على انتمائها إلى حضارة جنوب الجزيرة ومن هذا الأسماء: شبدوت، حلفون، جثمون، رغدون(٦٨). ويستخدم الطريق البري عند غلق البحر بسبب اضطراب الأمواج في موسم الخريف . كما أن من أسماء المناطق التي تمر بها القوافل أسماء لها دلالات ومعاني العبور، مثل: منطقة المجزعة (ملتقى أودية يموان والنترة وحمورة)، والميزاع (بيضغط) ومعبر بوادي معبر ومنطقة عبور بوادي شزوة .

٥. إن آثار الاستيطان لعصور تلك الحقبة الزمنية، والودائع واللقى الأثرية بما فيها العثور على عملات تنتمي لدولة حضرموت القديمة بضواحي ميناء شرمة: لهو دليل على هذا النشاط التجاري في المنطقة؛ إذْ عثر على هذه العملات في منطقة خلفة التاريخية على عملات حضرمية منقوش عليها اسم القصر الملكي شقر، ويرجع تاريخ هذه العملة إلى القرن الثاني قبل الميلاد منذ عهد الملك يدع أول ملوك حضرموت ومؤسس القصر الملكي شقر(٦٩)، كما عثر في منطقة الرمادة إلى الغرب من منطقة



خلفة على عملات حضرمية عليها صور حيوانات. إن وجود عملة دولة حضرموت في مناطق ظهير ميناء شرمة في المناطق المذكورة آنفاً لهو دليل قوي على دور هذه المناطق التجارية مع ميناء شرمة التاريخي.

ويفسر المؤرخ والأنثروبولوجي الدكتور عبدالعزيز جعفر بن عقيل وجود عملات مملكة حضرموت في منطقة خلفة على أن هذا الساحل قد استخدم في يوم ما بوصفه مرفأ مؤقتًا لتفادي سيطرة الدولة المركزية والتهرب من الضرائب(٧٠). كما يفسر العثور على عملات مملكة حضرموت في المناطق الداخلية على ارتباط تلك المناطق بالطرق التجارية القديمة للقوافل.

وأخيرًا إن المنطقة الساحلية من حضرموت والمهرة بحاجة إلى المزيد من الدراسات لاستكشاف كنوزها الأثرية، فهي إلى الآن لم تحظ إلا باليسير من الدراسات، بالمقارنة مع تاريخها القديم وآثارها المنتشرة سواء على السواحل أو الأودية، لذا نوصي الجهات المختصة بأن توليها بالاهتمام والعناية.

الهوامش والمصادر:

٤٥) Jérémie Schiettecatte, I /٢. L'occupation sudarabique . p no ٢٥

٤٦) عالم رياضيات إغريقي، وجغرافي، وعالم فلك ومنجم. في الإسكندرية العام .

٤٧) المؤرخ / محمد عبد القادر بامطرف الشهداء السبعة، ص٢.

٤٨) Jérémie Schiettecatte , I /٢. L'occupation sudarabique . p no ١٩

٤٩) Axelle Rougeulle (Sharma Un entrepôt de commerce médiéval sur la côte du ?a?ramawt (Yémen, ca ٩٨٠-١١٨٠). Introduction , P ٤

٥٠) عبارة عن قطع من الحجارة الكبيرة .

٥١) أكسيل روجول، الحفريات الأثرية في شرمة – مواسم ٢٠٠١ و٢٠٠٢م / حوليات يمنية ٢٠٠٣م، المعهد الفرنسي للآثار بصنعاء ص٤٨ .

٥٢) Jérémie Schiettecatte , I/٢. L'occupation sudarabique . p no ١١

٥٣) Dionisius A. Agius , (Classic Ships of Islam(From Mesopotamia to the Indian Ocean .•٢٠٠٨ P٩٤

٥٤) أكسيل روجول، الحفريات الأثرية في شرمة – مواسم ٢٠٠١ و٢٠٠٢م / حوليات يمنية ٢٠٠٣، المعهد الفرنسي للآثار بصنعاء ص٤٨

٥٥) Jérémie Schiettecatte , I /٢. L'occupation sudarabique . p no ١١

٥٦) بافقيه، محمد عبدالقادر (المستشرقون وآثار اليمن)، ج٢، ص ٩٩٢.

٥٧) Jérémie Schiettecatte , I /٢. L'occupation sudarabique . p no ٢٣

٥٨) Jérémie Schiettecatte , I /٢. L'occupation sudarabique . p no ٢٤

٥٩) مختارات من النقوش اليمنية د. محمد عبدالقادر بافقيه وآخرون، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إدارة الثقافة ١٩٨٥م، ص٢٨ .

٦٠) الكتاب: تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، المؤلف: عبدالعزيز بن صالح، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، ص ١١١ .

٦١) الخشَّاب يحي، مقدم ومراجع كتاب (العرب والملاحة في المحيط الهندي) تأليف جورج فضلو حوراني، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، ص٣.

٦٢) (سيدوف، ١٩٩٢م، الشكل ٣,١، التي يعود تاريخها إلى القرنين الرابع والثالث الميلادي) و Berenike [برنيك] (خريف عام ٢٠٠٠م، الشكل ٢,٥).

٦٣) Jérémie Schiettecatte , I /٢. L'occupation sudarabique . p no ١١

٦٤) مختارات من النقوش اليمنية د. محمد عبدالقادر بافقيه وآخرون، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إدارة الثقافة ١٩٨٥م، ص٢٥.

٦٥) بامطرف، محمد عبد القادر، (الشهداء السبعة)، ص٣٠.

٦٦) Jérémie Schiettecatte , I /٢. L'occupation sudarabique . p no ١٩

٦٧) كتاب الطواف حول البحر الإرتيري لمؤلف مجهول .

٦٨) خلص الباحثون على أن الواو والنون، والواو والتاء ..في بعض الأسماء الحضرمية والمهرية إنما هي بمثابة (أل) التعريفية، وإنما اختلفت باختلاف الزمان والمكان، والله أعلم بحقيقة الأمر (المصدر: حاشية إدام القوت ص ٦٧٩).

٦٩) انظر تاريخ اليمن القديم للدكتور محمد عبدالقادر بافقية، (ص٣٩ – ٤١).

٧٠) مقابلة أجراها الباحث مع المؤرخ والإنثروبولوجي الدكتور عبدالعزيز جعفر بن عقيل نشرت ضمن موضوع كنوز بلادي بمجلة خلفة العدد (الثالث) مايو ٢٠٠٩م .





30
العدد (22)
أكتوبر
ديسمبر
2021م



الأسماك والأحياء البحرية في بحر العرب

ساحل حضرموت (أنموذجًا)

الحلقة الثامنة

الأسماك الراكدة في الأسواق (٣)

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (سورة المائدة ٩٦).



أ. عمر خميس بامتيرف

نواصل الحديث في هذه الحلقة عن الأسماك البحرية التي لم تعط لها أي أهمية من وجهة نظر الكثير من الناس، وتعود هذه الاستثنائية بناء على عدم معرفة هؤلاء بهذه النوعيات الممتازة، والسبب يعود إلى البعد وعدم المعرفة بما يمتلكه البحر أولاً، مما جعلهم لا يدركون قيمة أسماك البياض وفوائدها، والعادة شملت الكثير من الأسر التي اقتصرت رغبتها على ثلاثة أنواع من الأسماك (الثمد، الشروي، الزينوب)، واعتمادها على جزئيات معينة من لحم هذه الثلاثة الأسماك وغيرها لا.

علماً أن هذه الأسماك (ثمد، شروي، زينوب) تمر بموسم أقل جودة وفائدة، في وقت تتوافر فيه أسماك أخرى، وأهمها أسماك القشار البياض الأكثر جودة وزيادة الفوائد في مواسمها المحددة خلال فصول السنة لتبلغ قيمتها الغذائية إلى درجة عالية من الرقي في ذوقها وطعمها ولذة في سمنها الشهي، وفي الحلقة السابقة (٢) تحدثت عن بعض الأسماك غير المرغوب فيها في الأسواق، مرفقة بالصورة والمعلومات لغرض التعرف عليها وتمييزها حتى لا تُتحاشَى أو يُبتَعَدَ وتقديم الجديد، وهدفي أيضًا



توصيل المعلومة المفيدة لإقناع من لا يعرف قيمة هذه الأسماك وهم الذين يجهلون قيمة هذه الأسماك البياض وفوائدها، وهي كثيرة، مثل: سمك النساعة، سمك قناط، سمك سنك، سمك عقام، سمك أم العين الخضراء، سمك صليل، سمك عسية، سمك قفاد، سمك قصعر باغرغرة، سمك حزلق، سمك صديق، سمك دفين، وهي أسماك من عوائل متعددة رخيصة الثمن من حيث قيمتها السعرية، ومتوافرة في صالات الحراج والمفارش، وعند باعة التجزئة في أسواق الأسماك، كما نود الإحاطة بمصطلحات أسماء الأسماك في عدن ودول الخليج، ومصدرنا من سلطنة عمان الأستاذ: سعيد ربيع الشجيبي، وفي الحلقة القادمة سوف يكون الحديث عن أسماك مثيلة إن شاء الله تعالى.

Family: trlchlurldae

الاسم العربي: nasiha humalan - ribbon fish

الاسم الإنجليزي: trihiurus lepturus

الاسم العلمي: large head hair tail



نساعة nasiha humalan

سمكة النساعة: طولها لا يزيد عن ١٢٠ سم من صيد قشار العمق، وأحيانًا في مواقع متوسطة، الجسم شريطي، ولونها فضي لمَّاع، ولها زعنفة ممتدة من بعد الرأس إلى الذيل ذي الطرف الطويل، الزعانف الصدرية لونها داكن وعليها نقطة سوداء بين الفم والعينين، ولها أسنان حادة كبيرة على الفكين، وقد تم اصطيادها من بحر روكب قشار ١٧ - ٢٠ باعًا بحريًا بتاريخ ٢٥/ ١٠/ ٢٠٠٢م في فصل الشتاء، وتسمى في عدن والحديدة هوملان، وفي سلطنة عمان لها أسماء ومنها في صلالة تسمى سلسول، وفي صور تسمى بمبلي، وفي مسقط وصكار تسمى سيف، رندوه.

Family: trlchlurldae عائلة الهوملان

الاسم العربي: nasiha humalan - ribbon fish

الاسم الإنجليزي: trihiurus lepturus

الاسم العلمي: large head hair tail



نساعة: هوملان nasiha humalan

سمكة النساعة: النوع الثاني: طولها لا يزيد عن ١٢٥ سم، وجسمها شريطي الشكل، رمادي اللون ضارب للأسمر، ولها رأس طويل ومنحنٍ وممتد بأنف، ولها أسنان كبيرة وحادة وبعضها صغيرة على الفكين، ولها شوكة في كل زعنفة، ويفضل إنضاجها كبسة أو مقلية بالفلفل، وقد تم اصطياده من بحر روكب قشار الروينة، عمق ١٧ - ٢٠ باعًا بحريًا بتاريخ ٢/ ١١/ ٢٠٠٢م في فصل الشتاء، وتسمى في عدن والحديدة هوملان وفي بقية دول الخليج جغاغا، وفي سلطنة عمان لها أسماء متعددة ففي صلالة تسمى سلسول، وفي صور تسمى بمبلي، وفي مسقط وصكار تسمى سيف، رندوة.

Family- sphyraenidae

الاسم العربي: sphyraena - sanikae

الاسم الإنجليزي: sphyraena barracuda

الاسم العلمي: grast barracuda



سناكة sanika

سمك السناكة: نوعان وتتدرج في النمو على مرحلتين، النوع الأول صغيرها طوله لا يزيد عن ٦٠ - ١٢٠ سم، وتنمو حتى يصل طولها لا يزيد عن ١٨٠ سم، لون جسمها بني فاتح من أعلى، وفضي من الأسفل وعليه خطان أصفران ينتهيان نهاية الزعنفة الشرجية، والزعانف صفراء، والرأس قصير، وأسنانها حادة وخطيرة.



النوع الثاني سناكة طولها من ٦٠ - ١٢٠ سم، لون ظهرها رمادي داكن، والبطن رصاصي، وعلى الجزء العلوي من جسمها اثنتان وعشرون بقعة عرضية غامقة باللون الرمادي مغطاة بالقشور الصغيرة، تبدأ من أعلى الخيشوم، وتنتهي عند الذيل الزهري، ولها رأس ممتد شبيه بالرمح، وفم واسع بأسنان كبيرة وحادة خطيرة، منها اثنان على الفك السفلي، وأربعة في مقدمة الفك العلوي، وأخرى في الجزء الخلفي من الفك العلوي، إضافة للأسنان الحادة الصغيرة الواقعة بينها، وهذه السمكة متوحشة وخطيرة خاصةً بعد ما يتجاوز طولها عن ما ذكر سلفًا ٢٠٠ سم، تستقر في عمق ٢٠ - ١٠٠ باعًا بحريًا، ويفضل اصطيادها عبر وسيلة السنارة، أو عبر شباك الجر القاعية والعائمة، وقد تم اصطياده بالسنارة من بحر روكب قشار القمعة ٢٠ باعًا بحريًا بتاريخ ٢١/ ٥/ ٢٠٠٢م في فصل الصيف. ويفضل إنضاجها بالفحم عبر التنور، وتسمى في عدن والحديدة قُد، وفي سلطنة عمان تسمى في صلالة عقام أبو ذيل أصفر وفي صحار غلي أبو الصفط..

Family- sphyraenidae

الاسم العربي: kunat

الاسم الإنجليزي: sphyraena obtusata

الاسم العلمي: obtuse barracuda

sphyraena jello :



سمكة قناط kunat

سمكة قناط: طوله يصل إلى ١٥٠ سم، لون ظهره رمادي مزرق، والبطن فضية، وعلى الجزء العلوي من جسمه خطوط عرضية عدَّة على شكل أسهم، لونها رمادي غامق مغطاة بالقشور الصغيرة، ولها رأس محدب طويل، وفم واسع بأسنان كبيرة وحادة، لحمه لذيذ وطيب، ويفضل إنضاجه بالفحم عبر التنور، وتتوافر من عمق ١٧ - ٧٠ باعًا بحريًا، ويفضل اصطيادها عبر وسيلة السنارة أو عبر شباك الجر، وموسمها في فصل الربيع، وقد تم اصطيادها عبر شباك طرح المدود العائمة من بحر روكب باتجاه الروينة ١٧ - ٢٠ باعًا بحريًا بتاريخ ٢١/ ٥/ ٢٠٠٢م في فصل الصيف. ويسمى في عدن والحديدة قد، وفي سلطنة عمان في صلالة عقامة أصلية، أو مجزحة يعني مخططة، وفي صور عقام، وفي صحار تسمى قد.

Family- sphyraenidae

الاسم العربي: akam -

الاسم الإنجليزي: sphyraena putnamlas

الاسم العلمي: chevron barra cuda

sphyraena barracuda :



سمكة عقام akam

سمكة عقام: طولها يصل إلى ١٢٠ سم، وتُعد من صيد القشار البياض، جسمها مستدير مضغوط قليلاً ممتد مغطى بقشور، وعليه خطوط عدَّة مع بقع عدَّة صغيرة ودقيقة سوداء، الرأس كبير، والفم واسع يمتلك أسنانًا حادة، ظهرها داكن، والجوانب مع البطن فضية، ويفضل نضجها بالفحم عبر التنور، وموسمها فصل الشتاء والربيع، وتتوافر من عمق ٢٠ - ٧٠ باعًا بحريًا، ويفضل اصطيادها عبر وسيلة السنارة، أو عبر شباك المدود والجر، وقد تم اصطياده عبر شباك طرح المدود من بحر روكب فوق الروينة ٢٠ باعًا بحريًا بتاريخ ١/ ٦/ ٢٠٠١م في فصل الصيف. وتسمى في عدن والحديدة صايات، وفي دول الخليج دويلمي.

Family- chlorophthalmidae

الاسم العربي: am al aen al khdra

الاسم الإنجليزي: chlorophthalmus agassizi

الاسم العلمي: shortnose greneye

سمكة أم العين الخضراء om al aene - al khdra



أم العين الخضراء طوله ٩٠ سم رأس السمكة

سمكة أم العين الخضراء وتسمى سويد: طولها لا يزيد عن ٥٠ سم، جسمها أسود داكن غالبه وأملس لها قشور دقيقة في جزء قليل، وتعد من الأسماك النادرة في الأعماق يتدرج في نمو حياتها العمرية حتى يصل طولها ١٢٠ سم، وعيناها خضراوان غامقتان كبيرتان، الفك السفلي من الفم يتقدم على الفك العلوي، وفيه نابان وأسنان صغيرة مرصوصة وحادة على الفك السفلي، وثلاثة أنياب كبيرة وحادة وأسنان صغيرة مرصوصة، وحادة على الفك العلوي من الفم، والزعنفة الظهرية متراصة من بعد الرأس، وتمتد إلى قرب الذيل الأسود، الزعنفة الصدرية كبيرة، وعليها خط رقيق يبدأ من نهاية الرأس، ويمتد فوق الزعنفة الصدرية حتى الذيل، وتتوافر في الأعماق مع سمكة مدهر، وتتميز بمشاكسة الأسماك والأحياء الصغيرة المجاورة لها، وتوجد في أعماق مختلفة من ٧٠ - ١٠٠ باع، ويتم اصطيادها عبر السنارة، أو عبر الشباك، والشكات القاعية، وموسمها فصل الشتاء، ويفضل إنضاجها بالفحم، وقد تم اصطيادها بالصدفة عبر وسيلة شبك المدود فترة التصبية من بحر روكب ٧٠ باعًا بحريًا بتاريخ ٢١/ ٩/ ٢٠٠٢م في نهاية فصل الخريف..

Family ; centrolophidae

الاسم العربي: Shaem

الاسم الإنجليزي: trachinotus baillonii

الاسم العلمي: smallspotted dan



Shaem سمكة شغيم

سمكة شغيم: طولها لا يزيد عن ٢٥ سم، وعليها نقطة واحدة من جانب، ونقطتان أو ثلاث مصفوفة في الجانب الآخر، ولون الجزء العلوي من جسمها أزرق، وباقي الجسم فضي حتى يصل المرحلة الثانية وفق المواصفات المحددة في النوعين أدناه، وموسمها فصل الشتاء والربيع، وتتوافر من عمق ١ - ٧ باعات بحرية، ويفضل اصطيادها عبر وسيلة السنارة، أو الغدف البري، أو الشبك الساحلي، وتتوافر على امتداد الشريط الساحلي وبخاصة غرب بروم، وموسمها فصل الخريف.

Family ; centrolophidae

الاسم العربي: Shaem

الاسم الإنجليزي: trachinotus baillonii

الاسم العلمي: smallspotted dan



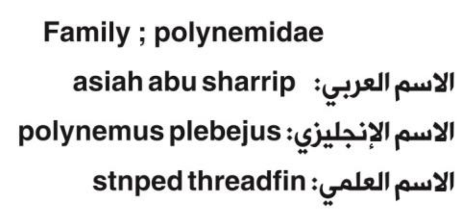


suleyl سمكة صليل سجر suleyl\sager صليل

النوع الأول سمكة صليل: جسمها عريض، طولها لا يزيد عن ٨٠ سم، وعليها ثلاث نقط دائرية ظاهرة أكبرها قريبة من الرأس، ولونها أزرق غامق من الأعلى، وأسفلها فضي مائل للبياض. النوع الثاني طولها لا يزيد عن ٩٠ سم، الزعنفة الصدرية قصيرة، وعليها خمس نقط تحت الزعنفة الظهرية أكبرها الوسطى، وظهرها أزرق، وباقي جسمها فضي مائل للبياض، وموسمها فصل الشتاء والربيع، وتتوافر من عمق ٣- ٢٠ باعًا بحريًا، ويفضل اصطيادها عبر وسيلة السنارة أو عبر شباك المدود والجر، وقد تم اصطيادها عبر شباك طرح المدود من خيصة الحمراء بحر بروم عمق ٧ باعات بحرية، عبر وسيلة شباك الجر بتاريخ ١/ ٦/ ٢٠٠١م في فصل الصيف، وموسمها منتصف الشتاء، ويفضل إنضاجها بالفحم عبر التنور، وهي من الأسماك المشهورة في مناطق الساحل لكنها معرضة للتهجير، ويسمى في عدن سجر، وفي دولة الكويت حمام.







Family ; polynemidae
الاسم العربي: asiah abu sharrip
الاسم الإنجليزي: polynemus plebejus
الاسم العلمي: stnped threadfin



سمكة عسية asiah abu sharrip

عسية أبو شوارب: النوع الأول طولها لا يزيد عن ٦٠ سم، ظهرها رمادي مائل للزيتوني، الجوانب والبطن فضية عليها خطوط وقشور رقيقة وعليها بقعة داكنة في مقدمة الخط الجانبي، ولها عشرة شوارب مرتبطة بالفك السفلي من الفم، الزعنفة الصدرية بنية، ويفضل اصطيادها عبر وسيلة السنارة أو عبر شباك المدود والجر، وقد تم اصطياده عبر شباك الغدف من بحر منكر بالريان عمق باعٍ بحري واحد بتاريخ ١/ ٣/ ٢٠٠١م في فصل الربيع، وموسمها منتصف الشتاء حتى نهاية فصل الصيف، ويفضل إنضاجها بالفحم عبر التنور، وهي من الأسماك المشهورة في مناطق الساحل لكنها تعرضت للتهجير وآخر مستقر لها في منطقة اختصاص بحر شحير من فلك حتى المعينة.

Family ; polynemidae
الاسم العربي: asiah abu sharrip
الاسم الإنجليزي: polynemus-sextarius
الاسم العلمي: black threadfin



سمكة عسية asiah abu sharrip

النوع الثاني طولها لا يزيد عن ٣٠ سم، ولها ثمانية شوارب مرتبطة بالفك السفلي من الفم، وجسمها فضي لمَّاع، وظهرها رمادي فاتح مائل للزرقة، وأطراف الزعانف سوداء، ولكل منها ذكر وأنثى، وقد تم اصطيادها عبر شباك الغدف من بحر منكر بالريان عمق باعٍ بحري واحد بتاريخ ١/ ٣/ ٢٠٠١م في فصل الربيع، وهي من الأسماك المشهورة في مناطق الساحل لكنها تعرضت للتهجير وآخر مستقر لها في منطقة اختصاص بحر شحير من فلك حتى المعينة. وتسمى في دولة الكويت شيم، ولحمها طيب، ويفضل نضجها بالفحم عبر التنور وموسمها منتصف فصل الشتاء حتى نهاية فصل الصيف.

Family ; polynemidae
الاسم العربي: kufadah
الاسم الإنجليزي: otolithoides biauritus
الاسم العلمي: bronze croaker



سمكة قفادة kufadah

قفادة طولها لا يزيد على ٤٠ سم، وجسمها فضي لمَّاع وظهرها رصاصي فاتح، وفي غالب جسمها نقط رقيقة، وفي الفك العلوي والسفلي من مقدمة الفم نابان حادَّان إضافة إلى وجود أنياب عدَّة صغيرة الحجم، الزعنفة الظهرية والزعنفة الصدرية والبطنية والشرجية صفراء، وزعنفة الذيل داكنة، الخياشيم تمتلك غطائين مسطحين، ولها غشاء أبيض بين عظمة البطن والأحشاء، وقد تم اصطيادها عبر السنارة من بحر روكب عمق باعٍ بحري واحد بتاريخ ١٣/ ١٠/ ٢٠٠١م في فصل الشتاء، وموسمها منتصف الشتاء حتى نهاية فصل الربيع، ويفضل إنضاجها بالفحم عبر التنور، وهي من الأسماك المشهورة على مناطق الشريط الساحلي لكنها معرضة للتهجير، وتسمى في دولة الكويت نويبي.

عائلة صيد البياض Family: carangidae

الاسم الحضرمي: kasar ba ararai

الاسم الإنجليزي: caranx heberi

الاسم العلمي: blacktip trevally



قصعر باغريغرة ararai ba kasar

سمك القصعر من نوع البياض، النوع الأول: قصعر طوله لا يزيد عن ٢٥ سم، يوجد في المواقع الرملية الساحلية من عمق ١ - ٣ باعًا بحريًا، وجسمه العلوي رصاصي مائل للزرقة وأسفله فضي لمَّاع، الزعنفة الظهرية والذيل أصفر وأطرافها سوداء، الزعنفة الصدرية الشرجية والبطنية صفراء، ويتم اصطياده هذه الأيام(يناير) بالسنارة في متناول الأطفال الماهرين من بحر روكب عمق باعٍ بحريٍ واحد، وعندما يكبر قليلاً ينتقل إلى المواقع المتوسطة ويسمى قصعر باغريغرة طوله لا يزيد على ٦٠ سم، ويستمر في مراحل النمو حتى يصل طمكري، ويوجد سمك القصعر وباغريغره في مناطق قريبة من عمق ٣ - ٢٠ باعات بحرية، ويتم اصطياده عبر السنارة أو عبر شباك المدود الساحلية والغدف الساحلي أو شباك الجر القاعية، وموسمه فصل الشتاء والربيع.

Family: carangidae

الاسم الحضرمي: kasar asalieg

الاسم الإنجليزي: caranx sexfasciatis

الاسم العلمي: beigey trevally



kasar asalieg قصعر جزلق

النوع الثاني قصعر حزلق طوله لا يزيد عن ٦٠ سم، من صيد البياض المخلوط الذي يعيش على الصخور والسواحل الرملية، لونه رمادي إلى الذهبي، وقشوره داكنة مائلة للسواد، ويتوسطه خط غليظ بقشور قوية، وعليه بقعة سوداء على حافة الغطاء الخيشومي، والكبير منه يسمى قصعر سهي، ويتوافر سمك القصعر الحزلق في مناطق قريبة من عمق ٣ - ٢٠ باعًا بحريًا، ويتم اصطياده عبر السنارة أو عبر شباك المدود الساحلية والغدف الساحلي أو شباك الجر القاعية، وموسمه فصل الخريف والشتاء.

Family: carangidae

الاسم الحضرمي: sadeeg

الاسم الإنجليزي: caranx melampygus

الاسم العلمي: Bluefin trevally

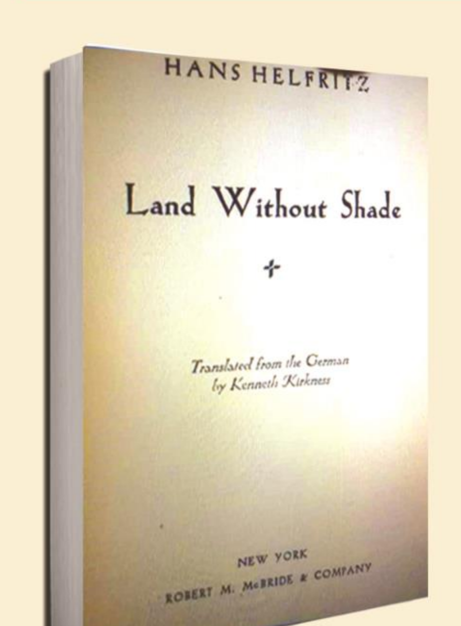


قصعر صديق sadeeg kasar

النوع الثالث قصعر صديق طوله لا يزيد عن ٦٠ سم، من صيد البياض المخلوط الذي يعيش على السواحل الصخرية الرملية من عمق ٣ - ٢٠ باعات بحرية، وعندما يكبر يتحول إلى سمك شرام، لون جسمه فضي ضارب إلى الزرقة، وقشوره داكنة يتوسطها خط غليظ بقشور قوية، وعليه بقعة سوداء وخط على حافة الغطاء الخيشومي، ويتوافر سمك الشرام من عمق ٧- ٧٠ باعات بحرية، ويتم اصطياده عبر السنارة أو عبر شباك المدود أو شباك الجر القاعية، وموسمه من فصل الخريف والشتاء حتى نهاية فصل الربيع .ويفضل إنضاجها بالفحم عبر التنور، والموسم المفضل فصل الشتاء.







أرضُ بِلا ظِلال

هانس هيلفريتس (Hans Hilfritz)

ترجمها من اللغة الألمانية إلى اللغة الإنجليزية
كينث كيركننز (Kenneth kirkness)

نيويورك
روبرت م. ماكبرايد

أرض بلا ظل
حقوق النشر هانز هيلفرتز ١٩٣٦م
طبع في الولايات المتحدة الأمريكية
النسخة الأولى

النسخة الألمانية لهذا الكتاب
نشرت في مدينة ليبزج (liepzig) في كتابين
الأول بعنوان (شيكاغو الصحراء)
والثاني بعنوان (أرض بلا ظلال)


ترجمة: د. خالد عوض بن مخاشن

الفصل الثاني: تاريخ أرض مجهولة:

تسمى سلطنة السلطان عمر الصغيرة (سلطنة الشحر والمكلا)، وقد اشتُق اسمها من اسمي أهم ميناءين يقعان بين عدن وعُمان، وأراضي هذه السلطنة عبارة عن شريط ساحلي ضيق يفصل البحر عن حضرموت الوادي والدويلات الموجودة هناك، وعلى الرغم من وجود علاقات وارتباطات سياسية بين سلطان المكلا وبين الدولة القديمة القائمة بداخل حضرموت، فإن هذين الإقليمين على خلاف، ويعيشان حالة انفصال على الدوام.

أسس أحمد بن جحيم الكسادي، سلطان قبيلة يافع التي تقطن المناطق الجبلية الواقعة شمال عدن، مدينة المكلا عام ١٦٢٥م. حكم هذا السلطان المناطق الواقعة بين بروم والمكلا، وكذا بعض المناطق الداخلية، ولكن لم تمتد سلطاته إلى الشحر، التي كانت تئن تحت وطأة غزوات القبائل، حتى استطاع السلطان غالب بن محسن الكثيري ضمها في العام ١٨٦٦م، وطرد منها آخر ممثل للقبائل الحميرية علي بن ناجي الذي توفي عن عمر ناهز المئة والعشرين سنة في لحج. غير أن الأمور في الشحر لم تستتب للكثيريين، الذين كانوا يتمتعون بالقوة في الجنوب العربي، إلا لمدة قصيرة لم تتجاوز الستة الأشهر؛ فقد التحق القعيطيون المنحدرون

من يافع، بقوات السلطان نقيب صالح الكسادي سلطان المكلا، فاحتلوا الشحر في نهاية سنة ١٨٦٧م؛ لتبقى تحت سلطة القعيطي منذ ذلك الوقت.

ومع كل هذا فالتنافس الشديد بين المكلا والشحر انتهى بعداء مرير بين حلفاء الأمس ليغادر بعد ذلك محتل الشحر القعيطي إلى حيدر أباد في الهند؛ إذْ عمل هناك في جيش النظام فيلق العرب برتبة جمعدار، وهي رتبة عسكرية حملها من أتوا من بعده ومن ضمنهم السلطان الحاكم. جمع القعيطي أموالاً طائلة من خدمته في هذا المنصب، وأصبح يُقرض السلطان النقيب الكثير من المال، وعندما عجز الأخير عن سداد ما عليه من أموال اندلعت بينهما حرب برية وبحرية، ورغم كثرة أموال القعيطي فإنَّ قواته لم تستطع أن تحرز أي نصر يذكر في بداية الحرب، ونتيجة لهذه الإخفاقات دخل القعيطي في معاهدة حماية مع البريطانيين لتقوم بريطانيا بعد ذلك بدور الوسيط بينهما. رفض النقيب تلك الوساطة مما جعل بريطانيا تأمر سفينتها الراسية في الميناء بإجباره على الاستسلام ونفيه مع كل حاشيته وكثير من النساء إلى جزيرة زنجبار، ولا تزال توجد إلى يومنا هذا جالية كبيرة من أبناء الجنوب العربي تقيم في زنجبار، ولها علاقات تجارية مع البلد الأم.

ما إن ضم القعيطيون مدينة المكلا فصارت ملكًا لهم، حتى اتجهت أنظارهم سريعًا نحو بروم ليضموها هي أيضًا إلى ملكهم، فبروم مرفأ طبيعي، يوفِّرُ ملجأ آمنًا للسفن الهاربة من الرياح الموسمية الجنوبية الغربية. توجد أماكن صغيرة في الأراضي التي تم ضمها يديرها أفراد من عائلة القعيطي، وكل واحد منهم يحمل لقب جمعدار. أمَّنت الحماية البريطانية للسلطنة القعيطية الحماية الكاملة من أي غزو أجنبي، وكانوا يحصلون على المال مقابل تلك الصفقة. وبالرغم من هذا الاتفاق المبرم بينهم فلا تجد بريطانيًا أو أوربيًا واحدًا في حكومة المكلا الشحر؛ إذ السلطان يحكم بما شاء وبما يراه مناسبًا لبلاده، وهو يغادر البلد لفترات طويلة مما يؤكد أن سلطاته باتت راسخة. ومن الأسباب التي تجعله مطمئنًا على بقاء سلطاته أن السلطات التي تحكم حضرموت الداخل في حاجة إلى استيراد احتياجاتها من الخارج عبر مينائي الشحر والمكلا، ولذا فهم حريصون كل الحرص على المحافظة على علاقاتهم مع السلطان القعيطي.

حاول القليل من الأوربيين الانطلاق من سواحل الجنوب العربي المطلَّة على المحيط الهندي والتغلغل في أعماق حضرموت، وكان البرتغاليون هم أول من وصل إلى سواحل الجنوب العربي في حملاتهم الاستعمارية، واحتلوا السواحل كلها ابتداء من عدن وحتى مسقط، كما احتلوا المهرة، تلك الأرض الغامضة الخفيَّة التي تحد الشحر والمكلا من جهة الشرق، والتي يتكلم أهلها لغة لا يفقهها العرب. لقد بنى البرتغاليون قواعد بحرية على امتداد تلك السواحل، ودخلوا في حرب مع قبيلة حِمْيَرَ، كما قاموا ببناء قلاع عسكرية هناك، لا تزال آثارها باقية إلى الآن، ويطلق عليها العرب اليوم (حصون الفرنجة) أو (حصون الكفار). استطاع البرتغاليون البقاء في الجنوب العربي خمسة وعشرين سنة، لكنهم أُخرِجُوا منها مع بداية القرن السادس عشر، وقد أرسل البرتغاليون أسطولاً عسكريًا مكونًا من عشرين سفينة لاستعادة ما خسروه، غير أنَّ عاصفة قوية أغرقت ذلك الأسطول.

لم يستطع برتغالي واحد الوصول إلى مناطق حضرموت الداخلية فقد أشار مالتزان ١٩٧٣م **Maltzan** في كتابة (رحلة إلى الجزيرة العربية **Reise nacb Suarabien** إلى الصعوبات التي كانت تحول دون نجاح محاولات التغلغل في أعماق حضرموت؛ إذْ أوضح في كتابه ذلك أنه من السهل الوصول إلى مكة عن طريق التنكر والانغماس في أوساط الحجاج القادمين من كل أصقاع العالم إلى مكة كل





عام، لكن من الصعب جداً الدخول إلى حضرموت حيث لا يوجد بها إلا السكان الأصليون، وحيث التعصب الديني على أشُدِّه أكثر مما في مكة.

ليس فقط الأوربيون والمسيحيون وحدهم من يصنف في حضرموت بالأجانب، ولكن حتى المسلمون الذين يأتون من خارج هذا الإقليم هم أجانب وغرباء عند السكان المحليين، ولا يمكن أن تجد حجة تقنع الناس هناك بتبرير وجود هؤلاء في أوساطهم، فهنا سور صيني من الغيرة يطوّق هذا البلد، ويمنع تسلُّل الأجانب إليها.

أما فيما يتعلق بأول من قام بمحاولة جادة للدخول إلى حضرموت وأول من نجح في ذلك، فقد كان الألماني أدولف فون ريدي **Adolph Von Wredye**، الذي دخل حضرموت متخفياً ومدَّعياً نيته زيارة قبر النبي هود. انطلق من المكلا متخفِّيًا مدعيًا بأنه مصري يحمل اسم (عبدالحق)، وقد ساعده العيش في مصر مدة طويلة في إجادة اللهجة المصرية، ولكنه اتهم بأنه جاسوس سياسي لنائب الملك المصري محمد علي. لقد أوصلته رحلاته إلى وادي دوعن، ولكنه فشل في الوصول إلى قبر النبي هود، وانتهت رحلته فجأة بعد أن ألقى سلطان الخريبة القبض عليه وأسره. وبعد أن كُشف أمره في حضرموت طالب السكان المحليُّون بإعدامه، ولولا تدخل وجهاء عرب، لواجه مصيراً سيِّئًا هناك. أُطلِقَ سراحه بعد ذلك، وأعيد إليه متاعُه كُلُّه، وعاد مرة أخرى إلى المكلا. جرت بعد هذه المحاولة بسنوات محاولات عدَّةٌ أخرى لدخول حضرموت، تفاوتت في مدى نجاحها من عدمه، لتبقى محاولة (ريدي) الاستكشافية لحضرموت أهمَّها جميعًا. لم يحالف أحداً من هؤلاء المستكشفين الحظُّ في جلب صور من حضرموت، وما حواه هذا الكتاب من صور هي أولى الصور التي تم التقاطها في حضرموت.

ما هي حضرموت؟

في كل الخرائط والأطالس تسمى المنطقة الممتدة من عدن وحتى عُمان بحضرموت، ولكن هذه التسمية غير دقيقة، فحضرموت الآن أصغر مما يعُتقد. فمن وجهة نظر جغرافية، حضرموت هي تلك المنطقة الصغيرة التي تمتد من الساحل، ثم تليها سلسلة جبال شديدة الانحدار، وتبلغ أعلى قمة فيها ٨٠٠ قدم فوق سطح البحر، وذلك في جبل التسورا **Tsahura** . عند الوصول إلى قمة تلك السلسلة الجبلية تجد نفسك أمام هضبة عظيمة قاحلة، تمتد حتى تلتقي بالصحراء العربية الوسطى، تتخلل هذه الهضبة أودية جافة ذات جوانب شديدة الانحدار، ويصل ارتفاعها مئات الأقدام، وتعود هذه الأودية العظيمة لعصور ما قبل التاريخ حين كانت الجزيرة العربية تجري بها مياه كثيرة.

تتركز كثافة السكان والمدن في هذه الأودية لوجود الماء على مسافات قريبة من سطحها. يسمى أحد هذه الأودية بوادي حضرموت، ويبلغ عرضه ١٠ كم، وطوله بضع مئات من الكيلومترات، وهذه مسافة قصيرة إذا ما قيست بمعايير الجزيرة العربية المترامية الأطراف، فالمسافة بين عدن ومسقط فقط تبلغ ٢٠٠٠ كم. أخذت المنطقة اسمها من هذا الوادي الذي به روافد عدة، وتتعدى حدوده المنطقة المسماة باسمه. الأودية الكبيرة المجاورة لهذا الوادي وسلطنة المكلا لا تدخل ضمن هذه المنطقة. إن كان هناك مملكة كبيرة تسمى مملكة حضرموت، وقد نشأت فعلاً هنا قديماً، فمن الصعب اكتشافها لقلة المعلومات المتوافرة الآن حولها. وفي كل الأحوال فإن اسم حضرموت مشهور وشائع جداً إلا أنني لا أميل إلى اعتبار هذا الاسم يدل على منطقة محددة بعينها، بل هو اسم يرتبط بأناس قدماء، ويرتبط بما أنتجوه من إرث تاريخي، وإرث حرفي رائع، وهم من أطلق اسم حضرموت على أرضهم.

من خلال رحلاتي التي قمت بها في الجنوب العربي




لاحظت أن كل الأشخاص الذين يعدون أنفسهم من حضرموت هم من ذلك الوادي العظيم نفسه، أو من البلدات المجاورة له كمدينة شبام، وتريم، وسيئون، أما أولئك الذين هم من مناطق بعيدة عن ذلك الوادي فيشعرون بإهانة كبيرة إذا أسماهم أحدٌ بالحضارم.

أشار بعض القدماء إلى أن اسم حضرموت يعني أرض الموت، ولكن لا توجد أدلة وثائقية تؤكد الاعتقاد بأن هذه الأرض قد اشتهرت بسوء الحظ أو المحن والأوبئة، كما لا يمكن أن توصف اليوم بأنها أرض غير صحية، بل العكس صحيح فهذه الأرض صحية جداً. من الممكن جداً أن اسم حضرموت قد اشتق من الكلمة العربية (حضر، حضارة) أي بلد المدن والأرض الزراعية، عكس كلمة (البادية) التي تعني مناطق الصحاري والسهول، وهذا التفسير هو الأقرب ويتفق مع الحقائق، فمن غير الصحيح أن تسمى هضبة الجنوب العربي بأرض الموت.

الفصل الثالث: الأرواح الخيرة والأرواح الشريرة:

كان الخادم الشخصي لنا هو (محمد)، أحد العوامل التي سببت لنا المتاعب، وكان لمحمد خادم يدعى (سيد)، وقد كان (سيد) أكثر أذى وإزعاجًا، خاصة بعد أن رافقنا في رحلتنا إلى المناطق الداخلية. (محمد) هجين من أب هندي وأم عربية، وهو يعمل في خدمة السلطان، وقد كان تحت تصرفنا طيلة مكوثنا بالمكلا، وبحكم أنه يعمل في خدمة السلطان نفسه، فقد عدّ قيامه بخدمتنا يحط من كرامته ومنزلته، ولكي يعيد هذا الوغد الماكر الاعتبار لكرامته ومكانته، أخذ يصدر الأوامر للآخرين، بغض النظر عن كل هذا، فقد كان حريصًا على ألا نفشل في استقبالنا للضيوف المميزين، ويطلب أن نقدم لهم بعض الأشياء، وأن يكون له نصيب من هذه الأشياء المهداة، وكان أيضًا يحرص على استقبال الضيوف في مكان معزول في القصر.

محمد مغرمٌ بالسجائر ويشحذها كل يوم وكل ساعة، كما أن فاكهة الأناناس نقطة ضعفه الأخرى، لقد كان يطلب هذه الفاكهة بانتظام من القصر بحجة أننا لا نستطيع العيش بدونها، كما أنه سائق بارع، ويعد اليوم الذي لا يركب سيَّارةً فيه يومًا ضائعًا غير محسوب من عمره. من عادته عند النوم أن يلف نفسه في قماش، وينام على الأرض بالقرب منّا لخوفه الشديد من الفئران، وكان ينام نومًا عميقًا، فكان يتحتم علينا إيقاظه في الصباح. عندما يستيقظ يبدأ في التجهز لقيادة سيارة السلطان، وحين يعود إلينا يكون فرحًا مبتسماً، ويقضي بقية الساعات واصفًا بتباه مدى تأثيره وذكائه وجسارته، ثم لا يلبث أن يلمِّح لنا بأنه سيكون ممتنًا وشاكرًا إن أُهدِيَ قميصًا جديدًا، ساعده الحظ لا بحصوله على الملابس الجديدة بل بمرافقتنا في رحلات وجولات بالسيارة. الجنود أيضًا لم يمانعوا من تغييره مؤقتًا في روتين عملهم، وذلك بمرافقتنا كحراس لنا، ونظرًا لعدم وجود مساحة كافية في السيارة، كان على (محمد) أن يبقى في الخلف.

يطرق هذا البائس محمد برأسه غارقًا في تفكير عميق في إحدى الزوايا، ثم يأخذ يهز رأسه ويتمتم محمد بخير بخير، وفجأة تتغير نبرات صوته ويصرخ قائلاً: الشيطان، لا بد أنه الشيطان هو من ضربني. مدفوعًا باليأس والغضب، يحاول محمد الثأر لنفسه فيبدأ بالبحث عن مقطرة وبخور، ثم يقوم بإشعال البخور لعل دخان البخور يبعد عنه الأرواح الشريرة من الشياطين والجن.

إن أمر الجن ليس مدعاة للسخرية أو للضحك في الأقل في الجنوب العربي؛ إذ تعد الجن مصدر إزعاج دائم لجميع الناس. فأنت لست خارج اهتمامات هذه الأرواح، لذا ينبغي عليك أن تأخذ حذرك منها وباستمرار. فإذا نسي الإنسان أن يغتسل قبل قيامه بعباداته الليلية، فسوف تزوره إحدى هذه الأرواح الشريرة، وسيمرض في اليوم اللاحق، ولهذا فإن الشيء الوحيد الذي ينبغي عليك





القيام به أن تبخر البيت كله بالبخور، ويفضل أن تقوم بعد ذلك بوضع مقطرة البخور خارج باب البيت كل ليلة؛ كي تحرم الشياطين من فرصة دخول البيت.

يقوم (محمد) بكل هذه الأعمال ولذا ينتابه شعور بالخديعة في حال أن إحدى أمنياته لم تتحقق فيلقي باللائمة على الشيطان، ولكنه بكل ثقة يعزِّي نفسه ويعزينا بأنه في النهاية ستظهر الأرواح الطيبة وستخلِّصه من كل المصاعب والمشاكل التي سببها الشيطان لجسده.

تزور الأرواح الطيبة المكلا فعلاً، وهي أرواح كريمة جداً كما توضح قصة متداولة محليًا لشخص يدعى (نجيب)، فبعد أن طُرِد نجيب من الحصن، الواقع في وسط المدينة، ويستخدم الآن مقراً إداريًا يتبع الحكومة، قامت تلك الأرواح الطيبة بإلقاء أكياس ملأى بالطحين والتمر من نوافذ ذلك الحصن. يفسر السكان المحليون هذا الأمر بأنَّه دليل يؤكد وجود الأرواح الطيبة، بل يؤكد قيامها بأعمال الخير أيضًا. بالمكلا فقراء كثيرون وهم يقدِّرون هذا العمل التي تقوم به الأرواح الطيبة.

لقد استمتعنا كثيراً بوقتنا في المكلا بالرغم من تلك الأرواح الشريرة والطيبة. وقد أُعجِبْنَا كثيراً بحياة الصيادين وأعمالهم في الشرج، وهي قرية صغيرة، بيوتها أكواخ من القش، وتقع على مقربة من بوابة سور المدينة. في عهد السلطنة الكسادية كان أفراد من قبيلة العكابرة البدوية يحتلون هذه البوابة، ويفرضون ضرائب باهظة على البضائع الداخلة إلى المدينة والخارجة منها، حتى الأسماك التي يتم اصطيادها محليًا تُفرَض عليها ضرائب، وقد كانت العائدات السنوية من هذه الضرائب كبيرة جداً.

لقد تحملت المكلا كل هذه الظروف الصعبة لسنوات عدَّة حتى تجرأ (عبدالخالق)، أحد مسئولي السلطة القعيطية، على تحدي العكابرة ونجح في هزيمتهم في معركة كلفتهم سبعين أسيراً، أمضوا في سجون المكلا سنوات طويلة.

يزخر المحيط الهندي بمختلف أنواع الأسماك الصغيرة منها والكبيرة، ولبعض هذه الأسماك أشكال غريبة، يصطاد العرب السمك، ويأكلون جميع أنواعه، حتى الراي أو السفن الضخم، كما يأكلون القرش المرعب الذي يكثر في هذه الشواطئ. في الواقع يعد البدو سمك القرش أو اللخم طعامًا شهيًا مترفًا. يؤخذ السمك مباشرة إلى السوق ليباع ويؤكل نيًّا؛ إذْ تجُفَّفُ لحوم القرش تحت أشعة الشمس لتتعفَّن قليلاً، ثم تتصلب حتى تصبح كالحجارة. يشتري البدو الذين يمارسون التجارة بين الساحل والوادي، لحم القرش ذا الرائحة القوية، ويأكلونه مع الأرز، فهي كل ما لديهم من أكل خلال رحلة سفرهم التي تستمر أسابيع عبر قوافل الجمال. حتى البدو غير الرُّحَّل الذين يقطنون مناطق الداخل بصورة دائمة ومستقرة يخزنون هذا الطعام، الذي يعد طعامًا من الدرجة الأولى ويأكلون منه ليلاً ونهاراً. لحم الضأن هو التنوع الوحيد في هذا النظام الغذائي الممل. كان يتحتم عليَّ أنْ أعوِّدَ نفسي على أكل هذا الطعام شِئْتُ أمْ أبَيْتُ خلال رحلتي الى حضرموت، فرفض طعام العربي إهانة له.

يعد لحم سمك القرش (اللخم) غذاءً مترفًا بكل المقاييس إذا ما قورن بالساردين الذي يسمى (عيد)، الذي يتم اصطياده بكميات هائلة، ويجمع في أكوام كبيرة جداً، وتجُفَّفُ تحت أشعة الشمس؛ ليتم استخدامه كسماد في مزارع التبغ.

يتم نشر هذه الأسماك الصغيرة التي تصل إلى الملايين في عددها على السواحل؛ لتترك تحت الشمس يومًا واحداً فقط، وهو كافٍ لجعلها متعفِّنة جزئيًا، ثم تُعرَضُ للبيع، يلتهم البدو وحتى العرب المنتمون للطبقات الاجتماعية العليا هذه الأسماك المتعفِّنة كريهة الرائحة وهي نية، وأسعارها زهيدة، لدرجة أنها تُشترَى وتُستخدم علفًا للجمال التي تأكلها بشراهة وتلذُّذ. يعبأ الساردين (العيد)

في سلال من الحصير أو الخوص، وتُخَاطُ بإحكام ليسهل حملها على ظهور الجمال إلى مناطق الداخل، وإني لا أنصح أحداً بالسفر مع قوافل الجمال تلك التي تحمل هذه البالات أو الرزم من العيد. اللخم المجفف والعيد فهما أهم ما يتم نقله من مناطق الساحل إلى مناطق الوادي أو الداخل وهما البديلان للحوم الجزارين التي تعد الطعام المترف للقلة فقط.

يتم اصطياد السردين (العيد) بوساطة الشباك التي تنشر بين قاربين، أما أسماك القرش والسفن فيتم اصطيادها بالسنَّارة. ما إن يستطيع الطفل القدرة على المشي، حتى يتجه للساحل، ويخوض في المياه الضحلة ليتدرب على صيد السمك بالسنارة، أما الأطفال الأكبر قليلاً فيرمون بسناراتهم إلى أماكن أبعد في البحر، وحين تعلق السنارة بسمكة، يبدأون بسحبها إليهم، ولف خيط السنارة حول رؤوسهم، وهذا العمل يُنجَز بسرعة البرق. عند حصول الجزر يندفع الشباب وكبار السن إلى المياه الضحلة كي يصطادوا حباً في الاصطياد ليس إلا، لا سيما وأن القوارب تعود من البحر محمَّلة بأكثر مما يحتاجه الجميع. ولهذا السبب فإن مهنة صيد السمك تعد مهنة ممتعة لديهم، في أوقات العصر، وبعد انخفاض حرارة الشمس، يخرج العرب إلى المياه الدافئة ويحاولون إغراء السمك بأغانيهم وأهازيجهم مطالبين السمك أن يأكل الطعم العالق في سناراتهم، ونادراً ما يخيب السمك آمالهم.

ولكن البحر هنا يصبح أحيانا خطراً، فمن يغامر من السكان المحليِّين بالدخول إلى عمق البحر للاصطياد أو للسباحة، يكنْ ضحيَّةً لسمك القرش، لذا تجد الكثير من القاطنين في هذه السواحل لهم أذرع أو أرجل مبتورة تشهد على هجمات القرش، فحين تعض هذه الوحوش الخطرة فإنها تهشم العظام بقوة.

الخرافة متجذرة في عقول هؤلاء الصيادين البسطاء البدائيين، فقلَّما تجد كوخاً من دون جماجم جمال أو قوارير تتدلىَّ من سقفه حماية لذلك الكوخ من الأرواح الشرِّيرة، التي تجوب الأزقة بين الأكواخ وتؤذي سيِّئَ الحظ. وإذا كانت الجن تحتفل بصخب، فما على الناس إلا أن تُشْعِلَ البخور، وفي الساعة السادسة صباحاً يتوجب عليهم وضع البخور خارج أبواب الأكواخ وتبخير ما لديهم من الملابس على قلتها بالطبع. كذلك من النادر أن تجد طفلاً بلا تميمة على شكل قلادة أو أصداف بحرية ملونة، أما البالغون منهم فلديهم صناديق فضية صغيرة جداً، وبها اقتباسات من القرآن الكريم، مثبَّتة في قطعة قماش قصيرة، تلبس لتغطي الخصر والفخذين. وفي أيام الولائم الخاصة تكون الشرج كلها في حالة هيجان ونشاط تهيُّؤاً لاحتفالات الرقص. وتبدأ هذه الحفلات الراقصة برقصة الفتش أو البد(١) حيث يرقص الرجال والنساء معاً، ويستمر الرقص إلى أن يسقط بعض الراقصين مغشياً عليهم من الإنهاك.

تعد المملكة الحيوانية في هذه الشواطئ من المحيط الهندي بحد ذاتها موضوع دراسة ممتع ومثير للاهتمام، فهناك مثلاً سرطانات البحر الصغيرة والكبيرة، وإذا مشيت على الرمال حيث تتكسر الأمواج شاهدْتَ أعداداً لا تعد ولا تحصى من الأكوام الرملية الصغيرة ذات الفتحات، هذه هي أبراج المراقبة لبيوت السرطانات البحرية، ومن أعالي هذه الأبراج الرملية التي تُبنى من الرمل المحفور ترصد السرطانات فرائسها، وتستطلع الأخطار التي تقترب منها، فإذا اقتربت من مساكنها، فإنها تتظاهر بالاختباء خلف هذه الأكوام الرملية؛ لتختفي بعد ذلك بسرعة في جحورها الواقعة خلف تلك الأبراج مباشرة. ممتع جداً مشاهدتها من السيارة عند الجزر حين يصبح الساحل كله يعجُّ بأعداد ضخمة من هذه السرطانات، وعند الاقتراب منها تهرب باتجاه البحر باحثة عن النجاة في مياهه.



توجد أنواع مختلفة من الطيور البحرية، فمثلاً البجع تراه سابحًا فوق الأمواج الصغيرة للبحيرات الضحلة خلف تلال الرمال، وترى طيور النحام أو البتروس ذات الأعناق الوردية الطويلة والأرجل الطويلة مجتمعة في أسراب كبيرة، وفي المساء حين تتوقف الشمس الاستوائية عن إرسال أشعتها الحارقة نحو الأرض، تحتشد أعداد لا تعد ولا تحصى من الطيور البحرية على امتداد الساحل باحثة عن فرائسها التي يقذف بها الموج إلى الشاطئ. ليس للطيور هنا أعداء، فالإنسان العدو الأول للطيور، لا يؤذيها أبدًا؛ إذْ تُشَاهَدُ طيورُ النورس وبعض الطيور المائية الصغيرة الأخرى وهي تحلّق فوق رؤوس الصيادين وهم ينشرون شباكهم، بل تحطُّ بكل ثقة واطمئنان على جوانب قواربهم، وتملئ بطونها مما تستطيع الوصول إليه من هذه القوارب.

أما مراكبهم التجارية فهي عجيبة وضخمة لها مقدِّمات ومؤخِّرات مزخرفة، وتتم صناعتها بالنمط والأسلوب نفسه التي كانت تُصنع به من مئات السنين، إنها تشبه سفن القراصنة الإسكندنافيين القديمة، وفي كثير من الحالات يتم ربط ألواح ظهر المركب بالبناء الأساسي للمركب بطريقة بدائية جداً مستخدمين خوص النخيل، تقطع هذه المراكب أحادية الشراع مسافات طويلة جداً من البصرة وعمان عبر الخليج العربي إلى الهند، وموانئ الجنوب العربي، وسواحل شرق إفريقيا، وهي محملة بالتمور، وفي بعض الأوقات لا تحمل تموراً وإنما حمولات أخرى مهرَّبة، أي إنها تقوم بتهريب البشر (العبيد)، كما أسلفت في وصفي لمدينة المكلا.

للبحارة العمانيِّين، والذين ينتمون لقبيلة زنجية مهاجرة، مهنة أخرى، فبالإضافة إلى كونهم تجّارًا فهم أيضًا ممثِّلون وراقصون وموسيقيون، فعند وصولهم إلى الموانئ ينصبون مسرحًا ويقومون بالتمثيل الإيمائي، وهذا العمل يدرُّ عليهم أموالاً لا بأس بها، تضاف إلى ما يحصلون عليه من ممارسة التجارة، وعروضهم هذه لا تخلو من السحر.

نحن الآن على وشك الإبحار في رحلة بحرية، لكن ليس على متن مركب عربي، وإنما في يخت خاص تعود ملكيته لأسرة الكاف، وقد شعر خادمنا محمد بالإثارة والحماس عندما علم بأن السلطان قد سمح له بمرافقتنا، لقد كانت وجهة رحلتنا هذه إلى الشحر.

مع بزوغ أول أشعة الشمس الجميلة، بدأت المكلا، تلك المدينة البيضاء المستلقية تحت الجروف الصخرية السوداء لجبل القارة، تتوارى شيئًا فشيئًا عن أنظارنا في حين بدأت تتكشف لنا سلسلة صخرية وعرة من جبال، تتعدَّد ألوانها بين (الأحمر، والأسود، والأخضر، والوردي)، مثيرة في أنفسنا شعوراً بالدهشة والذهول. ثم تختفي تمامًا تلك الجبال من المشهد ليحل مكانها سهل واسع. وفي مكان ما من هذا الساحل يقع ميناء بحري بالكاد يرى من البحر إنه ميناء الشحر. الشحر مدينة كئيبة غريبة، يحيط بها جدار طيني عالٍ من جميع الجهات عدا الجهة البحرية، ويشتهر هذا السور بما فيه من أبراج المراقبة (كوت) المربَّعة الشكل التي تتباعد عن بعضها البعض بمسافات منتظمة، وفي قلب المدينة وخلف تلٍّ رملي كبير ينتصب القصر العتيق لجمعدار أو سلطان الشحر (كما يطلق على نفسه).

لقد كان البحر حينها مضطربًا وهائجًا جداً مما جعلنا نواجه صعوبة في الانتقال من اليخت إلى (السنابيق) الصغيرة، ومنها إلى الساحل، وبعد عناء وطئت أقدامنا اليابسة لنجد أنفسنا وسط أكوام من الأكياس والزبالات القذرة، وقد تبلّلتْ ملابسي وجسدي بمياه البحر المالحة، ولكن هذه هي متعة السفر.



التماثل والتقابل بين المحضار وشعراء من عصره



أ.د. عبدالله حسين البار

(١)

ظاهرةٌ شعريّةٌ عرفتها الشعريّة العربيّة منذ تاريخها القديم حتّى عصرها الحديث هي ظاهرة (المعارضة).

والمقصودُ بها كما دلّت النُّصوصُ، ووَصَفَ الدارسون بناءُ نصٍّ جديد لاحقٍ من نصٍّ قديمٍ سابقٍ في الوجود.

وهذه عمليّةٌ في صياغة القصيدة تتضمّن (تماثلاً) بين النصين يأتيهما من جهة (الوزن) بحراً وقافيةً، ومن جهة بعض الصيغ اللُّغوية التي اتسقت في النصّ السّابق فاحتذاها النصُّ اللاحق.

ولكنّها تتضمّن (تقابلاً) بين النصين كذلك، يأتيهما من جهة الدلالة والتجربة والموضوع الشعريّ. ومن هذا التقابل يتراءى النصّ اللاحق صوتًا متميّزًا بسماته البنيويّة والأسلوبيّة ومكوّناته الدلالية، وإن بدا صدًى للنص السابق من جهة بنائه (الوزنيّ) بحراً وقافيةً.

وللمعارضة بصفتها تلك شروطٌ، أهمُّها كما ذكر المنشغلون بدراستها التطابق في التركيب الإيقاعيّ للنصّين. ولقد يشترط بعضُهم (الموضوع والتجربة) لتكون للمعارضة دلالتها.

ولهم في (المعارضة) أقاويلُ غير هذه، لا أظنُّ القارئ في هذا المقام محتاجًا للوقوف عليها، فلنمضِ عنها لنقف على مسألةٍ نقديّةٍ تتعلّق بهذا المقام، وأعني السمة الفارقة بين (المعارضة) و(الموازنة). فهما مختلفتان سمةً، متلازمتان فعلاً.

المعارضة صنيعٌ شعريٌّ، والموازنة فعلٌ نقديٌّ.

المعارضة بناءُ نصٍّ لاحقٍ على غرار نصٍّ سابقٍ، وقد يلتقيان في التجربة والموقف الفكريّ والشعوريّ وقد لا يلتقيان.

والموازنة (تقويمٌ وتقييمٌ) نقديٌّ لنصوصٍ متقاربةٍ في الأداء والنسيج، وقد تكون متباعدةً في فكرةٍ أو معنًى، ومتفقةً في الأداء والنسيج. وقد تتوافق نصوصٌ في الأداء والنسيج والفكرة والمعنى كما في هذه الأبيات الثلاثة لثلاثة من شعراء العربيّة في عصورٍ مختلفةٍ لم يُظلَّهم زمنٌ واحدٌ.

أوّلها للشريف الرضيّ، وهو قوله:

أقول للائمِ الـمُهدِي ملامتَهُ

ذُقِ الهوى، ولو اسطعتَ الملامَ لُمِ

وثانيها للبوصيريّ، وهو قوله:

يا لائمي في الهوى العذريّ معذرةً

منّي إليك، ولو أنصفتَ لم تَلُمِ

وثالثها لأمير الشعراء أحمد شوقي، وهو قوله:

يا لائمي في هواه والهوى قدرٌ

لو شفّك الوجد لم تعذلْ ولم تَلُمِ.

لا مراء في أن الأبيات الثلاثة منبثقٌ بعضُها من بعضٍ، وناظرٌ بعضُها في دلالة بعضٍ، وفي هذا يكمن معنى (المعارضة).





أمّا النظر فيها تقويماً وتقييماً فتنهض به عملية (الموازنة) بينها، ولها طرائق في التحليل والتأويل والتعليل.

وهنا تكون المقدِّمات قاربت بيننا وبين الغاية التي من أجلها أنشئت هذه المقالة، وهي النظر في نصوص شعريّة مُغنَّاة عارض فيها شعراؤها نصوصًا شعريّةً مغنّاةً صاغها الشّاعر الكبير حسين بن أبي بكر المحضار. وإنّ منهم من احتذاه في بناء النصّ ونسيجه وتجربته وموقفه الشعوريّ وإن خالفه في مظانَّ من كلّ ذلك. وإنّ منهم من وافقه في التجربة والموقف الشعوريّ وانماز منه في النسيج والأداء الشعريّ.

ولئلاَّ يَتيهَ التحليل في مزدحم النصوص، وتتكاثر جزئيّاتُه، وتتعدّد أبعادُه اكتفينا باختيار نصَّينْ من أغنيات المحضار عارضهما شاعران ممن عاصروه، وهما الشاعر حسين بن محمد البار، وثانيهما الشاعر عليّ عبدالرحمن جحّاف. وأما البار فاخترنا له معارضته أغنية المحضار (قمري البان أنسي معك طاب). وأمّا جحّاف فعارض أغنية المحضار (قلبي من الفرقة كما الريشة). وفي كلِّ هذه النصوص تماثلاتٌ وفيها تقابلاتٌ على مستوى (الفكرة والتجربة) وعلى مستوى (النسيج والأداء).

(٢)

لم تكن السّاحةُ الفنيّةُ في حضرموت صحراءَ بلقعًا لا تَزينُها خضرةٌ معشبةٌ من الفنِّ والإبداع يومَ دلف أرجاءها الشاعرُ الغنائيُّ حسين بن أبي بكر المحضار، ولكنّها كانت مزدانةً بأسماءِ أعلامٍ من الشعراء والمغنّين والملحنين ومن دار في فلكهم وارتبطت سيرتُه بسيرَتِهمْ. غير أنّ وفادته عليهم كانت لافتةً، واقتحامه ربوعَهم كان مفاجأةً سارةً لهم، فأكرموا وفادته وقدومه عليهم، وتقبّلوا إبداعه بقبولٍ حسنٍ، وتنوّع تلقيهم ذلك الإبداعَ على صورٍ شتّى، وطرائقَ مختلفةٍ من التلقي.

وكان الشاعر حسين بن محمد البار واحدًا من هؤلاء الذين انبهروا بشعر المحضار وألحانه على حداثته بعوالم



الشاعر حسين المحضار

الإبداع الفني، وسذاجة دربته في ممارسة الخلق الفني شعرًا ولحنًا. ولعلّ حماسة الشاعر البار في ذلك العهد لألحان المحضار تفوق شغفَه بأشعاره وكلمات أغنياته. أتراه لهذا كان يعارض الألحان – وهي أوزان الشاعر العامي – فينظم عليها أشعارًا مختلفة التجارب والمواقف؟ قد يكون جواب هذا السؤال، الموافقة على محتواه ومضمونه، وقد تكون إجابته المخالفة لمحتواه ومضمونه، لا فرق ما دامت المسألة قائمة على الحكم الذاتي لا الحكم الموضوعيّ المستند إلى الوثائق المؤكدة للوقائع والمدعّمة للبراهين.

لكنّ ما نعلمه من صياغة الشاعر البار نصوصًا شعريّةً على ألحانٍ صاغها المحضار يلج بالمرء إلى مضايقِ قبولِ مثلِ هذا الافتراض. ولقد عارض البار ألحان أغنيات للمحضار وصاغ عليها شعرًا لم يجد سبيله إلى الغناء، كما في أبياتٍ كتبها في وداع صديقه السيد علوي بن محمد الصافي يوم قرَّر الهجرة من المكلا إلى سواها من بقاع الجزيرة، فصاغ على لحن أغنية المحضار (عنب في غصونه) عددًا من الأبيات، استهلّها بالابتهال إلى الله لتيسير سبيل صديقه في رحلته هذه، فقال:



ربّ سهّل طريق المسافر بالنبيّ المهاجر
واعطه القصد كله ومضمونه

وفيها يبثُّ بعضَ وجده بسبب هذه (الفرقة) وحزنه من هذا الشتات، فقال:

يا نشوّق لكم في المكلا لا جعل بيت يخلى
كل صاحب صحابه يذكرونه

....إلى آخر ما هنالك من ذلك.

وهو قد عارض أغنيات أُخَرَ للمحضار، وصاغ أبياته على ألحانها فوجدت سبيلها إلى أفئدة متذوّقي شعر الغناء الحضرميّ حين صدح بها الفنان محمد جمعة خان، وتداولتْها من بعده أفواه المغنين. ومن ذلك معارضته لأغنية (يا زهرةً في الربيع)، وهي من الذيوع حتى كاد الناس ينسون كلمات المحضار المصوغة في لحنها مكتفين بما صاغه البار في لحنها من كلمات.

ومن ذلك صوغُه أبياتًا بلغت تسعةً في عددها على لحن أغنية المحضار (قمري البان أنسي طاب). ولكنها لم تنل حظًّا موفورًا من الذّيوعِ والانتشار على الرغم من صُداح الفنان محمد جمعة بها، على غرار كلمات الأغنية الأولى (يا زهرةً في الربيع).

ولي في تعليل هذا الحال وتأويله قولٌ أودُّ عرضه على القرّاء.

إن سبب ذيوع كلمات البار في لحن (يا زهرة في الربيع) أنّ كلمات المحضار لم يتغنَّ بها فنّانٌ كبيرٌ مثل أبي بكر بلفقيه، وإنّما انحصرت في أداء بعض المغنيين في مدينة الشحر. في حين وجدت كلمات البار حظّها من الذيوع بصوت الفنان محمد جمعة، فلاقتْ صدًى طيّبًا في أفئدة من سمعوها لحنًا وكلمات. أما أغنية (قمري البان، أنسي معك طاب) فقد ذاع صيتها بصوت الفنان أبي بكر بلفقيه، وراجت كلمات ولحنًا على نحوٍ يفوق ما لاقته كلمات الشاعر البار على ذلك اللحن، وانحصر أداؤها على صوت الفنان محمد جمعة وفي حياءٍ شديدٍ حتى كاد يجهلها متذوقو الغناء



الشاعر حسين بن محمد البار

الحضرمي عامةً وغناء محمد جمعة خاصةً. ولعلّه بسبب من هذا وجدنا في أنفسنا حافزًا للموازنة بين النصَّينْ في هذا المقام لينماز نصٌّ من نصٍّ، وتستبين ظواهر الشعرية في كلّ نصّ منهما.

(٣)

يَتَبَيَّنُ القارئُ حين يتأمَّل في كلمات أغنيتي (البار) و(المحضار) على لحن (قمري البان أنسي معك طاب) أنّ بينهما شيئًا من التماثل والاتفاق وأشياءَ من التقابل والافتراق.

لقد اتفقتا على مستوى (الوزن) بحرًا وحرفَ رويٍّ وتشكيلاً عَرُوضيًّا. فقد بنيتا بناء (المُسَمّطة). وهي بناءٌ شعريٌّ يتكوّن من أربعة أشطار، ثلاثة منها متساويةٌ وزنًا ومتفقةٌ في حرف الرويّ. يتلوها شطرٌ رابعٌ مختلفٌ عن الأشطار الثلاثة الأولى في الوزن وحرف الرويّ. و(القافية) بكلّ مكوّناتها تتجدّد في الأشطار الثلاثة الأولى، لكنها تلتزم بصيغة ثابتة متكررة في الشطر الرابع من بيت المسمطة.

فعند المحضار تفتتح الأغنية بهذا البيت:

ترى ما كان بينك وبيني تفرّق بين نومي وعيني
رحم حال الشريف الحسيني لي فيك حاب





فالأشطار الثلاثة الأولى جاءت على وزن (مفاعيلن فعولن فعولن). وهو تشكيلٌ عَزّ استخدامه في شعر الفصحى وإن جرى سَلِسًا عند شعراء الغناء في العامية. وانتظمت قوافي الأشطار الثلاثة في قافية (المتواتر)، ورويها (النون)، وأما (الياء) بعده فوصل.

لكنّ الشطر الرابع منها جاء في تفعيلة مستقلّة، وهي (مستفعلان). وهو وزنٌ خاصٌّ به يتلاءم مع الجملة اللحنية الموضوعة له. وتخيرّ الشاعر (الباء) حرفَ رويٍّ في قافية المترادف، لأن التسكين وتقييد (الرويّ) من سمات بناء القافية في شعر العامية بإطلاق. على هذا المنوال احتذى البار صنيع المحضار ولم يخرج عن نسيجه، فافتتح أغنيته بهذا البيت:

تعامل مهجتي بالقساوة وانا مَقْدَرْ لهذي العداوة
رحم ياذي أنت كلّك حلاوة القلب ذاب

ووَصْفُ بنائها الوزنيّ، وحركة قوافيها وحرف رويها لا يختلف عما وصفناه في بيت المحضار السالف تمامًا بتمام، فهما متماثلان من جهة الوزن وبنائه العروضيّ حَذْوَكَ النعلَ بالنعلِ كما قال ابن أبي ربيعة من قبل. لكنهما تخالفا من جهة حرف الروي في الأشطار الثلاثة الأولى، فهو النون عند المحضار، وهو الواو عند البار.

وكذلك اتفقت الأغنيتان على مستوى (الشلّة). وهي هنا (تخميسةٌ)، لأنّ بنية البيت قامت على نظام (المسمطة)، وقوامها أربعةُ أشطارٍ كما علمتَ. ومن هنا غدت (الشلّة) (تخميسةً). ومن الثابت المقطوع به أنْ ليست كلُّ شلّةٍ تخميسةً. ولكنّ كلَّ تخميسة شلّةٌ. وهذه مسألةٌ في بلاغة الأداء الشعريّ في عاميَّتنا سبق لنا أن عرضناها وأبنّا عنها في دراسة احتواها كتابنا عن (المحضار) النشيد والفن، فانظرها في موضعها.

و(المحضار) كونه مبتدع النص الأول وسابقًا إليه، هو صاحب الشلَّة هنا، وما البار ألا تابعٌ له مشايعٌ لصنيعه.

عارض البار أغنياتِ للمحضار، وصاغ أبياته على ألحانها فوجدت سبيلها إلى أفئدة متذوِّقي شعر الغناء الحضرميّ حين صدح بها الفنان محمد جمعة خان، وتداولتها من بعده أفواه المغنين. ومن ذلك معارضته لأغنية (يا زهرةً في الربيع)، وهي من الذيوع حتى كاد الناس ينسون كلمات المحضار المصوغة في لحنها مكتفين بما صاغه البار في لحنها من كلماتٍ

وقد سهل على البار أن يستخدم الشلة نفسها التي استخدمها المحضار بسبب كون ناتجها الدلاليّ عامًّا يفتقد إلى خصوصية التجربة؛ فهي تتكوّن من منادى (قمري البان)، وجملة خبريّة تتضمّن اعترافًا بطيب الحال بمعية المحبوب (أنسي معك طاب). وهذا من القول العام الذي يستشعره كلّ أحدٍ أنسَ بمن يحبّ وإن افترقا من بَعْدُ على شقاق ونفور.

وهذا الاستخدام العام في دلالة الشلّة كان دَيْدَنَ المحضار في أغنياته الأولى، فنجد من ذلك (عنب في غصونه)، (غصن العنب ريان)، (يا غصن راوي في البستان)، (طاب الجنى)، (يا زهرة في الربيع)، (غصن السفرجل ناد) ...إلى آخره.

وهذا استخدامٌ للشلَّة سيخرج عليه المحضار حين تنضج تجربته، وتتسع دربته، فتعدّ الشلّة ذات وظيفة دلاليّة في أغنياته حتى تكاد تُلَخّصُ التجربة الشعرية كلّها في تلك الشلة. وهو ما أوضحناه وحلّلنا نماذجه في دراستنا المذكورة سلفًا، وأفضْنا القول فيه.

(٤)

ومثلما اتفق النصّان على ذلك النحو اختلفا على عددٍ من المستويات أولها مستوى (المطلع).

افتتح المحضار أغنيته ببنية الاستفهام الاستنكاريّ (ترى ما كان بينك وبيني؟)، وهو - مع ما يتلوه من جملة خبريّة تحمل مضمون الاستفهام (تفرق بين نومي وعيني) - يقرّ بتجنّي المعشوق على عاشقه. على أن التفريق بين (النوم) و(العين) لا يكون ناتجًا عن جبروت المعشوق ولا قسوته أو غلظة قلبه. فلقد ينشأ لشدّة الشغف وانشداه العاشق بجمال المعشوق، وذبذبات عشقه، وولعه بملامح جماله وسمات حسنه، وانشغاله بالعشق الذي ورّث نارَه ذلك الجمالُ وتلك الملاحة. ومن هنا خفتت روعة بنية الاستعطاف في قول المحضار (رحم حال الشريف الحسيني.. ذي فيك حاب) لعدم الاتساق الدلاليّ بين البنى اللغوية في مطلع الأغنية.

في مقابل ذلك افتتح البار أغنيته ببنية التضاد بين التجبرّ في حال المعشوق (تعامل مهجتي بالقساوة) والضعف في حال العاشق (ونا مَقْدَرْ لهذي العداوة)، فجاءت بنية الاستعطاف متَّسقةً مع الناتج الدلاليّ لبنية التضاد (رَحَمْ يا ذي انت كلّك حلاوة.. القلب ذاب).

وثاني مستويات الاختلاف بين النصين الاختلاف على مستوى (التجربة) والموقف الشعوري.

حصر المحضار أبيات أغنيته في بنية الشكوى من الجحود (**نسيت المعرفة والصداقة.. ومن خلك قطعت العلاقة**)، والشكوى من الانقطاع وعدم التواصل والاتصال (**وما خليت للود طاقة.. ولا عاد باب**)، والشكوى من التنكّر وعدم الاعتراف بالذكرى الجميلة (**كأني ما عرفتك بسيلة.. ولم نسمر بسمعون ليلة**)، والشكوى من استسلام المعشوق للعواذل، وهم خصومٌ لا تُؤْمَنُ مكائدهم (**وكم تسمع كلام العواذل.. أهل السباب**). ثم يختم ذلك بالشكوى من طول البعاد، وأثر الهجر في نفس العاشق حتى شاب رأسه ولـمّا يزل في سنيّ شبابه، أو كما قال.

أما البار فقد جمع حاضرًا إلى ماضٍ، وألّف بين حدث ماتعٍ وحدث موحشٍ، فوصف ما ظفر به مع محبوبه من متع حسية وأطايب معنوية (**ويا ما كان بيني وبينك**)، وفي (ما) هذه من الإيجاز والتكثيف في المعنى أشياء لا تكاد تحصر من الأفعال والأقوال والحركات والخطرات وما إلى ذلك. وفي هذا تعظيمٌ للفجيعة بفقد ذلك كله، فتجيء بنية الاستفهام الاستبعادي (**ووينك منِّيَ اليوم وينك**) لتؤكد تلك الفجيعة. وللتكرار وظيفته البلاغية في هذا السياق. وهنا يجتمع حاضرٌ مريرةٌ أيامُه بماضٍ هنيئات ساعاتُه، وقد استطاب الشاعر ذلك المعنى فكرّره على نحوٍ آخر في قوله:

تناجى وقت قلبي وقلبك وحبيتك وما زلت حبك
وذنبي في الهوى كان ذنبك ذنب الشباب

وفي البيت نفحةٌ من الاتحاد بين الذاتين يجعلهما مشتركين في فعلٍ واحد. ولقد استكمل البار حديثه ذلك بالدعاء لذلك العهد الذي ائتلف فيه قلباهما وإن حال حالُهما من بعد إلى افتراق:

رعى الله وقت عدّى علينا من اثْمار المحبة جنينا
شربنا، كننا ما ارتوينا أحلى شراب

ومتى ارتوى عاشقٌ من معشوقه - أيهّا الشاعرُ الكبيرُ - ولو عاش معه العمر كلّه في سعادةٍ وهناء؟!

ولاجتماع سرور الماضي بشقاء الحاضر جاءت بنية الاستعطاف في البيت التالي منسجمةً متّسقةً:

تجمّلْ عود أيام مرّت على شاطي الوداد استقرّت
وحليت جم بعدين قرّت أمست عذاب

وهذه تجربة في العشق تجعل أغنية البار صوتًا مستقلاً لا صدًى لأغنية المحضار وإن نسج على منوالها بحرًا وقافيةً وشلّةً، - (أو قل تخميسةً) - ما نسج من أبياتٍ متعددةِ الأشطار.





وهكذا هم الشعراء دائماً، يولِّدون نصاً من ثنايا نصوص، ويشكلون جديداً من أنقاضِ قديمٍ وبقاياه، فيأتلق إبداعهم، وتورق شجرة خلقهم الفنيّ بثمارٍ يانعة مشتهاة.

وثالث مستويات الاختلاف بين النصين الاختلافُ على مستوى الجزئيات في دواخل الأبيات.

ففي حين جرت أبيات المحضار منسابةً مع خواطره الشعرية ومعانيه المستلهمة من خياله المحدود وقتذاك، فقد كان في مقتبل عمره، وبَدْءِ تجربته في صناعة الشعر، وهو على النقيض من حال كان عليه الشاعر البار، فقد انضجته تجاربه في صياغة الشعر وممارسة نظمه فصيحًا وعاميًّا، وأمكنته تلك الدربة من إخصاب نصِّه بصورٍ من جمال اللغة وشعرية البيان.

فالمحضار قد اتكأ على فكرة (الركب) القادم من جهة المحبوب فمضى يتلمّس أخباره ويتنسّم روائحه فعاد برجاءٍ خائبٍ وأملٍ مكسور. ولم يتجاوز (الكناية) في قوله: (**ولا خليت للود طاقة... ولا عاد باب**، وإن أجاد في توظيف بنية (المقابلة) في قوله: (**تقاطعني ونا لك مواصل... وتظلمني ونا فيك عادل**)، لكنّه شايع شعراء العاميّة الحضرميّة في استخدام المقابلة بين الشيخوخة والشبيبة في قوله: (**وشيّبي ونا في سنيني ما زلت شاب**).

أما البار فقد جلّى في شعريّة بيانه، فجاءت الاستعارة في قِرانٍ لُغَويٍّ بين حسيٍّ ومعنويٍّ في قوله: (**على شاطئ الوداد استقرت**) و(**حليت جم بعدين قرت**) والحديث عن الأيام، ناهيك بالوصل الطبيب في قوله: (**ولا شيء غير وصلك طبيبي... هذا الصواب**)، والدمع الشفيع في قوله: (**وغير الدمع ماشي شفاعة... ولا العتاب**). ولديه من المعاني الجزئية ما نظر فيها على أشباهها عند شعراء العربية كما في قوله: (**منعت العين من شوف زينك**)، ففيه نظرٌ - وإن بالتضاد - إلى قول أبي نواس: (**يَزِيدُكَ وجهُهُ حسنًا إذا ما زِدْتَهُ نَظَرًا**). فحرمان العاشق من النظر إلى جمال وجه المعشوق يحرمه من رؤية تجدّد الحسن فيه مثلما يزداد الوجه حسنًا إذا ازداد النظر فيه.

وفي قوله: (**وذنبي في الهوى كان ذنبك... ذنب الشباب**) فيه نظرٌ لقول أبي الطيب:

ممّا أضرّ بأهلِ العشقِ أنّهمُ   هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا

فلو امتلك العاشقان حكمة الشيوخ ما أضرّ بهم العشقُ، ولا ظهرت لهم فيه ذنوبٌ. لكنّهما كانا غرّيْنِ لا يفقهان للعشق حدًّا ولا للحبِّ شرطًا، فوقعا في المحذور.

وهذا من غرائب المعاني التي يوحي بها وهج الحبِّ في وجدان الشاعر من قديم الزمان.

(٥)

لا شكَّ ولا خلافَ ولا اضطرابَ في يقينِ الحداثيّين من أهل النقد أن النّصَّ الأدبي شعرًا كان أم نثرًا بينةٌ لُغَوِيَّةٌ تحتكم - في التزام الأصول أو العدول عنها - على نظم قوانين اللغة التي يشكّل منها المُبْدِعُ نصَّه وفق سننها المرصودة.

ومن صور ذلك اليقين الذي لا اضطراب فيه أن النص الأدبي لا يبزغ في فراغ، ولا ينشأ من عدمٍ، على الرغم من قول بعض الأوائل من كُتّاب العربية عن نفسه إنه لا يتكل في مكاتباته إلا على ما يجتلبه خاطره ويجيش به صدره. ومع ذلك الاعتراف رصد له الراصدون صوراً من القول بناها على أقاويل من سبقوه، نثر فيها منظومًا ونظم منثوراً. وهكذا هو الحال في كل بنية لغوية أدبية، ينبثق نصٌّ من نصٍّ، ويتخلّق عملٌ لاحقٌ من نطفة أمشاجٍ لعملٍ سابقٍ. يستوي في ذلك أن يكون العملُ منظومًا في نسقِ العربية الفصحى أو في نسق اللغة العامية المحكيَّة.

ولقد يكون هذا التفاعل بين النصوص قائماً على تكوينات جزئية ذريّة فيضمُّها مصطلح (التناص). ولقد يقوم على تكويناتٍ نصية شاملة رؤًى أكبرَ، يشملها مصطلح (الأطراس) كما علَّم (جينيت) في حديثه عن المتعاليات النصية.

ولن تنأى النصوص التي تؤكّد صحة مثل تلك المقولات عن ذهن القارئ، فهي مبذولةٌ، وميسرٌ الوصول إليها دون عناءٍ. وفي شعر المحضار نفسه صورٌ عدَّةٌ منها. ومن تلك

التكوينات الجزئية قوله:

(عكها يا معكي بيتها يامبتي

وقتك اليوم مانا قد تخطيت وقتي)

ففي البيت الثاني هنا نظر إلى قول الشاعر العربي القديم:

(يا أيُّها الرجلُ المُرْخِي عمامَتَهُ

هذا زمانُكَ إنِّي قد مضى زمني)

وفي قوله في أغنية ثانية:

(إن قلت له صَلْ شرق لك صلىّ)

مَتحٌ من قول حداد بن حسن:

وإن قال صلّوا شرق صلينا عمد

وإن في قول حداد زيادةً ليست في قول المحضار تتمثل في القصدية (عَمَدْ). وإن كان في قول المحضار تخصيصٌ يسمو بالمحبوب إلى حدِّ الألوهية (لك صلىّ)، وإنما تكون الصلاةُ لإله.

وقال في ثالثة:

طاير بلا ريش بلا ريش صانع من الشوق ريشي

فتراءى في داخله قول حسين البار:

مسكين مسكين بو حضرم تغرب وساح طاير ولا له جناح

على أن صنعَ الريشِ من الشوق إيغالٌ في شعرية الكلام يعوضها في بيت البار التكرار في اللغة الوجدانية.

والتناص يقوم على الاستدعاء من الثقافة كائنةً ما كانت صفتُها. ففي شعر المحضار من ذلك صورٌ عدّةٌ. منها قوله:

وثيروها على الجبح حمرا مثل ما ثارت الغبرا وداحس

با تسلّب سلوبة بن غرامة

طردت عيال العم، وطردت يو دجانة هو وبن قملة

كم شاب في الليل يسري شل حصته من شهامة عمار بن ياسر

... إلى آخر ما هنالك من ذلك. وكلُّها صورٌ تستدعي التاريخ في بعض وقائعه وأعلامه. ولكم وددت أن يتنبه بعض دارسي التاريخ فيكشف عن هذا البعد في شعر المحضار فيجلوه لنا واقعًا ورمزًا لينظر كيف وظّف شاعرٌ كالمحضار ذلك الموروث الثقافي في شعره، فأخصب به رؤيته وزان شعريته. ولكن من لك بذلك المشتهى المنشود؟

وغير صور التاريخ في شعره صورٌ أخرى انبثقت من مناحٍ ثقافيّة ومعرفيّة متعددة لا يكاد يتسع لها المقام. فلنعدَّ عن ذا وننظر في بعض الصور الكلية المستدعاة في شعر المحضار وتندرج في باب (الأطراس).

(٦)

و(الأطراس) بُعْدٌ في مقولة التناص عند (جينيت). وهي تقوم على جدلية الخفاء والتجلي، وتظهر في تكوينات النص الكبرى والشاملة، حيث يُكْتَبُ نَصٌّ على لوحٍ ثم تُمْحَى الكتابة عنه لكنَّ آثارًا منها بَقِيَتْ على اللوح المكتوب عليه سلفًا فيُكْتَبُ عليه نَصٌّ جديدٌ لاحقٌ لما سبق، فيتضمّن منه بعض ملامحه وإن لم يكن هو إياه. ولعلّ أبرز شاهدٍ يردّده القائلون بهذه المقولة هو مسرحية برنارد شو (بجماليون) التي استلهمها من أسطورة إغريقية تدلّ على قوة الخلق الخارق عند ذلك المثّال، حين صنع تمثالاً آيةً في الحسن المُبْدَعِ، وتحدّى به الآلهة، لكنه انهار متحسرًا عليه حين أحالته الآلهة إلى بشرٍ، يمارس ما يمارسه سائر البشر من أعمالٍ لا سموّ فيها ولا كبرياء، فسقط مثالُه الجماليُّ السامي، ولمْ يجد فيه - وهو بشريٌّ - ما كان يجدَ فيه وهو تمثالٌ تامُّ الخلق بديع الانسجام. فطالب الآلهة بإعادة تمثاله كما كان من قبل، ولكن هيهات. فكَسرَ التمثالَ وتحطّمت آماله في قدرته على الخلق والإبداع.

من هذه الأسطورة أنشأ (شو) مسرحيته عن عالمٍ لُغَةٍ قصد إلى الرقيّ بفتاة سوقيّة مبتذلة من عالمها المرذول إلى سيدة مجتمعٍ راقٍ. ولقد نجح في خطوات عمليته تلك. لكنه أخفق في نسيان العنصر البشريّ بمشاعره وأحاسيسه عند الفتاة؛ إذ أحبت ذلك العالم ولم يكن هذا بالمخطّط له وموضوعًا في حسبانه، فكادت العملية برُمَّتها تتلاشى وتنهار لولا بعض الرؤى المسرحية التي هيأها (شو) لمسرحيته كي تنجح.





(بجماليون) الأسطورة وَهَجٌ يتألق في مسرحيّة (شو)، وكِتابَةٌ سبقت على لوحٍ، مسحها (شو) ليخطّ فوقه مسرحيته، لكنّ بقايا تلك الكتابة تُطِلُّ من سطور مسرحية (شو) على حياء لتدلّ على ما سبق من كتابة. وهذا هو جوهر مفهوم (الأطراس) عند (جينيت).

وفي كثيرٍ من الأعمال الأدبية شيءٌ من ذلك، وأبدع فيه مبدعون عرب وغير عرب. والمحضار واحدٌ من هؤلاء. وإنّ من صور هذه الأطراس ما يتصل ببناء الأغنية إيقاعيًّا، وإنّ منها ما يتعلق ببناء الصورة الفنية. وخذ مثلاً من ذلك قوله:

بسألك يا طير يا ذا المعليّ   حط ساعة فوق داره وعل
خبره عني وقُلْ له بفعلي   وسأله باللطف عما فعل
ورجع وقل لي   آه لي قلته جميعا وهو قال آه

تقوم الصورة في هذا البيت على بنية (المشهد)، فتسمع تحاور المحضار مع الطائر الذي لا ندري ما يكون هدهداً أم حمامةً أم بلبلاً أم طائراً آخر غير هذه، فيستدنيه من عليائه ليحثّه على الذهاب إلى منزل معشوقه فيختلي به ثم يبلغه رسالته وما تضمنته من شجنٍ وحنينٍ وأحوالٍ شتّى متناقضة، وما صنع في حبه إياه وينبهه إلى الحذر من ترويعه وإقلاقِ نفسه حين يعمد إلى مناجاته، والسؤال عما صنع في سبيل هواهما. ويأتي (الاحتراس) هنا ليزيد من براعة الأداء اللغوي في الشطر الرابع (باللطف). ثم يحثه على العودة سريعًا ليقف على فحوى تلك المحاورة بين الطائر والمعشوق.

تستدعي الصورة موقف نبي الله سليمان حين تفقّد الطير ولم يجد الهدهد بينها، ثم تحاوره معه وإتيانه بنبأٍ من سبأ وحالها مع امرأة تملكها، وحمله رسالة سليمان إليها، وعودته بما جرى بينهما من بعد.

لكن الصورة القرآنية لم تظهر في بيت المحضار جليةً ظاهرةً، وإنما تناسل وهجها في كلام المحضار فَوَشَتْ به دوالّ شعره وقصيده. وهذه طريقةٌ من طرق استخدام التناص في هيئة (الأطراس). وقس عليها أشباهًا لها ونظائرَ.

وهنا يصح الاستدراك على قول المحضار من جهة عدم تعيين جنس (الطير) ونوعه ومن جهة استخدام لفظة (الطير) وهي جمعٌ في العربية ومفردها (طائر)، فغلّب عليه الاستخدام الدارج عند عامة أهل حضرموت من جهة استخدام الطير للمفرد، ولعموم الجنس لا لخصوصه.

(٧)

تندرج كلمات أغنية (**عليل امهوى**) للشاعر علي عبدالرحمن جحّاف وكلمات أغنية (كما الريشة) للشاعر حسين بن أبي بكر المحضار في إطار بنية الأطراس. وهاك بيانه.

في السبعينيات من القرن العشرين ظهرت أغنية المحضار (قلبي من الفرقة كما الريشة)، وشدا بها الشادون فذاعت في الأسماع والأفئدة. ووقع لها صدًى في نفس الشاعر علي عبدالرحمن جحّاف، وهو من شعراء حجة النابهين، الذين نظموا الشعر بالمحكية التهاميّة فأجادوا استخدامها. فتمثل محتوى الأغنية وتجربتها الشعرية عن واقعٍ معيشٍ أو خيالٍ نابضٍ مرتعش بالصور الدالة المعبرّة، سيّان، فصاغ من ذلك نصًّا يحتذي به تجربة الشاعر المحضار في مظانّ، ويعدل عنه في مظانّ أخرى، فجاءت رائعته (عليل امهوى) لتشهد على اقتدار شاعر في تصريف القول وولوج مضايقه، وتشكيل شعرية نصّه وفق سنن لهجته المحكية. وكأني به قد قرأ نصّ المحضار مرقومًا على طِرْسٍ فمحا ما خُطّ فيه من شعرٍ ليَرْقُمَ على الطِّرْسِ نفسه نصَّه، فزاحمت بقايا الكتابة المَمحوّة ما جدّ على الطرس من كتابةٍ. وهذا في ذاته عملية إبداعية لا يقوى عليها إلا الكبار من المبدعين.

وقف الشاعر جحاف على مناجاة الطائر في أغنية المحضار، فناجاه.

ووقف على الشكوى من الغربة عن الأهل والوطن فشكا منه ما شكا.

ووقف على الحنين إلى مرابع الهناء والعيش اليسير البسيط فحنّ إليها كلها.

لكنه لم يقف على وظيفة (الشلة) في أغنية المحضار، فبنى

أغنيته على نظام (المبيت) و(التوشيح) كما في الأغنية الصنعانية.

ووجد في صور المحضار إجمالاً أدخل في الإيجاز، فازدهاه تتبع تفاصيل الصور في مبيتاته، وأحكم نسيجها، فبدت كلمات أغنيته أبهى بريقًا وأشدَّ ائتلاقًا.

واجتمع الشاعران في اجتلاب الحكمة في كلماتها، فتمثّلا جلال الشيخوخة ومهابة الحكماء، وهذا إجمالٌ في وصف صنيع الشاعرين لابدَّ من أن يُشْفَعَ بتحليلٍ تفريعيٍّ على نحوٍ مما يلي:

استهلَّ الشاعر المحضار قصيدته بالشلَّة: (قلبي من الفرقة كما الريشة)، وفيها تلخيصٌ مكثّفٌ لطبيعة التجربة التي يريد وصف تفاصيلها، وتبيان أبعادها. وها ما دأب عليه المحضار مذ بدأت تجاربه في صياغة الشعر تنحو نحو النضج، والاستفادة من دربة النظم وتشكيل القول حتى غدت خصيصةً أسلوبيةً يمتاز بها قصيده، وينماز بها من طرائق الآخرين في استخدام (الشلَّة)، بل انماز استخدامه إياها من طرائقه هو في بداياته الشعرية كما وصفناه في أوّل هذه المقالة.

وهذا صنيعٌ في الإبداع لا تعرفه الأغنية الصنعانية، فلم يقف عليه الشاعر علي جحاف فاستعاض عنه بمناجاة الطائر، واستهلّ بالنداء أغنيتَه. وهو مكوّنٌ أسلوبيٌّ استخدمه المحضار في أول أبيات قصيده، فكأنما تماثل الشاعران في التشكيل اللغوي. والواقع أن بينهما فرقًا في الدلالة. فـ(طير المحضار) عامٌّ لا ينبئ عن مخصوص يتشكل في إطار الاستعارة. فهو دالٌّ منحصرٌ في إطار المواضعة لا الاتساع، أما (طائر) جحاف فهو ينبئ عن مخصوصٍ يناجيه، ويفرده بحديث الشكوى من الغربة. قد يسأل سائل: ومن يكون ذلك (المنادى) على الحقيقة؟ وهنا يكون الجواب: لا يهمُّنا معرفته في هذا المقام تعيينًا. وحسبنا أنه أدخل دال (الطائر) في دائرة المجاز، وهو من بواعث الشعرية في النص. لكن المحضار لم يخُلِ بيته - كذلك - من مجاز، حين ماثل بين عش الطير و(عش) الشاعر، فجاء (الترديد) مبنيًّا على شرط المجاز، فالعش الأول حقيقةٌ، أما (عشي) فمجازٌ قصد به الشاعر بيته الذي يأوي إليه فيسكن بعد اضطراب.

يتلو ذلك عند المحضار بيت ثانٍ يغبط في شطرٍ منه الطير على غدوِّه ورواحه آمنًا مطمئنًّا ويتمنى في شطرٍ ثانٍ أن يظفر بمثل تلك الحركة في أرضه، ثم في شطرٍ ثالث يعينٍّ طبيعة الحياة التي كان يتمنى أن تكون له (حتى ولو جمال ع الهيشة). فطاف متنقِّلاً بين المعاني دون أن يقف على جزئيات تشكّل صورةَ كلِّ معنًى، في حين جعل (جحاف) (طائره) مجرد منادى يبثّه معاناته منصرفًا عن التماهي مع الطائر على نحوٍ ممّا فعل المحضار، لكنه سعى إلى الاستعانة به في العثور على من يخلّصه من معاناته هذه الغربة. فقد بلغ السيل الزُّبى، وغدا القلب عليلاً بهواه، ولا سبيل للشفاء إلا بتمائم تُنْجيه مما هو فيه.

على أن (المبيت) الأول عند جحاف لم يخُلُ من اهتزازٍ في استخدام دالّ (الطائر) ففي حين تراءى في مطلعه وكأنه مجازٌ عن كائنٍ حيٍّ صديقٍ أو رفيق، بدا في البيت الثالث من (المبيت) عينه طائرًا من الطيور، فأخرجه من دائرة الاتساع إلى دائرة المواضعة: (**سَقِّمْ أشا سايلك واخو امطيور احوائم**). لكنه وفق إلى استخدام اللغة الوجدانية في قوله: (ناخوك وش با تساوي) التي أوحت بالحيرة والعجز عن تجاوز الحال المشهود.

وإن مما لا يجوز فواته على قارئ النص التمييزَ بين النصوص في صياغة الفكرة وجلاء المقصود. وهنا يبدو (المحضار) شاعرًا يهتم بأداء المعنى وتشغله صياغة الفكرة عن كثيرٍ من تفاصيل التخييل الشعري. أما الشاعر علي جحاف فقد شغله التصوير عن التعبير والتقرير، فاندمج (المعنى) في (الصورة)، ونمت الصورة بين عينيه من خلال جزئياتها التي تقرّاها في موجودات الحياة التي كان يعيشها وأهلُ زمانه، فاسمعه وهو يميّز حاضرًا من ماضٍ، وحالَ عيشٍ





مقيمٍ كلُّه جفوةٌ وانكسارٌ وحالَ عيشٍ منقضٍ كلُّه بهجةٌ وازدهارٌ على بساطته وما تخلّله من شقاءٍ وتعب. وفي المقطع الثاني يشكو جحّاف زمانه، ويستنكر اتجاه (المغترب) للبحث عن عزة في ديار غربته بعيداً عن أحبته في بلاده:

(منيّا له العز من فارق ديار احبايب :: وكيف يهناه زاده).

ثم يتلقّط مصادر عزِّه التي كان يجب عليها الاعتداد بها والحرص عليها، وهي (امزهب) – وهي الأرض الزراعية –، والوادي المتصل بها، (امزرايب) – وهي حظيرة الأنعام، والسرير المصنوع من خوص النخل يريح المرء عليه جثته بعد جهدٍ جاهدٍ وتعبٍ مرير (وحيث تاوي امقعادة). وإن من أيسر الأحوال على من فقد كل ذلك راضيًا مختاراً أن يتجشم (المهلكات)، ويسير على درب كله أسلاكٌ وأشواكٌ، لا لشيءٍ لكن لتركه أرضه، وتطلّع نفسه لماءٍ متوهّمٍ في قيظ الصحراء. ومن هنا جاء (التهكم) في قوله: (يهناه عيش امنكد :: مادام بارح رباها)، وإنما التهنئات على المكارم والعظائم لا على نكد الدنيا وشقائها. وفي هذا وأمثاله ما يشي بوعي الشاعر بالامتزاج بين (العام) و(الخاص)، وبين (النفسي) و(الاجتماعي). وهو ما لم نجده عند المحضار في قصيده هذا. لكنّ طلب المحضار من الركب أن يحملوه إلى أرضه (حتى لقوني طرد في خيشة) يُبْقِي ألق الشعرية في قصيدته ملحوظًا.

وفي البيت الأخير يستعرض جحّاف ذكريات عيشٍ نَعِمَ به على ما فيه من عناء. فقد كان عهد (عيش امهناء)، وكان هو (يهوى امطرب وامتنفّاس) فيه، وكانت (دبعته) على رأسه تحميه من شواظ القيظ وهو يتنقّل بجماله من هنا إلى هناك، ويشغله خيال النساء الجميلات الفواتن (كم زخم يخطر قبالي :: أحيد به غصن مياس)، ثم هذه (الصورة/ اللقطة) الرائعة لذلك (الزخم) وهو:

يرقص على نغمة امشحرور بين امدوالي

يهمّس الأرض همّاس

وهي من الخيال السامي، وفيها من الدليل على صدق مقولة أبي عثمان من أن (المعاني مطروحةٌ في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، **وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير**).

وكلا الشاعرين أجاد استخدام اللهجة المحكية صوتًا ودلالةً، ووظّفها لتحمل عنه أسرار قلبه وشجون خاطره وأحلام فؤاده. على أن جحاف كان أكثر إيغالاً في استخدام اللهجة التهامية وإن لم يكن من أهلها لكنه أحكم نسيج الشعر بها، وجلا بعض خصائصها في نظمه بها كاستخدام (الانطاء) – وهو قلب الهمزة عينًا – و(التمويم) – وهو قلب (ال) التعريف العربية إلى (ام) التهامية –، والنحت كما في قوله (منيّاله) بمعنى من أين له؟ و(التامس) بمعنى أوّل أمس، ناهيك باستخدام اللغة الوجدانية في عدد من المظان. وأكْثَرَ المحضار من استخدام الأساليب الإنشائية نداءً وأمراً واستفهامًا، وهي طلبيةٌ، كما استخدمها غير طلبية، كالتمني وما جرى مجراه.

(٨)

وبعد:

فإنّ فرادةَ شعر المحضار لا تكمن في ذات لغتها معزولةً ولكن في قدرتها كذلك على الهجرة إلى نصوص الآخرين وتفاعلها مع ذائقتهم ولغتهم الشعرية وتوالد نصوصٍ جديدة من ثناياها. وما أكثرَ الحالات التي استطاعت فيه قصائد المحضار فعل ذلك! إنهّا كالبعير الذي يجيد ضرابَ النوق فيولدها إبلاً تتكاثر في نواحي الأرض وتملؤها حياةً متجدّدةً.

وهنا أسأل:

أتراه لهذا أو لشيءٍ شبيهٍ به وصفت العرب الشاعر النابه بأنه (فحلٌ)؟

سؤال أدع الإجابة عنه للقرّاء، أو لواحدٍ منهم في أقلِّ تقديرٍ.

ملف العدد: **قراءات في (أوراق مكلَّاوية) للجعيدي**

هوامش على (أوراق مكلَّاوية) للدكتور عبدالله سعيد الجعيدي

د. طه حسين الحضرمي

في (أوراق مكلَّاوية) عبدالله الجعيدي ساردٌ بذاكرة مؤرِّخ

صالح حسين الفردي

تغريدات مشقاصية على "أوراق مكلَّاوية"

هاني عبود الغتنيني

حبر التعليم في (أوراق مكلَّاوية) للجعيدي

أنور سالم باكركر







هوامش على (أوراق مكلاوية)

للدكتور عبدالله سعيد الجعيدي

عبدالله سعيد الجعيدي من أبناء المكلا المتميزين، ممَّن ذابوا عشقًا في أعطاف عروس بحر العرب، ثم ترجموا هذه المحبة إلى أحرف مضيئة. فلم يكن بدعًا في مجال الإبداع الأدبي؛ لأنه يمضي على خطا سلفه من المبدعين محبي هذه المدينة الساحرة؛ من مثل الشاعر خالد عبدالعزيز صاحب (بعد المكلا شاق)، الذي جعل هذه الأحرف تتوهج في متون ديوانه (المكلا)، والقاص والروائي صالح باعامر، الذي أشعل الشوق في هذه الأحرف في روايته (المكلا) وفي غالب أقاصيصه.

قد يتساءل متسائل فيقول: لماذا هذا الاحتفاء المبالغ فيه بمدينة مثل المكلا؟ أليست هي مثل بقية المدن إن لم تكن أقلَّ شأنًا منها؟ ما المميَّز فيها؟ أفي سكانها أم في مكانها؟ أفي جبلها أم في بحرها؟ أفي مناخها أم في شمسها؟

التساؤل في جوهره مشروع، بيد أنه غير مستساغ؛ لأن الأمكنة لها مقياس يرتكز على العواطف والمشاعر لا بالجغرافيا ولا بالمناخ. وما صاحب صرخة (آه.. يا القِيْمه) في بلاد الهند مستنشقًا نفحاتٍ من بلاده (القيمة) بأرض حجر إلا أنموذجًا مثاليًّا لهذا التعلُّق بالأمكنة.



د. طه حسين الحضرمي

(١)

هل للذاكرة مرافئ تسكن إليها حين تغزوها الخطوب؟!

يقال: إن هناك ثقبًا في الذاكرة يشبه ما نسمع عنه في السنوات الأخيرة عن ثقب في الأوزون، وقد يزيد الأمر عن حدّه فتصبح عندنا ثقوب عدَّة في ذاكرتنا الفردية والجمعية. بيد أن هناك علامات خطيةً بارزةً في هذه الذاكرة لا يمكن اختراقها أو الاقتراب منها؛ لأنها حادة الزوايا، مصقولةٌ متونهُا مثل المرايا، شبيهةٌ بمرافئ مجهولة، تَسْكُنُ إليها سفن الذكريات؛ لكنها قد تختفي وراء الضباب الحياتي المعتم حينًا والشفَّاف أحايين كثيرة، الذي يغشّيها مثل الندى في الغدوات، أو يغطيها كغُبْشَةَ الليل في العَشِيَّات. كما قد تعتليها غشاوة طارئة مثل غَشْيَةِ الموج، غير أنها لا تزول ولا تفنى؛ لذا فهي تحتاج إلى يد حانية تزيل عن متونها ما علق فيها من غشاوة الغُبْشة، وما أحاط بها من ندى الضباب، وما احتواها من عنفوان زبد الموج.

فهاهي اليد الحانية تتمثّل في أوراق الجعيدي المكلاوية، التي أحمدُ إليه هذا الفعلَ النبيلَ؛ لأننا في أمس الحاجة في هذه الأيام العصيبة إلى أياد حانية تمسح برقَّة على ذاكرتنا الفردية والجمعية لتزيل عنها ما علق بها من غبار النسيان فتجلوَ الغشاوة عن صَبَوَات الزمن الجميل.

أثارت هذه الأوراق شجنًا ظل يعزف مدةً من الزمان في أعماقي ألحانَ الشوق والحنين إلى أيام الطفولة والصبا في أحضان أزقة مدينتنا الجميلة (المكلا) وحاراتها؛ فأعادت الحياةَ إلى مرافىء الذاكرة لترسوَ فيها سفنُ الذكريات، وسأكتفي في هذا الهامش بأربعة مرافىء أيقظتها نسماتُ هذه الأوراق العليلة.

المرفأ الأول: قصر السلطان القعيطي

يقع هذا القصر فوق لسان يمتد على الساحل عند بداية مدخل المكلا الرئيس الذي كان يعرف قديماً بـ(برَّع السدّة) حي السلام حاليًا، أقيم هذا القصر في عهد السلطان عمر بن عوض القعيطي في حدود سنة (١٩٢٤م) أو (١٩٢٥م). ويتكون من ثلاثة أدوار، يحيط به سور بمساحة كبيرة، وبناؤه متأثر بطابع العمارة الهندية، الذي كان شائعًا في المكلا آنذاك.

كان هذا القصر في طفولتنا يثير فينا هيبةً وفضولاً؛ فقد كنَّا نمشي على مبعدة منه فننظر إليه بإعجاب ممزوج بدهشة وإجلال. ونرسم بأعيننا على حيطانه العالية أهلّة الشوق والحنين إلى تاريخ أجدادنا الأمجاد ممن أفلتْ نجومُهم الزاهرة في تلك الأيام وأعني بها مستهل السبعينيات. وقد عُرف هذا القصر في أوساطنا باسم (القصر) من باب العهد الذهبي.

ثم تذللت السبل إلى ولوجه فكنا نلج إليه بعد أن أصبحت أبوابه مشرعةً. فأصبحت أقدامنا الصغيرة تزغرد في فنائه الفسيح فتستشرفُ أعيننا الحالمة عبر سوره البحري المتآكل جآذر بحر (المشراف).

المرفأ الثاني: قشارة سانجي الموءودة:

هذه (قشارة) وُئدتْ بكبس كان آنذاك ثقيلاً على نفوسنا، وقد ترجم المبدع باعامر هذا الإحساس في قصة شعرية بديعة بعنوان (إنهم يشنقون البحر)، ثم نُشرتْ في مجموعته القصصية (دهوم المشقاصي) بعنوان (لغة الأمواج) إنْ لم تخني الذاكرة وكثيراً ما تفعل.

لم أعلم أن لهذه (القشارة) اسماً إلا من كتاب صديقي الجعيدي. وهي تسمية خاضعة لمسوِّغات مكانية وحدثية خاصة. أثارت هذه (القشارةُ) وأخواتهُا ذاكرةً قد علاها الصدأ عن أيام البحث عن (الصني = الطُعم) تحت هذه القشارة وأخواتها؛ وذلك باستخراج ديدان الرمل بطرائق شتَّى.

المرفأ الثالث: (العَيْقَةُ) والنشاط الرياضي:

(العَيْقَةُ) هي المجرى المائي الفاصل بين المكلا (الجانب الشرقي) وشرج باسالم (الجانب الغربي)، التي حلَّ محلّها اليوم (خور المكلا). وهي لفظة فصيحة: تعني: الفناء من الأرض وساحل البحر وناحيته وجمعها(عَيْقات).

وقد كانت لنا نحن أبناء حي الشرج (حي العمال) – صولاتٌ وجولاتٌ في هذه (العَيْقَة)، التي كُنَّا نعدُّها آنذاك ملكية خاصة بنا. شهدت (العَيْقَةُ) نشاطًا رياضيًّا متميِّزًا في سبعينيات القرن الماضي، وقد أسهمت في تغذية أندية المكلا الشهيرة (المكلا–التضامن–الشعب) بجملة من أشهر لاعبي كرة القدم من أبناء جيلي، من مثل صالح الشاحث عليه رحمة الله؛ الذي كان أبرزهم شهرةً آنذاك. وكان الصراع على أشدّه بين أبناء الحيَّينْ ولاسيما على ملاعب (العربي) و(الزمالك) و(الصاروخ) الواقعة في الجهة الشرقية من (العَيْقَة) من جهة (باجعمان) بجوار ورشة تعاونية النجَّارين سابقًا.

الملاعب السابقة كانت تابعة لأشهر فريقَينْ من الحيِّ الشرقيِّ، هما: (العربي) و(الزمالك). وفي غالب الأحيان كان أبناء حي الشرج هم المنتصرين في امتطاء صهوة هذَيْنِ الملعبَينْ المشهورَيْنِ إلا إذا دفع أبناء الحي الشرقي (الإتاوة) المفروضة عليهم. وهذا يؤيِّد تاريخيًّا أن الخور يخضع جغرافيًّا لشرج باسالم.

المرفأ الرابع: (قابوس) الغامض:

كانت هذه الشخصية تمثّل رُعبًا يزلزل قلوبنا الطريَّة في طفولتنا. هي شخصيَّةٌ سرديَّةٌ بكل مقوِّمات شخصيات نجيب محفوظ. و(قابوس) لقب لرجل شبه مجنون، ينتمي إلى آل (بن علي جابر) ذوي الأصول اليافعية. يتميز



(قابوس) بـبنْيَة جسـديَّة مَتِينَة، وهو ذو عضلات مفتولة ورأس أصلع ولحية موفورة، وكنا نطلق عليه (أبو دقن)، وأعتقد أنه كان من قلائل الملتحين آنذاك! . وكان يسير دائماً محتضنًا حقيبة قماشية تحتوي مصحفًا من المصاحف التي كانت شائعة آنذاك من مطبوعات الهند، وكنا نطلق عليها المصاحف الهندية.

والمرافئ كثيرة وهذيانها لا ينتهي.

(٢)

ينتمي هذا الكتاب نوعيًا - إلى الخاطرة الأدبية ذات النكهة السردية - إن جاز التعبير - وهو نوع شائعٌ عند بعض كُتّاب المقالة الأدبية في عنفوان تطور النثر الفني في أدبنا العربي الحديث، وقد حمل لواءه المازني الذي كان يخلط الواقع بالخيال، فشاعت في كتاباته أشكالٌ سردية تحمل في أحشائها تجاربه الذاتية، كما في كتابَيْه (خيوط العنكبوت) و(صندوق الدنيا) وغيرهما، وهو نوع نثري انصرف عنه اليومَ كثيرٌ من الكتاب.

فالجعيدي في كتابه هذا يحكي وقائع تاريخية ولكن بمحرِّكات سردية فذة، تستشرف آفاق السرد، ممتطيةً واقعًا له مرجعية تاريخية بمفهوم التاريخ الفضفاض؛ لهذا يكثر في سردياته التصوير من خلال الوصف والتعبير بوساطة ألفاظ تتجلىّ في متونها الشعرية؛ فهاك مثلاً شرودًا لا يغني عن سواه ولكنه يدل بأصبع الإشارة على هذه السردية الشاعرة. فهو في أثناء سرد تاريخ بناء (مسجد مشهور) يشخّص مئذنتَه الوقورَ قائلاً: (ومنذ تأسيس المسجد والمئذنة قائمة مشرئبة برأسها في تواضع الزاهدين ويقظة المصلحين، ترمق زُوَّار مسجدها من جميع الاتجاهات. ولعلها تنظر إلى مجاوريها بشفقة وحنان حينما تراهم يلهثون ويكدون أو يلعبون في الدنيا بحثًا عن سعادة وأمل بعيداً عنها وعن مسجدها الطاهر. وفي واقع الأمر هي ليست بعيدة عنهم فهي تشاركهم أفراحهم وأحزانهم. كما أنَّ لها أفراحها الخاصة في الأعياد والمناسبات الدينية تجدد فيها زينتها وتترصع بقلائد من نور، لعل ذلك يدخل السرور في نفوس المؤمنين المداومين ويشد انتباه المؤمنين المتخلفين).

وللجعيدي سردٌ شَجِيٌّ امتزج فيه الحنين إلى الماضي بالحزن والأسى عن صخرة كانت مغروزةً في شاطىء من شواطىء المكلا وتحديداً على مرمى حجر من قبة (المحجوب) وعلى مرمى بصر من بحر (المشراف) و(القصر). وهذه الصخرة في تشكّلها الطبيعي عند (المدّ) تغدو جزءاً من البحر المكلاوي فتلتحم به التحام الحبيب بمحبوبه ثم تفارقه في حالة (الجزر) لتغدو جبلاً صغيراً، يرنو إلى البحر بعيني عاشق مُدَلَّه يروم وصال محبوبه.

يصنع الجعيديّ من هذه الصخرة فضاءً سرديًّا وجدانيًّا تذكرنا بقصص العشّاق في السينما الهندية التي كانت من متع طفولة جيلنا؛ ولاسيما الفيلم الشهير آنذاك (Ek Phool Do Mali) الذي أنتج عام ١٩٦٩م. عُرض هذا الفيلم في (السينما الأهلية) بالمكلا مستهلَّ سبعينيات القرن العشرين، فاشتهر في الأوساط المكلاوية بعنوان (ولدي). والفيلم من بطولة الممثل الوسيم (سانجي خان)، الذي أصبح البطل الواقعي لحكاية (قشارة سانجي)؛ و(القشارة) بلهجتنا المكلاوية هي الصخرة البحرية.

تحوّلت هذه الحكاية الواقعية التي عايشها المؤلف إلى تخْييل سرديّ ماتع يمثّل الفضاء فيه مكوّنًا انطولوجيا ذا بُعد فانتازي تُؤنس الصخرةُ فيه؛ فتصبح شخصيةً لصيقةً بالشخصية الرئيسة؛ بوصفها عتبةً لغويةً (قشارة سانجي)، وبوصفها محرِّكًا من محركات الأحداث السردية. ظلت هذه الصخرةُ شامخةً بعد غياب فارسها العاشق الولهان مدةً من الزمان، حتى أزاحها كائن ثقيل الدم أطلقنا عليه اسماً يحمل ما بداخلنا من رفض لوجوده (الكَبْس)، كأنّه كَبَسَ على أنفاسنا فحرمنا من أجمل مُتَنَفَّسَاتِنَا البهيجة، وكأنه ليل امرىء القيس الذي جثم ولم يغادر.

نصوصُ الجعيدي مخاتلةٌ يمتزج فيها الواقع بـالمتخيّل. فكثيرٌ من حكاياته مكتنزةٌ بالسرد إن صحّ التعبير – يمارس الجعيدي من خلالها لعبةَ السرد الأثيرة، التي يمارسها المؤلف دومًا على القارىء؛ ليقومَ كلٌّ منهما بوظيفته المرسومة بدقة منذ نشأة السردية الشفاهية ثم المكتوبة فيما بعد دون إخلال أحدهما بهذه الوظيفة، في إطار مفهوم نظرية التلقي كما قرَّره منظِّروها من مثل ياوس وايزر وغيرهما ممن أرسى دعائم هذه النظرية؛ انطلاقًا من أبرز مكوناتها المتمثلة في ثنائية (الإرسال/ الاستقبال)؛ لأن النصوص ليس بإمكانها أن تتناسل ذاتيًا، كما أن المُبدعينَ ليس بإمكانهم في إطار معطيات هذه النظرية ادّعاء (الامتلاك الأحادي) لنصوصهم الإبداعية على الرغم من كونهم أوّلَ مَنْ منحها حقّ الحياة ورقيًّا بشكل خاص؛ ففي هذه الحالة لا يقلّ (المتلقي/ المستقبل) أهميةً في إنتاج النص من (مؤلف النص/ مرسل الرسالة)؛ موازيًا لميدان قريب من تجليات (سلطة القراءة) في إطار مفهوم (تعدد القراءات) استنادًا إلى استجابة المتلقِّي لتداعيات النص الإبداعي، والتفاعل معه بوساطة آفاق متسعة من التوقعات.

فكثير من هذه النصوص السردية (الجعيدية) تنفتح على أشكال (المازني) السردية، المُشبَعة بالذاتية، ذات المآلات القرائية، المنفتحة على التأويلات؛ فإبراهيم المازني (المؤلف/ الإنسان) ممتزج بإبراهيم (الشخصية الورقية) في كثير من سروده، من مثل (إبراهيم الثاني) و(إبراهيم الكاتب)، وحاضرٌ بفكره وآرائه كما في (في النافذة) و(صندوق الدنيا) و(خيوط العنكبوت)؛ لإضفاء المتعة على كتاباته وإدخال البهجة إلى قلوب قرائه/ متلقِّيه، فينبسط النص السردي أمامهم لتتعدَّدَ القراءات على وفق اتساع فضاء التأويلات.

(٣)

لكل كاتب بصمتُه الخاصة التي تتجلّى في مظاهر أسلوبه. وقد اختط الجعيدي لنفسه أسلوبًا خاصًّا، لا تكاد مقالة من مقالاته تخلو منه. من هذه الأساليب استخدام الكاتب بعض التراكيب الخاصة التي تداولتها الألسنة معبرةً عن ثقافة خاصة بهم، مثل الأمثال والأساليب المسكوكة، بأسلوب بلاغي يعيد إنتاج دلالتها.

يستخدم الجعيديُّ أسلوبًا غريبًا خاصًّا في هذا الكتاب، لا يحيد عنه قيد أنملة، يسير فيه على نهج يخالف الشائع في الكتابة. فهو يفسرّ الكلمة الفصيحة بما شاع من كلمات دارجة عند أهل حضرموت وأبناء المكلا بشكل خاص، ويضعها بين علامتي تنصيص أحيانًا وبين قوسين أحيانا أخرى؛ كأنه يؤكّد على هُويّة هذه الأوراق المكلاوية، وهَاكَ أمثلةً شرُدًا للإشارة إلى هذه الظاهرة الأسلوبية – بوصف الأسلوب هاهنا نسقًا كتابيًّا خاصًّا ونظامًا إنشائيًا يختطُّه الكاتب لنفسه دون غيره من الكُتّاب – التي غدتْ سمةً مميزةً في جُلّ كتابات الجعيديّ لا في هذا الكتاب فحسب؛ يقول وهو يصف لحظة تأهب الطلاب ولاسيما الصغار لمغادرة المدرسة وهي اللحظة المبهجة التي يصاحبها الضجيج والازدحام مع محاولة بعضهم استكمال كتابة ما بقي عليهم من واجبات: »كانت المدرسة تعجّ بحركة السراح "الديار"...« من مقال (مطلوب للشرطة). وفي موضع آخر يصف اللحظات التي يتهيأ فيها الطباخون للطبخ بمساعدة طوعية من أبناء الحي قبيل صلاة الفجر وبعده، فيقومون »بوضع الأخشاب و(القصام)...« من مقال (وللطباخين عصرهم الذهبي). و(القصام) في اللهجة الحضرمية هي سعف النخيل اليابسة.

كما يستخدم الجعيدي (التناص) من خلال التفاعل والتحاور بين النص السابق والنص اللاحق، بوساطة إدماج القديم في الجديد، والسعي إلى صنع ذاكرة فنية أدبية، تتخطَّى الحدود الزمنية والمكانية؛ وذلك بإعادة الإنتاج للدلالة النصية بمحركات صياغية، تبطن دلالات تحتكم إلى السياقات الخاصة بالنصوص السابقة ومآلاتها الفكرية





وأبعاد آفاقـها المعنوية على وفق ورودها سـواءً أكانت من مُحكم التنزيل أم من ديوان العرب الأزلي أم مـن مَسْكُوكَات نصية مأثورة أيْ تعبـيرات عربـية مسـكوكة جرتْ في ذيوعها وانتشارها مُجرى الأمثال المتداولة قديماً وحديثًا.

يلجأ الجعيدي إلى محاورة النص (السابـق) ثم يقـوم بالتبـديل الجزئي لإحـدى مكوناته التركيـبـية في إطار الوظيفة التحويلية دون المساس بالمبنى العام له؛ لأغراض بلاغية تُستَشَفُّ من السياق العام للنص الذي يَرِد في عتبته أو في متنه هذا النصُّ (اللاحق).

ففي إحدى عتباته يقـول: (رُبَّ (خصام) خيرٌ من ألف ميعاد) باستبدال كلمة (خصام) بكلمة (صدفة) للإشارة بـطرف خفيٍّ إلى مآلات الشـتات والضياع في التغريـبـة الحضرمية. ويصنع مثل ذلك في عتبة (والرزق أحيانا يحب الجنبـية) مستحـضراً المثلَ المصريَّ الشـهير (الرزق يحب الخفِّية) بـتغيير يسـير من خلال استبـدال كلمة (الجنبـية) بـكلمة (الخفِّية) وإضافة كلمة (أحـيانًا) إلى التركيب مع حضور حـرف (الواو) للدلالة على استمرارية التناسـل السرديّ في حكايات الجعيدي المتتابعة.

وفي إطار الامتصاص النصيّ يجعل الجعيدي أنشـودةَ المقاومة الفلسطينية الشهيرة (أناديكم أشد على أياديكم) - من ديوان الشـاعر الفلسـطيني توفيق زياد (أشـد على أياديكم) - نصًّا مرجعيًّا يعيـد صياغتـه ولكـن في إطـار الحديث عن الانتماء إلى المكان. فهو يقـول في حـديثه عن تغيير الكورنيش (الكبس) لملامح مدينته الحبيبـة: (ولكن البحـر لا يزال ينادينا والجبـل يشـد على أيادينا)؛ ليكونَ الجامع الـدلالي للنصَّينْ هـو أثيريـة (المكـان) المفتـقَد في (الواقع) والراسخ في (الذاكرة) المتأبية على النسيان.

(٤)

للمكان حضورٌ لافتٌ في هذه الأوراق ابتداءً من العتبـة الرئيسة (أوراق مكلاوية) مروراً بـمعظم نصوصها، التي تعبق بأنفاس مكلاوية مميزة. فالمكان هو كناية عن قـاطنيه بحسب تعبير سيزا قاسم، فطبيعة الإنسان مرتبطة بطبيعة أمكنة وجوده من الحي، الذي يسكن فيه ثم المدينة ثم البلد وهكذا. وتتحدد انتماءاته الفكرية من خلال طبيعة سكناه أهو من الريف أم من المدينة؟، ففروقـاتُ الأمكنة تحمل دلالات عميقـةً مُتجَذِّرَةً في وجدان الإنسـان، تُسْهم في تشكيل الوعي الإنساني عمومًا، فتكون أكثر حـضوراً في وعي الأديب الفنان.

يعيش الجعيدي في هـذه الأوراق انغـماراً حَمِيـميًّا مُدهشًا بهالات الفضاء المكلاوي، ولكي يُشركنا معه في انغماراتـه الوجدانية هذه يرسم لنا خارطة أشبه بالرسم (الكروكيّ) لحيّه السكنيّ -أو (حـافته) بالتعبير المكلاوي- في أضيق نطاقاته (شارع حمار بلصقع)؛ بوصف هذا الشارع جزءاً من حي السلام (برع السدة) صعوداً من البحـر إلى سـفح الجبـل؛ متلذِّذًا بـذكر الأمكنة التي تشكّل هذا الشـارع وربطها بأعلام أصحابها، مستخدمًا في وصفه هذا تقـنية (نظرة عين الطائر)، التي يصفها صاحبُنا بوريس أوسبنسكي بـأنها نظرة شـاملة للمشـهد الموصوف من وجهة نظر واحـدة عامة، ولا يتأتّى هذا الأمر إلاَّ إذا توافر للواصف المراقب موقعٌ عالٍ يحيط بكل تفصيلات المشهد الموصوف. فهذه الأوراق في عموم تجليَّاتها تُبـرزُ هُويتَها المكانية الخاصة من العتبـة الرئيسـة من خلال نعتها بـــ(المكلاوية)، ثم تتكشَّف هذه الهُويَّةُ رويداً رويداً في تضاعيـف نصوصهـا عنوانات ومتونًا.

وفي الختام لا يسـعني إلا أنْ أشـدَّ على يد صديقـي الأكاديميّ المتميز الدكتور عبدالله الجعيدي، الذي أحمدُ اللهَ إليه أنْ منحنا متعةَ الجلوس إلى هذه المائدة الحافلة بأطايب الأطعمة والأشربـة ذات النكهة المكلاوية المتميزة؛ بـكرم حضرميّ فيّاض عميم. فدونَك - عزيزي القـارئ - هذه المائدةَ العامرةَ بـلَذّة لا ينفدُ أُوارُ اشتعالها مادام في أعماقـنا عقلٌ وقلبٌ يتوهَّجَانِ بعطاءات الإنسان الفكرية والوجدانية أينما كان وكيفما كان.



في (أوراق مكلاّويّة)

عبدالله الجعيدي سارد بذاكرة مؤرّخ



تأمّلها:
صالح حسين الفردي

ما قبل البداية:

ليس سهلاً الكتابة عن ذاتك، ومن الصعب ضمان انتشاء العاطفة فيما تنثره من أحرف مبللة على سطور الصفحات، ذلك أن المرء لا يجد غضاضة وهو يقلّب في صفحات العمر، فيتوقّف تارة عند محطات منها، ويتغافل تارة عن محطات أخرى، ويغدو الأمر في غاية الصعوبة وأنت تحاول أن تستجمع ما بقي لك من قوى لمواجهة ذاتك بذاتك من أجل ذاتك.

هذه هي المشاعر التي انتابتني حين هممْت بالكتابة عن أخي ورفيق الدرب لعقود من الزمن، الأستاذ الدكتور عبدالله سعيد الجعيدي، فهو كذاتي التي تبحث عن ذاتها في كومة الأوراق، ولم تزل، والمقاربة اليوم - لما نثره في سنوات خلتْ من مقالات جمعت قبل عقد من السنين في كتاب نفحه عنوان: (أوراق مكلاّوية)، ضمّت دفّتاه (٦٨) مقالاً، توزّعت على (٧) عناوين، بمثابة أبواب للمكلاّ الأوراق، هي محاولة جديدة للبحث عن الذات.

لذا وجدت نفسي، وأنا أعود بذاكرتي ووجداني إلى تلك الأيام التي كنّا فيها -جميعًا- نرسم خطانا في تلك السنين العجاف، ونحاول أن نبقي جذوة الوعي مُتّقدة في دواخلنا، ونعمل على انعاش ذاكرة الوطن من خلال ميكنة الثقافة والأدب والفنّ، وقد بذلنا في ذلك الكثير من الجهد والتعب والسهر والقلق، إلا أننا استطعنا أن نرسو على مرافئ الحياة ونحن نعي ما بين أيدينا من زاد وفير - ثقافيًا وأدبيًا وفنيًّا - لتبدأ عجلة النشر في السير رويدًا رويدًا، فكانت مثل هذه الأوراق المكلاّويّة عنوانًا من عناوين تلك السنين العجاف التي لم تستطع كسر روح المدينة فينا، ولم تنجح في وأد أحلامنا في غدٍ أجمل وأفضل.

من هنا تأتي هذه المقاربة التي أنثرها في هذه المساحة الورقية من مجلة (حضرموت الثقّافيّة)، احتفاءً بالمنجز الثقافي والتاريخي والمعرفي الرصين للزميل العزيز الأستاذ الدكتور عبدالله سعيد الجعيدي، في إطلالة هي استمرار لتلك الأوراق التي استودعناها شغاف الروح منذ مسائية الأربعاء: ١١/ يناير/ ٢٠١١م، عندما احتفلنا بتوزيعها في قاعة اتحاد أدباء وكتاب حضرموت بالمكلا.



للأوراق حكاية وحكاية:

على الرغم من أن حكاية (الأوراق المكلاّويّة) للعزيز عبدالله قد أسهب في تفصيلها الأخ العزيز المهاجر الدكتور سعيد سالم الجريري في مقدمته القرائية التحليلية الشاملة، فإنَّ العنوان بعد أن صار عتبةً أولى لمتن محتويات الكتاب، فإنني أجده يذهب إلى معانٍ تظهر حميمية العلاقة بين الكاتب - الراوي العليم - والمدينة المكلا - فالعنوان ينصرف إلى الكاتب، في شقَّيْه (أوراق) و(مكلاّويّة)؛ إذ يظهر هويّة الكاتب - وجذوره وانتماءه، في حين ينفتح على المدينة بوصفها فضاءً مكانيًا وزمانيًا لهذه الأوراق التي جاءت العناوين (الأبواب السبعة) لتعمّق فلسفة العنوان، وتبدّد كلّ تشتيت لذهن القارئ المتلقِّي - فما هذه الأوراق إلا نبشٌ في تفاصيل المدينة وحكايات الأزمنة التي عاشتها الذات الرّاوية أو حفظتها أو التقطتها ذاكرتها الطازجة، فوجدت في عمود (آفاق حضرموت الثقافيّة) فرصة لنشرها تباعًا دون عناء أو عنت، فهي أوراقها المكلاّوية التي لا يجاريها في استعادتها بوله كزمنٍ جميل مفقود أحدٌ، وقد آن له أن ينشر أوراقه في زمن التشرذم والشتات والتشظّي الذي أدرك - الكاتب - الرّاوي - بشاعة مُنْقلبه على وداعة مدينته العابقة بتاريخ من الحكايا التي تظهر بوضوح المفارقة التاريخية والثقافيّة والحضارية والإنسانية بين زمنها الذي حفظته الأوراق وكانت أمينة عليه، وراهن المآل الذي تردّت إليه وغاصت في لجحه الكالحة.

راوٍ وبطل:

إن القارئ للأوراق يجد نفسه منساقًا مع راوٍ يصبح بطلاً في إحداها، (سكين القعيطيين)، (سنبوق العم - صالح باسيف)؛ ليعود فيغدو راويًا عليماً بتفاصيل الحكاية، وهو



غلاف كتاب أوراق مكلاوية (الطبعة الثانية)

ما جعل للأوراق نكهة السيرة الذاتية، التي تحاول أن تلملم شتات حياتها، وتحاول أن تنتقل بين الأوراق الحكايات - بوعي عميق، بدءًا من عناوين كلّ ورقة من تلك الأوراق، التي احتفت كثيرًا - بشخصيات هامشيّة في حياة المدينة، ولكنها حملت ملامحها وبراءتها وصدق طويتها (العم باسيف، عنبه، قابوس المزيّف، الشيخ محمد التميمي مؤذِّن مسجد المشهور، الطباخون: صالح بامهري، مردوف، صالح بافرج، باصدّيق، عمر باعلي، سالم بوزيدان، أحمد الغيلي، عمر حسنون)، وغيرها من الشخصيات التي حرص الكاتب على تسويقها بوصفها من أسهل النماذج وأكثرها وداعة ومسكوتًا عنها في حياة المجتمع، إلا أنه أراد أن يظهرها كنماذج إيجابية حملت سمات المدينة وطيبة أهلها وسلامة طويتها وديمومة أخلاقها، في التفاتة ذكيّة منه جعلت من هذه الأوراق قصصًا مضيئة، تظهر وتشيع ما بلغته المدينة من ثقافة ووعي وإتقان كانت تلك النماذج المشار إليها قد أخلصت لمهنتها، أو لدورها المتواضع في صفاء الحاضر، وضمان سلامة ونقاء المستقبل.





عناوين ورؤى:

إن المتأمّل في العناوين السبعة التي توزعت على:

- من ذاكرة الزمان والمكان.
- خواطر وتأملات.
- رجال في محطّات.
- حكايات مهجرية.
- رمضانيات.
- المكلا بملامح هنديّة.
- سمر مكلاّوي.

يدرك أنها انبثقت من عصارة المحتويات التي حملتها الأوراق، ليس هذا وحسب، بل إنها كانت عتبات أكثرَ التصاقًا بموضوعات ومضامين الأوراق التي احتوتها، ونجحت في مدّ القارئ بزاوية رؤية يستطيع من خلالها أن يدلف إلى ما يحمله المتن من حكايات تحملها تلك الأوراق.

تداخل الزمن:

ففي ذاكرة الزمان والمكان، صفحات: (٢٢ - ٥٨)، يتداخل زمنان، هما زمن السلطنة القعيطية والزمن الثوري، كما يشير الكاتب، ونجده في كلّ تلك الحكايات يشير إلى الزمن القعيطي بحميمية ورغبة في استعادته، في حين ينتابه القلق والتوجّس من الزمن الثوري، وإن حرص على عدم إدانته على الإطلاق.

صمت السؤال:

أما في الخواطر والتأمّلات (٦٤ - ١٠٠)، فإن الكاتب يرسل إشاراته العميقة لإظهار ما يعيشه الإنسان الحضرمي من سلبيّة وصمت حيال القضايا الكبرى وسؤال المصير، من خلال قصص ذات دلالات سياسية مغلّفة بخيوط الذكريات، كما تبينّ ذلك ورقتا: (عندما سيطر الحضارمة على البترول)، (الديك أولاً)، والعنوانان يختزلان مأساة التاريخ وصمت الأجيال وسلبية النخب والقوى الفاعلة في المجتمع إن كان يصدق عليها هذا الوصف.

مشكاة نور:

وفي رجال ومحطّات (١٠٤ - ١٢١)، يفرد الكاتب التلميذ - ستَّ أوراق وفائية لستة أعلام كانوا مشكاة النور والضياء والمعرفة في مسيرة حياته العلمية والمعرفية والعملية، وفي ذلك ما يشي برغبته في إظهار حقيقة الترابط الحميمي بين الأجيال، وضرورة أن يحتفي المجتمع بأعلامه ونوابغه ونماذجه المشرّفة في كل مراحل الحياة ومجالاتها، وقد نجح التلميذ والطالب والباحث والمعلم والأستاذ عبدالله في ذلك.

ذاكرة طفولة:

وإذا ذهبنا إلى حكايات مهجريّة (١٢٨ - ١٦٤)، فإننا نلمس اشتغاله بذاكرة الطفولة والبراءة الأولى التي كانت هي البذرة الأولى التي أنبتت روح السارد لديه، وكثيراً ما انعته تحببًا - بـ(الطفل المتلصّص) الشغوف في طلب





المعرفة، أي أن أوراقه المكلاّوية قد كشفت عن طفل ذي ذاكرة قويّة وطازجة، كان (فضوليًّا) لا يهدأ ولا يهنأ له حال إلا عندما يكتشف الأشياء ويستمتع بكشف ما أبهم أو أغلق عليه من أحداث أو وقائع في محيط أسرته وعائلته ومجتمعه الصغير: حافته وواقعه الأكبر حيّه ومكلاّه، فجاءت حكايات مهجرية تمتح من هذا المخزون الطفولي: لذا نجد خاله، وخال خاله وجدته ودموعها، وبكاء حبيبه، وصفيّه بين الضحك والبكاء، وما تلاها من حكايات هي نسيج متواصل لتلك المزية التي علقت به منذ طفولته ولم تزل.

عمق تصوير:

وفي رمضانيات، لا يذهب الكاتب الطفل - بعيداً عن تلك الأجواء التي كانت سمات قارّة في حياة المدينة، وارتبطت بشعائر الشهر الفضيل رمضان المبارك، ونلمح عمق التصوير وصفاء الاستدعاء لتلك الذكريات، التي استعادت ذاكرة المدينة، ورصدت تجليات الشهر الكريم في زوايا الأمكنة وحيوات الناس، يستعيدها - في أوراقه - لكي يظهر ما فقدته المدينة من زاد روحّي وإنساني وتكافل اجتماعي، كانت المدينة الحيُّ - عنوانًا أصيلاً من عناوينه، ولكن!

تثاقف حضاري:

بينما نجده في المكلا بملامح هندية (١٩١ - ٢٠٥)، يذهب إلى محطات من أهم محطّات التثاقف التي عاشتها المدينة وانفتاحها على فضاءات التمازج الإنساني والحضاري، وما مثَّلته السينما الهندية من متنفَّس حياتي لأهل المدينة، أفاد في الكثير من تموجات الحياة وتنويعاتها، ليستمر في التحليق في هذه العناصر الرافدة لثقافة أهل الحي وما تسرّب من عائلات تمتّ بصلة جذور إلى الأرض الحضرمية وامتدادها الهنّدي، ليدلف إلى ألوان الأطعمة وأنواعها، وما أفرزته الهجرة الحضرمية القديمة إلى تلك الديار وما تسببت به من تماهٍ في الملبس والعمران.

> **عنوان الكتاب (أوراق مكلاوية) يظهر هويّة الكاتب وجذوره وانتماءه، في حين ينفتح على المدينة بوصفها فضاءً مكانيًا وزمانيًا لهذه الأوراق**

سمر ورؤى:

وفي السمر المكلاّوي (٢١٠ - ٢٦٠)، يظهر في هذه الصفحات، الكاتب - المحرّك للأحداث أو المشارك فيها أو المتفاعل معها، وقد تمدّدت في زمن الراهن الذي لم يزل يتشكّل وفق رؤى الرفاق أو زملاء الحرف والرحلة، ليجعل من (١٥) مقالاً، بدءاً من (قبيلة رؤساء التحرير) مروراً بـ(هموم ثقافيّة وهمّ مثقفين)، وانتهاء بـ(سمر بمعروف أو فراق بإحسان)، وقد جعل من هذه المقالات فضاء حيويًّا لإثارة الوعي وتعميق لغة الحوار وتكريس ثقافة الجدل بالتي هي أحسن.

ساردٌ حالم بحقيبة مؤرّخ:

إن الغوص في صفحات (أوراق مكلاّويّة) يضعك أمام سارد يتقن استخدام أدوات (الحكي)، ويدرك قيمة الأسلوب وجماليات فنّ الرواية والنصّ القصصي؛ لذا تجده يتنقل بضمير المخاطب، والغائب، والراوي، فتظهر (أناه) وتختفي، ويبدو متلقيًا لحكايات الجدّات، ونساء المدينة، ونماذج الرجال الطيبين، ولا ينفك يثير الأسئلة في



مواضع عدّة، كما أنه يتقن كثيراً - فلسفة النهايات المفتوحة، ينظر على سبيل المثال، نهاية (سكين القعيطين): (وهكذا عادت السكين (الغائبة) إلى مكانها وعدنا! ولكن هل عادت السكين (العائدة إلى القعيطيين؟)، وهي نهاية تنزاح إلى مظان جديدة، كانت حكاية المقال هي (الحيلة) التي أراد من خلالها إثارة سؤال الخاتمة.

وخذ كذلك، (مطلوب للشرطة) التي جعل نهايتها: (هل سيصمد هذا الانتصار؟؟؟ إن شعار الشرطة في خدمة الشعب سيظل شعاراً خاوياً وبلا جذور حتى يصدّق الناس أن الشرطة منهم وفيهم ولهم)، في (حيلة) أخرى تثير العديد من التساؤلات والرؤى والمواقف بين مكونات المجتمع وقراءة تلك المرحلة وما لها وما عليها؟

وفي (قشارة سانجي) يختمها بهذه النهاية (الأمنية) جلست بالقرب من سانجي بعد الصلاة، كان في حالة مرحة، وكان سهلاً أن أسأله عن اسمه ومهنته وحاله، ولكنني تردّدت وآثرت أن يكون السلام من بعيد كأول العهد، وتمنَّيت في أعماقي أن تعود قشارة سانجي، ويعود سانجي إلى قشارته، لنروي القصّة من بدايتها، ومن حيث بدأت...)، وهي خاتمة تضعك أمام رؤية للراوي (البطل) الذي يعلن رفضه لكلّ ما مسّ المدينة من تغيرّات وتبدّلات أثرت في ملامحها القارة في أعماق الجيل الستيني، فـ(قشارة سانجي) تحيلك إلى زمن الرومانسية والبراءة والعواطف الصافية في ذلك الزمن، وتغمز بطرف خفي إلى مقته واقع الحال وما أصاب المدينة من تشوُّهات في ملامحها وتمزُّقات في ضميرها النبيل.

ما بعد البداية:

لم تكن (أوراق مكلاّويّة) إلا بداية البداية لمخزون الذاكرة للكاتب والأستاذ المبدع الدكتور عبدالله الجعيدي، وكانت إعلانًا حقيقيًا عن مثقف امتلك ناصية الحرف وباتت الكلمة تنقاد له والجمل تتهادى في مخيلته؛ لتعلن

إن القارئ للأوراق يجد نفسه منساقًا مع راوٍ يصبح بطلًا في بعضها، وراويًا عليمًا بتفاصيل الحكاية في بعضها الآخر، وهو ما جعل للأوراق نكهة السيرة الذاتية التي تحاول أن تلملم شتات حياتها، متنقلةً بين الأوراق والحكايات بوعي عميق.

عن نفسها في مشروع رؤية حياتيّة لفيلسوف اتخذ من قراءة التاريخ مشكاة تنير الأزمنة التي رأى فيها نتوءات أو مساحات تحتاج إلى تفكيك وإعادة تركيب بما يتوافق ورؤيته الإنسانية المنبثقة عن تطلعات وطن يتضاءل ليصبح مدينته المكلاّ، ويتسع ليشمل الإنسانية جمعًا.

من هنا نرى أن الدكتور عبدالله يعمل على إتمام مشروع رؤيته لكلّ تلك المراحل التاريخية التي وقف عليها طفلاً وشابًا وشيبًا - قارئًا ومحللاً ومفسراً ومقرراً - ولكن من خلال النصّ الأدبي والسرد الحياتي الذي وجد أنه سيسعفه كثيراً في كسر رتابة كتب التاريخ المحكّمة وغير المحكّمة، ويوسّع من دائرة قُرّائه الذين تستهويهم هذه المقاربات لذكريات الماضي، وقضايا الحاضر ومشكلاته، وأماني المستقبل ونبوءاته، لذا رأى في الوسائل القادمة من عالم السرد ما يثير السواكن ويبدّد الملل ويبعث على المتابعة والتأمّل والغوص والفهم، وهو ما نجح فيه بعمق وقوة، فكانت مجموعته الثانية (عابر سبيل) تشير إلى هذه الرغبات المكبوتة في صدر الكاتب الجميل عبدالله الجعيدي.



64
العدد (22)
أكتوبر
ديسمبر
2021م

تغريدات مشقاصية على "أوراق مكلاوية"





هاني عبود الغتنيني

ما إن يحط المرء فيها عصا ترحاله، وتختلف عليه نسمات ليلها البهي، وإشراقات نهارها الوضي، حتى تبدأ خلجات نفسه باحتضان ما تسرب إليها من نبضات روحها العتيقة، فما يشعر بعدها إلا وقد شغفته حبًّا، وانتظمته في سلك محبيها، وانتدبته في صفوف عشاقها ممن يهيم بتلك الفاتنة الجميلة.. المكلا.

أربع سنوات في رحابها، وبين أفياء جامعتها، كانت كفيلة -وأكثر- بغرس عشقها في نفس ألوفة محبة، تفيض وفاء وحنينًا، لكنها مع ذلك عصية على أنامل البوح الداعية بإشاراتها الملحة.

ذات يوم وأنا أريد أن أتطفل على الشعر بدفع حثيث من محسني الظن، وبمنسوب المحبة الطافح دائماً لدى أبناء قريتنا العزيزة سرار، لأكتب فيها:

حط الرحال وحيي عتبة الدارِ
هذي المنازل نبض في دمي جارِ
البحر يحضنها شوقًا ويلثمها
والسحر في فمها أنغام أوتارِ
والشامخات تبيت الليل حانية
حنوَّ أمٍّ رعت أجفان سمّارِ
وبينهن سواد العين وادعة
والنور يغمرها من بدرها الساري
فما أرى إلا سرار العز تشبهها
نفسي فداها وأشواقي وأشعاري

تعالت الأصوات مدهوشة من على جانبيّ.. هذه المكلا، لقد اندفع السياق في ذكر الوصف فتأخر الموصوف، وتدخلت كلمة (تشبهها) للفت الأذهان إلى أن هناك موصوفًا آخر غير سرار، التي اتسقت في الصورة النمطية



مع حاضرة البحر والجبل، بعد إزاحة صغيرة للجبال؛ لتكون حانية عليها، وصورة خلفية لها.

وعند الحديث عن محبة الأوطان، والمدن، والبلدان، لا بد أن أسجل إقرارًا واعترافًا لذات روائح التأريخ، عاصمة اللبان والبخور، أرض (بامطرف) و(الباغ)، والمحضار، والملاحي، وقصور السلاطين، الشحر الجميلة بروح أهلها، وأريج حضارتها. وكثيرة هي البلدان الجميلة بأرضها، وإنسانها، ولكن كما يقولون عندنا: (لي ما يعرفك ما يثمنك).

هذه (الأوراق المكلاوية) تبعث على التغريد، وتثير بلابل الشجون، فتطير مغردة على أفنانها النضرة، المتمايلة طربًا وبهجة، هي أوراق كتبت بخيوط المحبة الكامنة في وجدان مؤلفها، إذ هي محركه الأول، وباعثه المستحث لصياغة عشقه لموطنه المكلا، وحنينه لماضيها المنصرم، بما فيه من شخوص وذكريات، صياغة أدبية محكمة، إنها روح الزمان والمكان، لماضٍ تليد أعاد الكاتب إحياءه من جديد، في أوراق خالدة، خضراء، تحكي للأجيال حكاية مدينة اسمها المكلا، المكلا بكل ما ارتبط بها، حتى لو تشعب الحديث إلى خارج حدودها الجغرافية فإنه يظل متصلا بها بوجه ما، ولو بنَفَس المؤلف المكلاوي الرقيق العميق.

إننا نتحدث عن كتاب (أوراق مكلاوية) الذي آلف بين أغصانه، وأبوابه، الأستاذ الدكتور عبدالله سعيد الجعيدي، الكاتب الأديب، والمؤرخ المتخصص؛ إذْ كتب بقلم الأول، وبأسلوب بارع وطريف، مع تدخلات ملحوظة لقلم الآخر، بنفثات سطرت بعض القضايا التاريخية، في يوميات مكلاوية كتب لها أن تروى، وتبقى قائمة على جذورها.

يشتمل الكتاب ثماني وستين ورقة، نديَّة، ملوَّنة، تعبق مكلاويةً، وقدَّم له الدكتور سعيد الجريري مقدمة تحتفي به، ومما قاله: (الكتاب بأقسامه السبعة معرض مكلاوي



أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي

وليس أوراقًا، فهو أشبه بمتحف من الكلمات، له سبعة أبواب، كل باب يمنحك دهشة مختلفة وطرافة موصولتين بالمكلا دهشة وطرافة).

ومما لفتني في توطئة أ. د. الجعيدي، واستوقف انتباهي، تأكيده على أن هذه الأوراق لم تكن لتبلغ مستقرَّها في كتاب (لولا أمور كثيرة دفعتها إلى هذا السبيل دفعًا)، وأنها كانت (نداءات داخلية) يدافعها وهو في أعماق قاعات دراسة التأريخ وتدريسه، (ثم ما لبثت هذه النداءات أن تحوَّلتْ إلى هتافات متقطعة)، ثمَّ شقَّتْ طريقَها عبر صفحات شبام وآفاق حضرموت، وحسنا فعلت إذ أمدتنا بنتاج ثقافي غزير، هذه النداءات التي كبرت تحيلنا إلى التردد والقنوط الذي يستولي على مخيلة الكاتب والمبدع في المشقاص، والمقيد بسياج من التصورات الراسخة في المجتمع، إضافة إلى الوضع العام الذي تعيشه بلادنا، مما أدى إلى وأد الكتابة الأدبية في نفوس كثير من الكتاب، فعزفوا عن الإبحار في هذا الاتجاه الذي ينظر إلى المهتمين بشأنه بأنهم (ما معهم مهرة)، أو هربًا من وصمة (بغا نفسه





متعلم، بغا نفسه مثقف) إلى فضاءات التخلف والجهل، ولو لا ذاك لكانت عندنا أوراق مشقاصية مليئة بالمواقف والذكريات والموروث والطرائف، ولكن حالت دون ذلك وغيره النظرة المجتمعية الشبيهة بتلك التي تحدث عنها المؤلف في سياق حديثه عن التعليم في ماضي المكلا، والمتعلقة بتعليم الفتاة كفكرة مستغربة، وغير مألوفة، حتى (ابتعدت كثير من الفتيات من (فضيحة) التعليم إلى (شرف) الأمية!!!)، وهي نظرة غير واعية، ولا مميزة بين ما يتماشى مع تعاليم ديننا، وبين ما يخالفها، ويتناقض معها.

لقد تشعبت الأوراق المكلاوية، وألقت بظلالها على الأوضاع المعيشة في فترات زمنية مختلفة، تمتد من سبعينيات القرن العشرين مع أيام الطفولة عند ساحات قصر القعيطي، وهي أول ورقة تصادفنا، وقد استهلت (سبعينيات القرن الماضي، قصر القعيطي خالٍ من القعيطيين، راية الحكم الثوري ترفرف... في زوايا متفرقة منه...)، وتتداخل الأوراق بعد ذلك زمانًا ومكانًا حتى يشرف بعضها من على أسوار الألفين، ونقف في الباب السابع والأخير (سمر مكلاوي) مع قضايا ثقافية وأحاديث أسمار استقطعها الدكتور عبدالله الجعيدي من ليالي سمر مع ثلة من الأساتذة الأصدقاء أمثال باعيسى والفردي وبلخشر والجريري وسالم العبد...، فجاءت هذه الأوراق الجميلة بين دفتَي (ذاكرة الزمان والمكان) و(سمر مكلاوي)، بين أيام الطفولة وليالي السمر المباح للكبار في العرف التقليدي الحضرمي، وبين هاتين المرحلتين تهمس الأوراق المكلاوية بأحاديث كثيرة، وإن كان بعضها يمثل ذكريات شخصية، إلا أنها تختزن ذكريات جيل، وذاكرة مدينة، تعنى فيها الشخصية في كل مراحلها بما يدور حولها، راصدة بأدق التفاصيل، وبأسلوب قصصي سلس، الحياة اليومية اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا وعادات وتقاليد؛ إذْ تأخذك هذه الأوراق المكلاوية - بعد أن توثق إسارك بروعة أسلوبها وجمال عباراتها - وربما في مقالة واحدة تطل بك من مشهد إلى آخر، وكأنها تطوف شوارع المكلا شارعًا شارعًا، متغلغلة في أزقتها، تتبّع حكايات أعماقها، وأسرارها المخفية عن كثير من عشاقها ومحبيها، فترويها لنا وهي تدلف من حارة إلى أخرى مرورًا بـ(مطراق صل على النبي) وما أدراك ما مطراق صلِّ عالنبي، الذي يعكس قيم وشيم الحضرمي في صبغته المكلاوية، ولذا استحق أن تفرد له ورقة مستقلة.

امتاز كتاب أوراق مكلاوية بالفائدة الممتعة، والمتعة المفيدة كما يقال، وهي عبارة تصدق عليه حرفيًا؛ إذْ صيغ بأسلوب يتكئ على الطرافة، ويقتبس مرحًا من نفس مكلاوي رقيق، وربما شيئًا من سهام النقد الساخرة، والموجهة عن بعد بطريقة حضرمية معهودة.

ففي أثناء تلك الأوراق تلقاك اللمحات السياسية والتاريخية التي توثق جوانب مهمة لفترات زمنية مختلفة، عاصرت المكلا والوطن جميعًا خلالها أنماطًا من الحكم متباينة، فيقول مثلاً تحت عنوان وللكويت كلمة وفاء: (لم تنخدع الكويت بلعبة السياسة وأوراقها المتناقضة ودهاليزها الغامضة، وكانت تدرك كل الإدراك أن السياسة شيء والعمل العروبي الأخوي شيء آخر، كانت مع أهلنا في الجنوب ومع أهلنا في الشمال ومع أهلنا في كل أرجاء العروبة...) (وبينما سيارة العربي الشقيق [سيارة مكتب دولة الكويت التي تشرف على مشاريعها] تجوب شوارع المكلا كانت لوحة... مكتوب عليها الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج العربي ومع هذا مضى الكويتيون في البناء...) وهذه شهادة وفاء للكويت التي لم تزل على دربها المستنير سائرة، في حين ينفق بعض الأشقاء



ميزانياتهم الهائلة للإضرار بأمن أشقائهم واستقرارهم وزيادة آلامهم، ونجد الدكتور الجعيدي يطرق هذا الموضوع في موضع آخر، ثم يقول بلسان المؤرخ المنصف: (نحن لا نرمي هؤلاء الثوار بالسذاجة أو نشكك في وطنيتهم فالمنهج السليم يعلّمنا النظر إلى ملابسات أحداث التاريخ حسب عصرها).

وفي الجانب التاريخي نقرأ حكايات مهجرية في الباب الرابع الذي تناول بعض قصص المهجر وشيئًا من عجائب الأسفار الحضرمية، وهناك تاريخ نشوء بعض العادات والمناسبات كالختائم، وتاريخ العمارة والبناء كالبنقلة، أما الجانب الاجتماعي فيشكل العمود الفقري لهذه الأوراق، ويمتد في كل منعطفات هذه المقالات، وتتبدّى فيه هموم المجتمع الحضرمي وتطلعاته، وكفاحه في الحياة، وسير بعض شخصياته وأعلامه وفي سيرة المؤلف نفسه وسعيه الحثيث نحو هدفه، وتجاوزه العراقيل التي كادت تبعده عن طموحاته فنراه يقول: (ما يزيد الأمور سوءاً متطلبات دراستي للماجستير ... وكان راتب المعلم يزداد عدداً ويتناقص كيفًا ... في هذا الوضع الممتلئ باليأس والمحبط للأمل جلس بجانبي طالب من طلابي اقتنص فراغ الكرسي ...)، أنت يا أستاذ نزعت مني شيئًا وغرست فيّ شيئًا! وبعد أن سرد له قصة ضبطه متلبِّسًا بواقعة غش ووزّع عليه ورقته مدبسة مع ورق الغش قال: إنه جعله يخجل من نفسه، ونزع من داخله الرغبة المستقبلية في الغش، وصار دائماً مستعداً، ولا يترك للصدفة مجالاً في دارسته، ثم يكمل بعد سؤاله عن الشيء الذي غرسه في نفسه: وأما الشيء الذي غرسته في نفسي فهو الرغبة الجامحة في القراءة، فقد حبّبت إلينا عادة القراءة المفيدة ...

فقلت الحمد والشكر لله.

لم يدرِ هذا الطالب الوفي كم نزعَ من نفسي من همٍّ وغرس فيَّ من أملٍ ... كنت بحاجة إليه ... إنَّ ما ننزعه من يأس في حياتنا وما نغرسه من أمل يجعل الحياة لها معنى).

وهذا فيه رسالة واضحة المعالم لطالب العلم وكل ذي هدف سامٍ، أنه بالإصرار تنال الآمال.

وهناك مسحة دينية ظاهرة، تلمع في كل مناسبة تدعو إلى التمسك بمبادئ الإسلام وتعاليمه، وتتجلّى في مظاهر كثيرة كالسجع الذي يشبه سجع الأوراد والخطب والاقتباس من القرآن أو الإشارات القرآنية، وهو أسلوب درج عليه المؤلف في كتاباته، ويعلو هذا الصوت الديني حتى يصل إلى الوعظ والتذكير المباشر، وهو بادرة جميلة في الكتابة الصحفية والأدبية يتحاشاها الكثيرون، وهناك باب خاص بعنوان (رمضانيات) تعبق فيه روحانية الشهر الكريم، ويوثّق بعض العادات الرمضانية الجميلة في الزمن الغابر.

وإن ننسَ فلن ننسى بعض العناوين اللافتة ذات الإيحاءات المتعددة مثل (الشحر في بغداد الطبيب والمداوي) و(عندما سيطر الحضارم على البترول) و(الغاضبون في رمضان) (من قتل جارنا) و(قبيلة رؤساء التحرير) و(عشاء رياضي سيئوني) الذي وثق فيه - كما دونها في مذكرته الخاصة حينها - بعض ألفاظ المشجعين لفريقي شبام وسيئون (اقه عشاك) و(كبده) و(عكنه) ... في سابقة مفاجئة للشخصية الحضرمية تحت وطأة حماسة الكرة الساحرة، التي بلغ من سحرها أن أخرجت الحضرمي من سكونه ولينه..

لقد أبدع الدكتور عبدالله الجعيدي في الكتاب أيّما إبداع، فهو بحق ليس مجرد أوراق، بل مدرسة تعلم الأجيال بمختلف مراحلها العمرية، كتاب يستحق الثناء والإعجاب، ويستحق أن نهنئ المكتبة الحضرمية بوجوده على رفوفها.



حبر التعليم في (أوراق مكلاوية) للجعيدي

أوراق الجعيدي المكلاوية حديقة يانعة وارفة الظلال.. قد تنوع ثمرها بين متشابه وغير متشابه.. ودنا من قطافه.. في الأوراق تجد الطرفة والحكاية والمثل.. تجد السيرة والقصة.. تجد البحر والجبل.. تجد الهجرة والحل والترحال.. تجد التاريخ والجغرافيا والاجتماع.. تجد السياسة والاقتصاد والدين.. تجد الفن والرياضة والسمر.. تجد القصور والمساجد والمآذن والقباب.. إنها أوراق تلونت بكل ألوان الطيف.. وتناثرت خيوطها بشتى أنواع الهموم والقضايا.. وحسبي -في الأسطر القادمة- أن أمسك خيطًا من تلك الخيوط.. إنه خيط التعليم.. حيث يشكل التعليم ملمحًا بارزًا في أسطر أوراق الجعيدي المكلاوية.. ومن ملامح ذلك التشكل ما نجده في حديثه عن حياته (العلمية والتعليمية) بشتى مراحلها.. بحيث تشكل شبه سيرة ذاتية.. لهذا حاولت نظم شتاتها في عقد واحد.. وأعدت ترتيب أسطرها حتى تتراءى سيرته مسلسلة -بكل نجاحاتها وانكساراتها- مذ كان تلميذًا غضًا حتى استوى أستاذًا جامعيًا.. إضافة إلى قضايا أخرى مرتبطة بحقل التعليم والعملية التربوية..



أنور سالم باكركر

لقد انبث التعليم في أوراق الدكتور الجعيدي عند ذكره لأساتذته ومعلميه في شتى مراحله، وهو نوع من الوفاء الذي تحلى به الدكتور يقول: «لقد حافظت على علاقة طيبة مع الكثير من أساتذتي في مراحل التعليم المختلفة، وأكن لهم الاحترام والتقدير، وزاد إدراكي لأهمية ذلك عندما صرت معلماً... فكم هي مهنة التعليم شاقة ومتعبة؟!»، (ص١١٥).

وقد قسمت هذا العرض على عنوانين رئيسين: الأول: التعليم في مسيرة الدكتور الجعيدي، وتحته عناوين: (مرحلة التعليم الابتدائي)، (مرحلة التعليم الثانوي)، (مرحلة التعليم الجامعي)، (مرحلة العمل معلماً)، (مرحلة الدراسة العليا)، الثاني: متفرقات: وتحته (المنهج)، (المسيرة التعليمية لبعض الشخصيات)، (شخصيات تربوية).

الأول: التعليم في مسيرة الدكتور الجعيدي:

- مرحلة التعليم الابتدائي:

نترك الدكتور الجعيدي يحدثنا عن شيء من بدايات دراسته منذ كان تلميذاً في المرحلة الابتدائية حيث يقول: «في بداية سبعينيات القرن الماضي كنت طالبًا بمدرسة الحرية الابتدائية للبنين بالمكلا، في الصف الثاني الابتدائي، وكان الأستاذ مدرك معلماً للغة العربية، وإن نسيت الكثير من ذكريات هذه المرحلة فلن أنسى حصة الإملاء الغيبي وتفاعلاتها وتداعياتها وغصاتها!!» (ص١١٥ - ١١٦)، ومن تلك التداعيات والغصات في درس الإملاء الغيبي أنه -كما يقول-: «في إحدى الحصص جلب أستاذنا بنفسه الكراسات، وكانت مفروزة مجموعتين غير متساويتين، وقبل توزيعها أخذ يحدثنا كمن نفد صبره وطال به الأمد أو هكذا يخيل إلينا... كان معظم التلاميذ قد أخفقوا في



اختبار الإملاء وكنت منهم، وطلب أستاذنا من (الفاشلين) عدم مغادرة الصف بعد نهاية الدوام، .... ها هم تلاميذ المدرسة ينصرفون، وكان علينا انتظار أمر بالطبع غير سار... » (ص١١٦ - ١١٧)، لتبدأ بعدها طريقته في تحفيزهم على الاجتهاد في مسرحية لم تظهر لهم حقيقتها حينها، ليصل بها إلى المقصد الذي يريده، وذلك بأخذ تعهد جماعي منهم على الاجتهاد، ثم أطلق بعد ذلك سراحهم.

ونجده أيضًا يوثق لحظة إكمال يوم دراسي وهي لحظة الانصراف (الديار) بقوله: «دق جرس السراح معلنًا نهاية اليوم الدراسي في مدرسة الحرية الابتدائية بالمكلا، وتأهب الجميع للمغادرة، وهي لحظة وصفها وصفًا جميلاً الشاعر أحمد شوقي بقوله:

لهم جرس مطرب في السراح   وليس إذا اجد بالمطرب

.... نحاول استكمال كتابة درس العلوم للصف الرابع الابتدائي، كانت المدرسة تعج بحركة السراح "الديار" وتدفع إلى الاستعجال بالكتابة بغض النظر عن جودة الخط..... ». (ص٤٧).

- مرحلة التعليم الثانوي:

جاء ذكر مرحلة الثانوية في أوراقه مقتضبًا، وذلك عند حديثه عن تربوي عصره الأستاذ القدير عبداللاه هاشم السقاف يقول: «عندما كنت طالبًا في ثانوية المكلا للبنين كان الأستاذ القدير نائبًا للمدير للفترة المسائية، وقد تتلمذت على يده من خلال تطوعه في تغطية حصص المدرسين الغائبين». (ص٤٠).

- مرحلة التعليم الجامعي:

ورد حديثه عن المرحلة الجامعية (مرحلة البكالوريوس)، كذلك مقتضبًا عند ذكره لأول لقاء بالأستاذ المؤرخ عبدالرحمن عبدالكريم الملاحي يقول: «أول مشاهدة مباشرة فكانت سنة ١٩٨٩م في كلية التربية بالمكلا (جامعة عدن) عندما حضر مشاركًا في ندوة (المقاومة الشعبية في حضرموت)(١)، وكنت حينئذ طالبًا في المستوى الرابع تخصص تاريخ»، (ص١٠٨). وفي هذه الإشارة تحددت لنا السنة الأخيرة من مرحلة الدراسة الجامعية، وكذا نوع التخصص.

- مرحلة العمل معلمًا:

بعد إكماله للمرحلة الجامعية تقدم للوظيفة، وكان غالبًا ما يرتب الموظفون الجدد خارج مناطقهم، وتسمى (النُّقْلة)؛ لهذا نجده يصف أحداث ترتيب نقلته الأولى بقوله: «كانت مفارقة مريرة في حياتي عندما ذهبت إلى عدن بعد تخرجي من الجامعة (البكالوريوس)، فكان لا بد من تسلم شهادة التفوق العلمي في يوم العلم ١٠ سبتمبر ١٩٨٩م، وفي الوقت نفسه كان لا بد أن أشد الرحال إلى محافظة أبين مدرسًا لمادة التاريخ في مدارسها حسب النقلة الوزارية»، (ص٢٢٣)، ويعلق بأحرف من الأسى قائلاً: «دائماً في دول التخلف يتحول المتفوقون غير أصحاب الحظوة إلى أرقام في عالم النسيان والبهتان، وأسميت هذه السفرة في سري (تكريم وتركين)». (ص٢٢٣).

بعد توجهه إلى أبين سعى لتحويل نقلته إلى حضرموت يقول: «سبقني زميل شحري إلى مكتب التربية بأبين، أخبرني أنه من أيام يحاول أن يبحث عن مخرج ليعود مدرسًا في حضرموت، وبعد المقابلة السريعة بحضور الشحري كنت أحمل أوراق التحويل إلى الوزارة ومنها إلى حضرموت»، (ص٢٢٤)، إلى أين كانت نقلته في حضرموت يا ترى اسمعه يقول: «وهكذا دفعتني المقادير من سهول أبين الخضراء، إلى مرتفعات حجر (الحمراء)»، (ص٢٢٤)، ولنقلته إلى حجر حكاية قصها في مقاله عن الأستاذ علي البيتي عندما كان مديراً لمكتب التربية بحجر، يقول: «عندما قدمت أوراقي للمسئول في التعليم الثانوي بالمكلا عاملني الموظف المختص بعناية لافتة؛ إذ وجد في شخصي ضالته المنشودة، فقد كان يبحث لثانوية الزبيري بالجول (مديرية حجر) عن مدرس لمادة التاريخ». (ص١١١)، ولأن «نقلة المعلمين إلى حجر بمثابة عقوبة تأديبية... كان





رفضي الأولي متوقعًا»، (ص١١١)، لكن وجدت هناك بعض الإغراءات جعلته يقبل بهذه النقلة وسماها (مصيدة): و«كان وراء (مصيدة) الإغراءات هو الأستاذ الفاضل المرحوم علي عبدالله البيتي مؤسس التعليم الثانوي في مديرية حجر»، (ص١١٢). تطوى صفحة.. الجعيدي في حجر في حضرة البيتي صاحب (المصيدة) يقول: «في (مدينة) الجول عاصمة المديرية التقيت بأستاذنا القدير، وكان أول حوار مباشر بيني وبينه، كان الحوار سهلاً ومفيداً ومشجعًا»، (ص١١٢).

لقد تعرض للإجحاف حيث يجب أن يكون مكانه في الجامعة (معيدًا)، يقول: «كانت تنتابني مشاعر الألم، عندما أرى أن ما أظنه حقي في العمل في الجامعة تقل فرصته لأسباب تتعلق بغياب (العدالة)، ولكن الإحساس بالفشل الداخلي لم يعترِ عقلي الحزين البتة»، ويتابع حديثه بقوله: «لقد اجتهدت قدر طاقتي، وفعلت أقصى ما أستطيع ولم أتنازل على حساب المبدأ، كنت راضيًا عن نفسي»، (ص٢٢٤).

ومن الإشارات التي تحمل دلالات تلك المرحلة حديثه عن موقف جمعه مع أحد طلابه في إحدى الحافلات (الباصات)، وذلك في صيف ١٩٩٧م يقول: «جلس بجانبي طالب من طلابي اقتنص فراغ الكرسي الذي بجانبي وعلى الفور سلم علي ومد يده للمصافحة فاعتدلت وصافحته. ثم سألني السؤال التقليدي الذي يسأله عادة طلابنا هل عرفتني؟ وغالبًا ما تكون الإجابة عرفتك ولكنني لا أتذكر اسمك». (ص٤٥). ويقول: «ولأنني فعلاً تذكرت شكله أردت أن أثبت ذلك له، فقلت: نعم لقد درستك في ثانوية بن شهاب للبنين بالمكلا الصف الأول»، (ص٤٥)، ثم ذكر الحوار الذي دار بينهما حين قال الطالب: «أنت يا أستاذ "نزعت مني شيئًا وغرست فيَّ شيئًا!"»، (ص٤٥)، بعد طرح الطالب تلك العبارة بادره بالسؤال كيف؟

وكانت الإجابة: «قبل خمس سنين كنت مدرسًا لمادة التاريخ في ثانوية المكلا، وفي أول اختبار شهري ضبطتني مع عدد من الطلاب نغش بورق صغيرة أخذتها بهدوء، ثم بعد توزيع الأوراق سلمت الطلبة الغشاشين أوراقهم مدبسًا معها ورقة الغش (الدليل)، وفي أعلى الورقة مكتوب باللغة الإنجليزية zero. قلت: نعم، هذه عادة لا زلت قائماً عليها، وأنبه وأحذر الطلاب قبل يوم الاختبار». (ص٤٥). ثم واصل الطالب حديثه بقوله: «بعد تلك الحادثة (الخزوة) جعلتني أخجل من نفسي ونزعت من داخلي الرغبة المستقبلية في الغش وصرت دائماً مستعداً، ولا أترك للصدفة مجالاً في دراستي، فقلت له: الحمد والشكر لله»، (ص٤٥).

ثم سأله عن الشيء الذي غرسه فيه (التحلية)، فأجاب الطالب بقوله: «أما ما غرسته في نفسي فهو الرغبة الجامحة للقراءة، فقد حببت إلينا عادة القراءة المفيدة، ولا زلت أتذكر كلامك أن القراءة ليست حشر مجموعة من المعلومات، بل تنشيط العقل والفكر، وتنمية القدرة على الفهم والتعبير، وتكوين الأفق الواسع للنظرة للحياة ومشكلاتها. فقد كنت تكلفنا باختيار ما نراه مناسبًا من أبحاث تاريخية تدور بشكل أو بآخر حول المنهاج، ومن هنا بدأت تتأصل لديَّ عادة القراءة وشراء الكتب والمجلات.... مرة أخرى، قلت: الحمد والشكر لله». (ص٤٦). فذاك درس عملي -سطره يراع الدكتور الجعيدي- لمربي الأجيال أن تكون لهم بصماتهم الواضحة في تقويم سلوك طلابهم، ورفعهم إلى مستوى أفضل.

- مرحلة الدراسة العليا:

أولًا: مرحلة الماجستير:

تحدث عن كيف ساقته الأقدار إلى الالتحاق بمساق الماجستير في جامعة عدن يقول: «بعد أربع سنوات معلماً في ثانويات حجر والمكلا، أعلن تلفزيون الجمهورية اليمنية من عدن فتح باب التسجيل للدراسات العليا قسم التاريخ..... صباح اليوم التالي كانت رسالة طلب الترشيح

للدراسة في مكتب نائب مدير المكتب بالمحافظة لانشغال المدير.... وهبت رياح وكادت الورقة أن تجتث من جذورها أو هكذا كنت أرى وأشعر ولكنها بعناية الله ذهبت إلى قدرها المكتوب في اللوح المعلوم، وأصبحت طالبًا في السنة التمهيدية لبرنامج الماجستير جامعة عدن»، (ص٢٢٤).

ومن العجائب أن مرحلة الماجستير في مسيرة الدكتور الجعيدي قد ارتبطت بشخصيتين عربيتين جمعت بينهما الكثير من الموافقات، والمفارقات، والمفاجآت، والإسقاطات، وحين تقرأ ذلك تشعر بالدهشة والنشوة، تلكم الشخصيتان هما الدكتور (الفلسطيني) محمد عبدالكريم عكاشة، والدكتور (السوداني) محمد سعيد القدال.. ففي مقاله (عكاشة.. الحنين إلى المكلا) يحدثنا عن مشهد المقابلة الشخصية في رحاب جامعة عدن، حيث كان الدكتور عكاشة حينها أحد أعضاء اللجنة، يقول: «شاء الله أن أمثل بين يديه عندما كان ضمن لجنة اختيار طلبة الماجستير الجدد في جامعة عدن، فقد قذفت بي المقادير ورغبتي الجامحة لاستكمال الدراسة إلى عدن، ولم تسعفني خبرتي اليسيرة أن أدرك تفاصيل لازمة مثل التخصص التاريخي الدقيق المراد من الدراسة (قديم/ وسيط/ حديث)؛ لهذا لم أعط أعضاء اللجنة جوابًا شافيًا، ولكن صديق المكلا لم يفقد الأمل، فعندما تكون إجابتي موفقة في التاريخ الحديث يهلل ويؤكد أن معلوماتي في التاريخ الحديث (تخصصه) أقوى وأفضل، وكان لا بد أن يمضي زمن لأعرف الأهداف (النبيلة) البعيدة» (ص١٠٥).

ولم ينس الدكتور الجعيدي أن يذكر شيئًا من طرائف تلك المقابلة يقول: «والظريف في المقابلة عندما ذكرت عنوان كتابه استبدلت اسم والده عبدالكريم بأسامة، فانفجر بالضحك وعلّق: (أنت غاوي مسلسلات)، وهكذا زج بي عكاشة في المربع الذي يريده» (ص١٠٥).

واستمرت العلاقة بينهما وتجذرت، وأخذ يستشيره في المواضيع التي يرغب في تسجليها للماجستير يقول: «حدثته مرة عن بعض المشاريع التي أفكر في تسجيلها لرسالة الماجستير كان يتابع بإنصات»، ثم «أفصح في هذه المناسبة عما يضمره وقال مباشرة: إن موضوعك للماجستير والدكتوراه إن شاء الله موجود ومتاح، ففي الماجستير بإمكانك أن تكمل ما انتهيت إليه (هو)(٢) حتى الحرب العالمية الثانية، وتستكمل في الدكتوراه الحديث إلى الاستقلال الوطني ١٩٦٧م، حينذاك تذكرت بقوة مقابلة القبول الأولى» (ص١٠٥).

ويمضي الدكتور الجعيدي في سرد حيثيات اختيار عنوان رسالته يقول: «بعد أن استكملنا السنة التمهيدية لم أعمل بنصيحة أستاذي عكاشة في أول الأمر لأسباب خارجة عن إرادتي ولا داعي لذكرها هنا، ومرت بضعة أشهر دون أن أحدد موضوع الرسالة». (ص١٠٥ - ١٠٦)، ولكن حدثت المفاجأة؛ إنه وجهًا لوجه مع عكاشة في المكلا، وبعد إفراغ حرارة اللقاء -جلسا في المقهى المقابل لقبة (المحجوب)- و«دار نقاش خطير في حياتي ومستقبلي، كان الأستاذ يعرف كل مصاعبي ويتفهمها وكان يقول: إنه مدرك لإمكانياتي ثم زف لي بشرى وصول وثائق يمنية من الأرشيف البريطاني في ستة عشر مجلدًا، وأخبرني أنها ستجعل من فكرته لمشروع الماجستير أكثر أصالة وواقعية وستبدد مخاوف لطالما أفصحت له عنها....... وقال الكثير المشجع» (ص١٠٦).

وعن كتابة خطة البحث يقول: «صديق المكلا مغادرها الساعة العاشرة صباحًا، كان أمامي عمل طويل ووقت قصير حتى أفرغ من كتابة ملخص البحث بمصادره وأهميته وخطته الأولية حسب الموضوع القديم الذي اختاره أستاذي، وقبل تبييضه كان لا بد من أن يطلع عليه في مكان إقامته حسب اتفاق (المحجوب)» (ص١٠٦).

ثم يمعن في التفاصيل كعادته في التقاط الخيوط الدقيقة مما نظنه هامشيًا «في الساعة الحادية عشرة والنصف مساء كانت المسودة جاهزة، وبعد إجراء بعض التعديلات



عدت إلى البيت أسابق الزمن... قبل أن يغادر عكاشه مكلاه كانت الأوراق جاهزة» (ص١٠٦).

انتهى مشهد المكلا، ليبدأ مشهد عدن يقول: «من عدن أخبرني أن الموضوع سجل، وهو المشرف حسب اتفاقنا، وقلت في صدري على بركة الله» (ص١٠٦).

لكن هل بقي عكاشة مشرفًا؟ «شاء الله أن يعود عكاشة إلى غزة الفلسطينية شبه المحررة، ومضت سنون ولم يعد المشرف على رسالتي، ويوم المناقشة تفاجأت بحضوره في القاعة، فقد جاء إلى عدن لمشاغل خاصة، كان اللقاء حميميًا، ولكنه مشحون بالتساؤلات الصامتة؟؟؟» (ص١٠٦-١٠٧).

بعد دهشة عكاشة ونشوته ندلف إلى دهشة القدال ونشوته أيضًا يقول الجعيدي -بعيداً عن إسقاطاته في الجمع بين حاضر الابن وماضي الأب-: «من دون موعد سابق دخل رجل قاعة الدرس لطلاب الماجستير في التاريخ كلية الآداب بجامعة عدن، كان طويل القامة، ممتلئ الجسم إلى إفراط، تماشت خطواته الأولى مع ابتسامة شبه مقيمة مرسومة بين شفتيه، ولكنها ابتسامة العالم الجاد، إنه الأستاذ الدكتور محمد سعيد القدال» (ص١٢١). بعد ذلك المدخل التشويقي يحدثنا الجعيدي عن محاضراته يقول: «وبمهنية الأكاديميين ومثاليتهم حاول واجتهد القدال في تقديم عصارة خبرته البحثية والمعرفية. كانت المحاضرات مفتوحة على مصراعيها وفيها من روح المحاورة أكثر من كلاسيكية المحاضرة»، فـ«القدال يقدم بضاعته بأسلوب سلس جميل، وكلمات معبرة، وألفاظ دالة، وبلهجة لذيذة» (ص١٢٢).

انتدب الدكتور القدال للتدريس في كلية التربية بالمكلا، يقول الجعيدي: «كنت عندئذ مسجلاً رسالتي للماجستير، وقد كانت سعادتي غامرة بقدومه إلى المكلا»، (ص١٢٣)، ثم سعى للتواصل معه فقد ذابت الحواجز بينهما وصارا في (هم البحث تاريخ) كما يقول، ولنتركه يحدثنا عن ذلك: «الصداقة العلمية تعززت في قاعات الدرس في عدن ومكتباتها، وتحولت في المكلا إلى حميمية عندما تجردت من رسمياتها المقيدة إلى شراكة وتعاون علمي، فكلانا في هم البحث تاريخ» (ص١٢٣)؛ لأن القدال في ذلك الوقت كان يعد كتابه عن أبيه (الشيخ القدال باشا معلم سوداني في حضرموت)(٣) فهنا توطدت الشراكة يقول: «حصلت منه على آلية كتابة المعلومة التاريخية، ومن خلالي عرف بعض مواطن هذه المعلومات، وأحيانًا يكون القدال مصدر المعلومات عندما تتوافر له بعض المصادر التي لم أستطع الوصول إليها أو العثور عليها» (ص١٢٣).

ويذكر تفاني الدكتور القدال في الوقوف معه لإنجاز البحث يقول: «كانت لقاءاتي بالقدال في مدينة المكلا بمعرفة وتشجيع أستاذي المشرف الدكتور أحمد بن بريك، وكان القدال بمثابة المشرف المساعد، ولكنه في الواقع أسهم بفعالية المشرف الحقيقي من خلال قراءته فصول الرسالة كلها وكتابة ملاحظاته»، لكن الأجمل والأهم كما يقول: «إن أستاذنا القدال كان يفعل ذلك تطوعًا، ولم يدر في خلدي ولا في خلده أن ذلك ربما يتطلب حقوقًا مادية من الجامعة» بل «الأغرب من ذلك أنني عندما أتأخر في الاتصال به حياء وشفقة كان يتصل معاتبًا!!» (ص١٢٣).

وبعد عودة القدال إلى عدن ظل الاتصال بينهما مستمراً، وفي إحدى رحلات الجعيدي البحثية إلى عدن تحدث عن تفاني القدال في خدمته حيث يقول: «تفاجأت مرة عندما سألني عن خطة تحركي لبحثي الجمعي للمادة في عدن، فقلت له: إني ذاهب لمركز البحوث التابع للجامعة للاطلاع على تاريخ اليمن وما يخص بحثي في الموسوعة البريطانية (Records of Yemen)() فاتفقنا على تحديد موعد للذهاب معًا حتى يسهل مهمتي خاصة أنه يعرف أن إلمامي باللغة الإنجليزية يقارب في حينه مستوى الوسط... في المكتبة كنّا نتصفح معًا المجلدات، وكان (رحمه الله) تتدفق منه حماسة الشباب ويتجلى فيه إخلاص العالم وصبره، وتبرز مشاعر

الأبوة الصافية بلا ضجر ودون منّة، إنه مشهد لن أنساه». (ص١٢٤). ويواصل الحديث «استمرت الرعاية القدالية إلى مرحلة المناقشة وقبيلها، وكان الوسيط بيني وبين عمادة كلية الآداب وقسم التاريخ، واستلم بنفسه النسخ المعدّة للجنة المناقشة». (ص١٢٥).

لا زالت الرعاية القدالية مستمرة يقول: «وقد تم الاتفاق على تحديد موعد مناقشتي وزميلة أخرى في يوم واحد، وقد سمعت مصادفة هذه الزميلة تقول: إنها تريد تأخير يوم المناقشة إلى أيام قادمة، ولكن القدال أصر على التقديم شفقة عليَّ من كلفة الإقامة في عدن، كان الرجل يتحرك بصمت وإخلاص»، لكن المشهد الذي يستحق الوقوف هو «بعد المناقشة وعند احتضاني للقدال فقط بكيت». (ص١٢٥).

ومن أحداث السنة التحضيرية أيضًا ما جاء ذكره عند لقائه الثاني بالملاحي يقول: «كنت في ذلك الوقت طالب ماجستير في كلية الآداب جامعة عدن في السنة الأولى التحضيرية، وقد كلفت ضمن تكليفات أخرى من قبل الأستاذ الدكتور سيد مصطفى سالم تحقيق بضع أوراق لمخطوطة يختارها الطالب، وقد اخترت مخطوطة (تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر)(٥)..... وفي أثناء التحقيق واجهتني بعض المصاعب في تفنيد وتفسير بعض الأحداث التاريخية، وبعض الألفاظ العامية (الشحرية)، التي تعود إلى القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي». (ص١٠٨-١٠٩).

ووثق الجعيدي في أوراقه أيضًا تاريخ إنهائه السنة التحضيرية واختياره لبعض العناوين، يقول: «في أواخر سنة ١٩٩٤م أنهيت السنة التحضيرية لدراسة الماجستير، ولم أحسم بعد قراري في اختيار موضوع الرسالة، وكنت أميل قليلاً لتحقيق مخطوط (النفحات المسكية في تاريخ الشحر المحمية)(٦) لباحسن، وكان لزامًا عليَّ أن أشد الرحال للمرة الثانية إلى مكتبة المخطوطات بتريم؛ لأطلع عن قرب على النسخة الأصلية، وأنسخ بعض الأوراق لتقديمها مع مشروع البحث». (ص١٠٩). وأيضًا «كان لا بد من زيارة الشحر والملاحي للتشاور... وقد ذكرت لأستاذي خياراتي في تحديد موضوع الرسالة شارحًا وجهة نظري، ثم عقب على هذه الخيارات مبينًا أهميتها جميعًا، وبدبلوماسية الشحري تعمد أن يكون القرار النهائي نابعًا من قناعاتي، بعد ذلك غادر الغرفة لثوان وأحضر لي نسخة مصورة من مخطوطة النفحات المسكية (مشروع الرسالة)، وعرض تقديمها لي عند استقرار رأيي على دراستها وتحقيقها.... المهم شاء الله أن لا تكون هذه المخطوطة موضوع الرسالة لأسباب لا داعي لذكرها» (ص١١٠). ويذكر أنه «بعدها عينّ الدكتور أحمد محمد بن بريك (الشحري) مشرفًا على رسالتي بموضوعها الجديد. ولعلاقات الصداقة الخاصة بين الأستاذين فقد أشار عليَّ المشرف بعرض بعض المباحث على الملاحي للاستفادة من خبرته وثقافته.... وواقع الأمر كانت الملاحظات والتصويبات التي دونها الأستاذ الملاحي أو التي قالها شفاهة بمثابة دروس حية نبهتني إلى أمور كثيرة تتعلق بالبحث التاريخي ومسالكه الوعرة» (ص١٠١).

وتحدث عن هموم هذه المرحلة من متطلبات البحث المادية التي أثقلت كاهله.. فيذكر أنه في أحد أيام صيف ١٩٩٧م تزاحمت في ذهنه الهموم: «أهمها المشكلة المالية المستعصية والمُرحّلة من سنين التي تقض مضجعي، وتكدر حالي بين فينة وأخرى. وما يزيد الأمور سوءاً متطلبات دراستي للماجستير المتجددة من شراء كتب، وانتقال من منطقة إلى أخرى بحثًا عن المصادر والمعلومات، ولا بد أن نشير هنا إلى أن هذه الدراسة كانت على حسابي الخاص. وكان راتب المعلم الثانوي (ولا يزال) يتزايد كماً وعدداً، ويتناقص كيفًا وعضداً». (ص٤٥).

وعند ذكره لقصة (السمسرة) التي وفق فيها.. ذكر شيئًا عن مرحلة دراسته للماجستير يقول: «تعمدت في البداية أن أذكر تاريخ السمسرة وهو سنة ١٩٩٧م فحينها لم أزل



مدرسًا ثانويًا، ولا يتعدى راتبي الشهري ثلاثة عشر ألف ريال يمني، وكنت في مرحلة الإعداد لرسالة الماجستير» (ص٢٢٨).

وعندما يقتضي البحث الميداني شد الرحال نجده يذكر شيئًا من ذلك يقول: «ارتبطت الأوقات التي أمكثها في مدينتي سيئون وتريم بالدراسة الجامعية العليا ولا سيما أيام البحث الميداني، وإذا عدّت تريم كنزًا أصيلاً للتاريخ وأسراره، فإن سيئون مكان مهم لصناعته وأخباره، والحقيقة أن المدينتين من التاريخ والتاريخ منهما»، (ص٩٧).

ومن المكتبات التي أتيح له الاطلاع على كتبها في أثناء إعداده لرسالة الماجستير مكتبة والد سند بايعشوت يقول: «وذكرت الأخ سند الذي حضر متأخرًا بمكتبة والده العامرة وندرة بعض كتبها ومجلاتها التي أتيحت لي في أثناء إعدادي لرسالة الماجستير مستغلاً ذلك في تأكيد الشكر وإظهار الامتنان». (ص٢١٢).

ثانيًا: مرحلة الدكتوراه:

ارتبطت العراق في المدة التي كان فيها الدكتور الجعيدي يدرس في مرحلة الدكتوراه بالمرضى القادمين إليها من أرض الوطن؛ لهذا نجده يصف علاقته بالمرضى الحضارمة، فقد استهل حديثه بقوله: «أصبحت بغداد مكانًا مناسبًا لطالبي الشفاء من الأمراض التي "حار فيها الطبيب المول والمتعلم العارف" في الوطن، وتكاد تكون الرحلات إلى بغداد أسبوعية، كنا نتردد على الإخوان القادمين من حضرموت فهم من بقية الأهل ونسمة الوطن» (ص٦٩)، يصف علاقته بالمرضى الحضارمة وصعوبة التوفيق بين تلك العلاقة وبين دراسته يقول: «كنت أمام معادلة صعبة لم أوفق فيها: بين رغبتي في عيادة المرضى خاصة المعارف والشد من أزرهم، وبين محاولة ترويض الألم النفسي الذي تحدثه قصصهم الحزينة والحد من تأثيرها على دراستي العليا»، (ص٦٩).

ويقول في توثيقه لسكنه في بغداد: «بغداد ٢٠٠٢م، شارع فلسطين، حي المهندسين، تم التوقيع على عقد الإيجار في منزل العم قيس، وهي شقة في الدور الثاني من الفيلا، الشقة تتكون من غرفتين فوق السطوح» (ص٧٥). ثم سرد حكايته مع «كلاب الجيران عددهم خمسة (أم وأطفالها)»، (ص٧٦)، وأنه مرت العلاقة بينه «وبين هؤلاء الأصدقاء بثلاث مراحل: - مرحلة الشكوى. - مرحلة الصداقة. - مرحلة العداوة والخداع». (ص٧٧). في مشاهد دراميتكية استمرت أشهرًا.

الثاني: متفرقات:

- **المنهج**:

وجدت نفثات في الحديث عن المنهج الدراسي ومن ذلك قوله: «اليوم كان قريبًا من دفة السمر (سعيد الجريري) لهذا حرك الاتجاه إلى عوالم المناهج الدراسية وإشكالية المعلومة الجنسية وطرح سؤالاً مهماً ومحدداً وهو: هل نحن في حاجة في منهاجنا الدراسية للصف الخامس الابتدائي إلى ذكر الجماع عندما نتحدث عن مبطلات الصوم؟ أو أن الأفضل تأجيل هذه المعلومة الشرعية الصحيحة إلى مراحل دراسية لاحقة؟»، بعد طرحه لهذين السؤالين «انفتحت شهية السامرين للحديث، وكان واضحًا أن المدرسة أحالت تفسير لفظة (الجماع) إلى معظم البيوت، ومنها بيوت السامرين، وكانت الإجابة المغلوطة -رغم دبلوماسية المخارج- هي السائدة!!!»، (ص٢٢٠).

من قضايا المنهجية التي طرحت مناهج اللغة العربية، فكتب حديث الدكتور سعيد الجريري حين «وضع فكرة أخرى وهي ضرورة اختصار دروس قواعد النحو في المدارس والجامعات بحيث تكون مادة محببة للتلاميذ والطلاب؛ لأنها تحولت إلى مصدر من مصادر عزوف الكثير من الطلاب عن عشق لغتهم العربية بل وكراهيتها، وقال لا بد من شيوع ثقافة جديدة تجاه اللغة العربية مفادها أن النحو ليس اللغة العربية، منتقداً بعض المدرسين الذين يحولون مادة دروس النحو إلى مادة نظرية وليس مادة تطبيقية أو في الأقل عدم الجمع بين الجانبين»،

(ص٢١٤). ونقل تعقيب الدكتور عبدالقادر باعيسى حين قال: «إن لغتنا العربية هي العنوان الرئيس لهويتنا، ثم إنها لغة القرآن بل يعطي البعض حروفها صفة القداسة ذلك أن خط القرآن الكريم رسم أول ما رسم بحروفها»، (ص٢١٤)، ونقل تعقيب متداخل آخر وهو الرأي: «الداعي إلى أن تكون هناك (أمة) من النحاة تسهر على قواعد اللغة، وتؤلف فيها ما شاء لها التأليف، ولكن دون أن يكون ذلك تياراً صارماً مفروضاً على الجميع. مؤكداً أن اللغة العربية تستطيع أن تتواكب مع المتغيرات، وقابلة لاستيعابها، بل والإضافة عليها». (ص٢١٤). و«أكد بعض السامرين أن لغتنا العربية هي سر قوتنا، ومفتاح ترابطنا، ورمز لهويتنا. وإن ظلمنا لها في أن نجعلها لغة متحجرة منفرة معزولة عماً حولها من ثقافات». (ص٢١٦).

وفي خضم حديثه عن (حياكة الحكاية) ذكر بعض الحكايات الرمزية، ومنها حكاية رمزية كانت ضمن المنهج الدراسي حيث «كانت تدرس لتلاميذ الصف الرابع أو الخامس الابتدائي، والتي تعزز التربية إلى أهمية الحرية في الحياة، والغريب أن الحكاية موجودة في مناهج التربية والتعليم في حكومة جنوب اليمن قبل الوحدة، وهو نظام يوصف بأنه على غير وفاق مع حرية التعبير»، (ص٢٣٤). ثم سرد تلك الحكاية أو القصة.

- المسيرة التعليمية لبعض الشخصيات:

وجدت في خضم أوراق الدكتور الجعيدي نبذاً مقتضبة عن مسيرة بعض الشخصيات التعليمية، وغالب تلك الشخصيات يعدون من الأصدقاء المقربين له -وقد انبثت أسماؤهم في مواضع كثيرة من أوراقه، كما مر بعضها-، ومن تلكم الشخصيات الدكتور سعيد الجريري الذي «كان يعشق اللغة الإنجليزية ثم أصبح متخصصاً في اللغة العربية، فبعد أن استكمل المرحلة الإعدادية ذهب إلى أحد معاهد عدن التقنية عندما علم أنها تدرس باللغة الإنجليزية، وفشلت عدن في أن تعطيه عشقه وما تمنى، ليعود طالباً في ثانوية الشحر دون أن يعلم شروط العودة، وتسليم ما عليه من عهدة. وتمضي المقادير.... إنه يسبق اسمه حرف الدال، وهو أهل له، ولكنه كما يقول لا يعشقه، ويردد القول: إن حرف الدال دس قبل كثير من أسماء لا تستحقه، فأفقده معناه الكبير». (ص٢٢٥).

الأستاذ صالح الفردي إذ يقول عن نفسه: «كنت الأول على دفعتي في قسم اللغة العربية، وعندما حالت الظروف الكثيرة دون تحقيق رغبتي... غادرت أرض الوطن مغاضباً إلى مدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية»، (ص٢٢٥)، ويتابع حديثه بقوله: «ومكثت هناك ثماني سنوات متتالية، خلالها ودعت القلم ولكنني أبقيت على علاقتي مع الكتاب»، (ص٢٢٥)، ثم عاد بعدها إلى مدينته المكلا وفي ذلك يقول: «ثم هيأ لي الله من يشجعني إلى العودة إلى المدرسة مكاني الصحيح، وعدت إلى القلم بقوة» (ص٢٢٥).

الأستاذ خالد القحوم وقد استهل حديثه بقوله: «بعد تخرجي من الثانوية... كانت ميولي في المجال الإعلامي والصحفي»، (ص٢٢٦)، ولكنه قبل كما يقول: «منحة دراسية إلى الجمهورية العربية السورية في الاتصالات البريدية، وعندما تخرجت عملت في مصلحة البريد حسب دراستي» ثم قال: «استأنفت نشاطي الإعلامي جنباً إلى جنب مع عملي الأساسي، ثم فرغت في العمل الصحفي نائباً لرئيس صحيفة شبام الأسبوعية المكلاوية»، ثم اختار العمل الصحفي.

الأستاذ علي عبدالله البيتي يقول عنه: «كنت أعرفه اسماً وشكلاً عندما استكمل دراسته الجامعية في كلية التربية العليا بالمكلا، لا نعلم كم مضى من سنين عمره حتى حينه، ولكن ندرك أنه ليس من جيلنا بل كان واضحاً أنه من جيل قبلنا، والدرس الصامت الذي تعلمته من (التلميذ البيتي) أن العلم لا يعرف الحدود ولا مراسي له». (ص١١٢).

شخصية سالم الذي «أخذ قسطاً من التعليم جعله أوفر حظاً من زملائه الذين تركوا مقاعد الدرس مبكراً،





وانتشروا في أرض الله. لم يتأخر سالم عن قافلة المهاجرين محبة في العلم وأهله، بل اضطراره لخدمة والده العجوز». (ص١٥٢). وبعد هجرته كان «التعليم اليسير الذي ميزه عن زملائه المهاجرين جعله يتقدمهم رويداً رويداً» (ص١٥٣).

ـ شخصيات تربوية:

ففي مقاله (الجد.. الابنة.. الحفيد) فك رموز تلك الثلاثية بقوله: «الجد: ونعني به الشخصية الاجتماعية والتربوية المرموقة، وشاعر السلطنة القعيطية، ورائد تعليم الفتاة في حضرموت إنه الشيخ عبدالله أحمد الناخبي (رحمه الله)»، (ص٣٩).

ثم تحدث عن «الابنة: وهي الشيخة الفاضلة والأستاذة القديرة: فاطمة عبدالله الناخبي (رحمها الله)، الشهيرة بعبودة الناخبية، وبغض النظر عن الدور التعليمي الرسمي الذي قامت به بمعية والدها ثم بعد سفره، فما يلفت النظر أكثر جلوسها لتعليم البنات بعد أن علمها والدها دون أن تطلب أو والدها من الناس جزاء أو شكوراً، وحتى بعد أن انضمت مدرستها للتعليم الحكومي لم يكن ذلك بدوافع مرتب لها بل غلب عليها جانب الصدفة وذكاء ناظر التعليم الشيخ سعيد القدال في قصة معروفة»، (ص٤٠).

ثم قال: «الحفيد: هو الأستاذ عبداللاه محمد السقاف (أطال الله عمره) تدرج في العمل التربوي من مكانه الصحيح، فكان معلماً، فنائبًا لمدير مدرسة، فمديراً، ثم إداريًا في مكتب التربية والتعليم بمحافظة حضرموت»، (ص٤٠)، وقد عرف له مكانته وعرّف بها بقوله: «لم تتهيأ فرصة أعتقد أنه يستحقها لإدارة التعليم بالمحافظة لسبب يسير أنه سيكون الرجل المناسب في المكان المناسب»، (ص٤٠).

وعندما كان يعدد سكان حيه تطرق لذكر تربويي حيه (حافته) حيث يقول: «وإذا تناولنا أعمدة التربية والتعليم فلن نغفل الإشارة إلى بيت الرائدتين فاطمة عبدالله الناخبي، وفطوم شيخ العزاني، أما رجال التعليم البارزون فحدث ولا حرج، فإن بدأت بالشيخ عبدالله الناخبي وابنته وأحفاده مروراً بالأستاذ أحمد القحوم، والأستاذ نصر مرسال، والشيخ محمد باوزير، فلن ينتهي عند الأستاذ مدرك عبيد مدرك، وخالد بخيت، وآخرين، والقائمة تطول..» (ص١٧٣).

ويقول عن الأستاذ مدرك عبيد مدرك: «بعد خمسة وثلاثين عامًا من العمل معلماً في سلك التربية والتعليم غادر معلمنا -وبصمت- المدرسة، فقد أحيل إلى المعاش في السنوات الماضية القريبة» (ص١١٥).

وعن البيتي يقول: «هو الأستاذ الفاضل المرحوم علي عبدالله البيتي مؤسس التعليم الثانوي في مديرية حجر»، (ص١١٢).

ووجدت إشارة إلى الكويت في خدمتها للطلبة الحضارمة الدارسين فيها حين «فتحت مدارسها الثانوية والجامعية لطلاب العلم مجانًا، بل وتدفع راضية مرضية مؤونة العيشة لهؤلاء الشباب، وكان اتحاد الطلاب الحضارم في الكويت الهيئة الاعتبارية لهم». (ص٨٦).

وفي الختام هذه صورة للتعليم ولمسيرة صاحب الأوراق (العلمية والتعليمية) التقطناها من زاوية الأوراق فقط، ولا شك أنها صورة غير مكتملة المعالم، ولا ضير في ذلك؛ لأن الأوراق ليست متن سيرة.. لكن هذه الصورة ستتضح أكثر فأكثر.. وستردم الكثير من الفجوات، إذا ما دُرِس (عابر سبيل)، وكذا غيرها من مقالاته التي سترى النور قريبًا، والتي ستولد مع الأيام القادمة.

الهوامش:

(١) خرجت وثائق الندوة في كتاب في ١٩٨٩م.

(٢) فأطروحته للدكتوراه (قيام السلطنة القعيطية والتغلغل الاستعماري في حضرموت ١٨٣٩ - ١٩١٨م) وطبعت في ١٩٨٥م.

(٣) خرج الكتاب في طبعته الأولى ١٩٩٧م.

(٤) وهي وثائق من الأرشيف البريطاني بكل ما يتعلق باليمن، عملت دورين إنجرامس وابنتها ليلى على إخراجها، وتقع في (١٦) مجلداً.

(٥) خرجت في كتاب، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، بتحقيق عبدالله محمد الحبشي.

(٦) خرجت في كتاب الطبعة الأولى ٢٠١٠م بتحقيق د. محمد يسلم عبدالنور.



المبدع عبدالله فضل
أيقونة حضرمية في عدن



بعيداً عن (لو) الأديب علي أحمد باكثير (ولو ثقفت يومًا حضرميًا)؛ لذوبانها وتحولها إلى (قد) التحقيقية فجاءتنا (آية النابغين)؛ فالحضرمي – عبر القرون – أثبت أيقونة الحب والسلام أينما سار وحلّ، داخليًا وخارجيًا، أعطته جيناته النادرة هذه الشهادة، التي لا يختلف فيها اثنان. فزراعته الحب وبضاعته التسامح. ولك أن تمتشق قلمًا، وتبدأ بالعد عبر التواريخ والأجيال، تعد العلماء والمفكرين والمبدعين الحضارمة، ولك أن تصنع قاعدة بيانات عمّا فعلوه في المكان والزمان اللذين يتواجد فيهما الحضرمي؛ والتواجد هنا ليس من الوجود المكاني فحسب، بل من الوجد العاطفي كذلك، فهي ازدواجية إيجابية صبغت الحضرمي أينما حلّ. وانسيابٌ مع سيل الشعور المتدفق هذا، تحققت هذه الفكرة عن الحضرمي في لقاء أجرته قناة عدن المستقلة مع الفنان عبدالله فضل.



د. سعيد محمود بايونس

كنت أشاهد إبداع فرقة الإنشاد، وأعجب بما يقدمونه دون أن ألقي بالاً للمنشدين؛ فالإنشاد هو محط اهتمامي. لم أكن أعلم – وهذا جهل مني بلا شك – أن كل منشد في هذه الفرقة يمثل حكاية إبداع فردية تستحق الاحترام. القناة عرفتني بشخص أعرف ملامحه وإبداعه جيداً، لكنني لا أعرف اسمه وتاريخه خارج الفرقة. من مطلع الثمانينيات أتابع إنتاج فرقة الإنشاد، ولا أعرف أسماء أعضائها، بل لم أفكر في معرفة أسمائهم، حتى عام ٢٠٢١م وهذا عام اللقاء بهذا المبدع، الذي عرفت أنه الفنان عبدالله بافضل.

سيرة الفنان:

عبدالله سعيد بافضل من مواليد ١٩٤٨م، في حضرموت، جاء إلى عدن في صباه، وسكن في الشيخ عثمان، وكانت القطب الآخر لعدن يوازي قطبها الأول (كريتر)، فالشيخ جغرافيا الفنان المرشدي الفنية وساحته التي يجول فيها، كما كانت كريتر جغرافيا الفنان أحمد بن أحمد قاسم.

جاء الحضرمي بافضل إلى حافة الهاشمي، وهي حافة يقطنها فنانون ومبدعون، منهم الفنان أبوبكر سكاريب، وعازف الإيقاع الأشهر أنور راجح. كان بافضل الطفل عاشقًا للفن والطرب حتى إنه يجمع أطفال الحافة ويغني لهم، وكان من عشقه يغني في المقهى بمصاحبة زميله أنور راجح، الذي يصاحبه بالعزف على طاولة المقهى.

وحين درس في كلية بلقيس في الشيخ عثمان، كانت الصدفة أن يُدرِّسه الشاعر صالح نصيب، وفي أوقات النشاط كان الأستاذ يستفسر الطلاب عن من يمتلك موهبة الغناء، فيشير الطلاب له إلى عبدالله بافضل، فيطلب منه الغناء،



فيغني أغاني ثورية للفنان حســـن عطاء، ولم يكن يدرك أن الكلمات التي يغنيها من أشعار أستاذه صالح نصيب.

وفي عام ١٩٦٥م كان هناك برنامج للهواة، فقدم لهم طلبًا للمشاركة فوافقـوا، فقـدَّم أغنية (راح الهوى) للموسيقـار أحمد بن أحمد قاسم، وكان يصاحبه في العزف الفنان حسن فقيه، فنال استحسان الجميع، فبدأ الحظ يفتح أبوابه.

كان موظفًا إداريًّا في وزارة الدفاع، وأســـهم في تأسـيس الفرقة الفنية للقوات المسلحـة الجنوبـية، وفيها أحمد تكرير (عود)، وشـكيب جمن (كمان)، وفضل تكرير، وفضل ميزر (إيقـاع)، ومحمد زنقـور (إيقـاع)، ومحمد خان (إيقــاع)، وعلي سـالم النجار (كمان)، ومحمد سـالم النجار (قـانون)، وفؤاد عبـدالله عوض (اكارديون)، وبـدأ نشـاطه في الغناء والتلحين، فضلاً عن أن الفرقة كانت تسـجل لكبـار الفنانين: محمد سعد عبـدالله، وأحمد بـن أحمد قاسـم، ومحمد محسـن عطروش، وعبدالكريم توفيق، ومحمد سالم بن شامخ.

انضم لفرقـة التضامن في المعلا التي كان مقـرها جيرش (جراح)، وقـد تعلم فيها العزف على العود، وكانت الفـرقـة تضم المبدعين: سعيد بايمين، وفرج بايمين، وعبدالله حبـشي، وعبدالله الصنح، وصالح بريشان (عود)، وحسن بامسطول، وجعفر حسن، وحسن بـامطرف (ناي وكمان)، ويتردد عليها المبدعون: محمد سالم بن شامخ، والتوي، وأحمد بـن غوذل. وقد تبنت الجمعية الحضرمية بعدن هذه الفرقة، وشـاركت في احتفالات عدة، منها: عيد العمال، وحفل أقيم في حضرموت عام ١٩٧٠م شارك فيه الفنان محمد سعد عبدالله.

وبعد عودة الفرقة من المكلا تفرق أعضاؤها، فأخذت فـرقـة القوات المسلحـة عددًا من العازفين حـين كلف الموسيقـار جميل غانم برئاستها وقائد فرقتها العازف أحمد تكرير.





الفنان عبدالله فضل

الأغنيات:

سـجل لتلفزيون عدن أغنيتين عامي ١٩٧٢م، و١٩٧٣م، وهما من ألحانه وأدائه. وســجل لتلفزيون عدن أغنية (عيد العمال)، ولها حـادثة ما زال يتذكرها الفنان بـافضل؛ فعند الانتهاء من تسجيل الأغنية مباشرة تم إغلاق بث الإرسال التلفزيوني البرامجي، وتم استبداله ببث القرآن الكريم، وقد استغرب الفنان بـافضل وبحـث عن السبـب، فقـيل له إنه صادف حادثة طائرة الدبلوماسيين. وغنى مع فرقة الإنشاد مؤديًا ضمن الجوقة الجماعية أغاني كثيرة. وشارك في السهرات التلفزيونية، وشارك الفرقة في رحلاتها الداخلية والخارجية.

الألحان:

لحن لزميله في فرقـة الإنشـاد الفنان الراحـل فهد شـاذلي مجموعة أغانٍ رياضية خاصة لنادي التلال. كما لحن لزميلـه الفنان أنور مبـارك أغاني عدة، منها: (بـلادي) كلمات د. عبدالمطلب جبر، و(بـلادي عروس) كلمات محمد حسـين الجحوشي، وهناك له الكثير من الألحان.

وفي فرقة القوات المسلحة نشأت علاقة حميمية بـينه وبـين الموسيقار شكيب جمن، أسفرت عن تقديم إبـداعات فنية، وظهرت موهبة بافضل في التلحين، ففي بداية السبـعينيات قـدَّما للأطفال بـرنامجًا تلفزيونيًّا يعرض مواهب الأطفال، فكانت ألحان البرنامج من نصيب بــــأفضل، ومن كلمات حسين السباعي، استمر نشاطها حتى عام ١٩٧٥م.

انتقل الفنان والملحن عبدالله بافضل في عام ١٩٧٧م إلى فرقة (أشيد)؛ لتقديم أعمال فنية لفئة الشباب، فقدم أعمالاً كثيرة في احتفالات (معرض المعارض)، وشارك في مهرجان الشباب العالمي الحادي عشر في كوبا.

تأسيس فرقة الإنشاد:

كان بافضل ضمن الدفعة الأولى التي درست في معهد الفنون والموسيقى بعد تأسيسه. كانت عدن في السبعينيات تتهيأ للتوحد في كل شيء، وتكون نظام الدولة الواحدة، فجاءت الدعوات لتوحيد الفرق الفنية في إطار حكومي واحد؛ لتقديم فرقة جماعية مهمتها تجديد الأغاني التراثية في قالب موسيقي، دون المساس باللحن التراثي، ومن الأسباب المساعدة أن الموسيقار جميل غانم أسس فرقة للأغاني التراثية، وفي نهاية السبعينيات جاءت دعوة من كبار الفنانين لتأسيس فرقة إنشاد، وكانت محاولات لتأسيس الفرقة من قبل الفنانين أحمد قاسم، وجميل غانم، ومحمد محسن عطروش لم يكتب لها النجاح بسبب انشغال أصحابها بأعمالهم الفنية الخاصة رغم أنهم سجلوا أغانيها الأولى.



لكن الفرقة الحلم تأسست على يد الموسيقار أحمد بن غوذل بقرار من وزارة الثقافة والسياحة عام ١٩٧٩م؛ وذلك أن (الغودلي) كان مدرساً في معهد الفنون الجميلة، وقبلها كان مسؤولاً ثقافياً في وزارة الثقافة، فتأسست الفرقة في أبريل عام ١٩٧٩م، وكانت تضم فرقة المؤسسة الفنانين:

عبدالله بأفضل، وكرامة بن الوادي، وعبدالله الصنح، وأنور مبارك، وفتحية الصغيرة، وفتحية محسن، وجمعة محمد علي، وذكرى محمد سعيد. فضلاً عن الموسيقيين والعازفين. وبعد شهرين من تأسيسها وبالتحديد في يونيو ١٩٧٩م جاءت دعوة للفرقة من حكومة الكويت للمشاركة في مهرجان (الترويح السياحي)، فذهبت فرقة الإنشاد ضمن وفد فني مع فرقة الرقص والأكروبات. وقدمت الفرقة أغانيها على مسرح سينما الأندلس في الكويت، قدمت أغنيات منها (ألا يا صبا نجد، ويا قلبي تصبر، يقول يحيى عمر من كم، عيونه دوبها تملك وتأسر، وأغنية كويتية) ونالت الإعجاب لدرجة أن وزارة الثقافة الكويتية أسست في العام نفسه فرقة للإنشاد الجماعي بعد أن سمعت فرقة الإنشاد، وعلمت أهمية الغناء الجماعي وتقبل الناس له. كما شارك الفنان عبدالله بافضل مع الفرقة في مهرجان الصداقة في الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٠م. ثم انضم للفرقة أبوبكر سكاريب، ونجيب سعيد ثابت، وجميل العاقل، ونصر دحمان، وطارق حسن، وفهد شاذلي، والعنصرة، وفضل محمود، وكفى عراقي، وأمل كعدل، وماجدة نبيه، ووفاء أحمد سعيد وغيرهم.

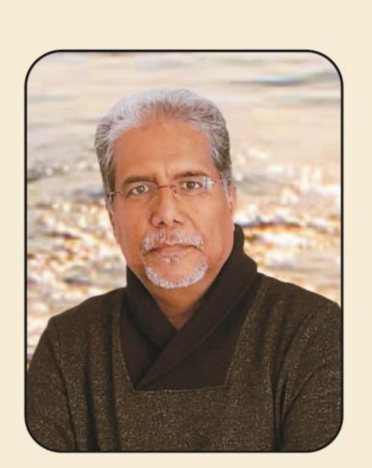
قدمت فرقة الإنشاد في تاريخ مسيرتها، خاصة مسيرة الزمن الجميل، أغنيات تراثية ومعاصرة كثيرة، وكانت قد امتلكت قصب السبق في التوثيق لها، منها: يا من هواه أعزه، شل الشلن واصرفه سنتات، فاتنة وحليوه، شراحي، نجيم الصباح، سمارة، حمام في الوادي، أنا وخلي تراضينا، يا قلبي تصبر، أحبك يا غالي، وغيرها من الأغاني التراثية التي شكلت وجداننا.





في مديح الكلام

... فالكلام تجلٍّ، والصمت أفول.



د. سعيد الجريري

(1)

قيل الكثير من الكلام في مديح الصمت، وصار من المأثورات الذهبية قولهم: إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب. وقديماً قال الخطيب الجاهلي المفوّه أكثم بن صيفي: الصمت منجاة.

لكن الصمت ليس سوى صورة لانقطاع اللذة وانسداد الرجاء، وفي أحسن أحواله لَوذ بأوقية وقاية. أما الكلام فذروة إنسانية لا توازيها إلا ذروة الصمت عندما يكون أبلغ من كلام. ولقد قال سقراط: تكلم حتى أراك. وهي إشارة من الفيلسوف القديم دالة على أن الكلام هو الإنسان، قيمةً وسيماء.

تقدّسَ الكلام. فلولاه لما سمع الناس خطاب التوراة والإنجيل والقرآن، ولا حكم الفلاسفة، وفرائد المتنبي والمعري، ولا انتشينا حد الثمالة بخمريات أبي نواس، ولا هسهسات النخيل تحدث الرياح، ولا خرير المياه يوشوش الأرض. إذن فالكلام تجلّ، والصمت أفول.

لعل مديح الصمت معادل موضوعي لمديح الأفول. فهل جربنا أن نجعل من الأفول لذة كمن يراقب خفوت شمس تغطس في الماء تتمزق على سطحه فيغسلها حد التلاشي؟ هكذا هو الصمت. جدار ماحل تتراءى فيه بقايا بقع قديمة.

(2)

الكلام غير القول، وتفرق العرب بينهما بأن الكلام ما كان مكتفيًا بنفسه، وهو الجملة، والقول ما لم يكن مكتفيًا بنفسه، وهو الجزء من الجملة. إذن فالكلام تمام واكتمال. ومن إجلاله لدى العرب، أن سموا علماً من علومهم بعلم الكلام، وهو علم يستخدم المنطق والجدل. أما أشهر الفرق الكلامية فهي المعتزلة والأشعرية.



ويميز علماء اللسانيات بين اللغة والكلام، كما في نظرية فردينان دو سوسير، فثنائية اللغة الكلام من المبادئ التي ضمّنها دوسوسير نظريته الوصفية البنيوية، فالكلام ظاهرة شخصية و سلوكٌ فردي خاص، بينما اللغة ظاهرة اجتماعية عامة لأن اللغة شيء مجَرَّد و مستقلّ عن المتكلّم عكس الكلام الذي يتوقّف على إرادة المتكلّم و ذكائه.

(3)

"الشعراء أمراء الكلام يصرّفونه أنَّى شاؤوا..."، كما قال فأنصف الخليلُ بن أحمد. وللكلام لدى الشعراء العرب تجليات شفيفة، فقديماً قال كثير عزة:

لو يسمعون كما سمعتُ كلامها

خرّوا لعَزّةَ ركّعًا وسجودا

وحديثًا قال أحمد شوقي في غزليته (يا جارة الوادي) التي صدحت بها فيروز:

وتعطلت لغةُ الكلام وخاطبت

عينيّ في لغة الهوى عيناكِ

لكن للكلام عند نصر بن سيار، ارتباطًا بالحرب، دلالةً على أن للكلام سلطته التي تؤدي إلى مصائر، ومآلات قاسية أحيانًا كما في أبياته الشهيرة:

أرى خلل الرماد وميض نارٍ ... ويوشك أن يكون لها ضرامُ

فإنْ لَمْ يُطْفِه عُقَلاءُ قَومٍ ... فإنَّ وَقُودَهُ جُثَثٌ وهامُ

فإن النار بالعودَين تُذكَى ... وإن الحرب أولها كلامُ

(4)

ولعل من طريف ما قرأت مؤخرًا، خبرًا عن "ساعة استشارة الشعراء" - أمراء الكلام - تنعقد كل ثاني يوم جمعة من كل شهر، في المكتبة العامة، في مدينة لاهاي الهولندية، وهي مخصصة للشعراء ذوي المستويات المختلفة، ومؤلفي الأغاني، والطلاب الذين يتعين عليهم تحليل قصيدة ما، جزءًا من متطلبات المنهاج الدراسي. غير أن الأكثر طرافة أن يُؤدَّى الشعر بلغة الإشارة، في غياب اللغة المنطوقة - التي ينحدر منها الشعر في تقاليده الشفاهية والكتابية التي يؤدي فيها الكلام والسمع دورًا مهماً- كما حدث قبل سنوات، في أمستردام، إذ ألقى فيم إميريك القصائد بلغة الإشارة وترجمت راشيل فان دن برينك، فوريًا، قصيدة "شجرة العائلة" التي كتبها روزالي هيرز.

(5)

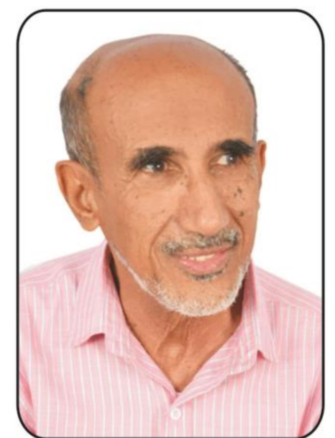
الكلام في أعلى تجلياته ليس مجرد كلام، أو كما يسمى، استهجانًا، كلامولوجيا، فربّ كلام أبلغ من صمت، ورب صمت أبلغ من كلام، ولعل مديح الكلام في سياق كهذا هو رديف موضوعي لمديح الصمت، لكن لكل منهما تجليه الذي يعليه في مقامات المديح.





العدد (22)
أكتوبر
ديسمبر
2021م

وقفات
مع الشاعر صالح بن علي الحامد



نجيب سعيد باوزير

في البدء كانت الأغنية

لعل أول ما سمعتُ من شعر صالح بن علي الحامد (١٩٠٣ - ١٩٦٧م) هو تلك الأبيات الجميلة التي لحنها وغناها من شعره الفنان الحضرمي الخالد محمد جمعة خان:

قف معي نشهد جمالا يملأ القلب ازدهاء
أي زهر أي نبت أنبت الروض المريع
عجبا في الزهر ألوان كما الفنان شاء
ظهرت شتى وهذي زهرة فيها الجميع
غادة كالبدر حسنا واكتمالا وسناء
زهرة للحسن رفت بين أزهار الربيع
رفعت ذيلا وهمت تختفي عنا حياء
علق الغصن بها لا تستري الحسن البديع
واتركي الشاعر يسديكِ غناء وثناء
ذمة للحسن عند الشعر حاشا أن تضيع

وهذه القصيدة موجودة في الديوان الأول للشاعر (نسمات الربيع)، الذي صدر في القاهرة عام ١٩٣٦م عن مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر التي كان يرأسها الأديب الكبير الأستاذ أحمد أمين. وفي صدر الديوان سبعة أبيات للشاعر أحمد رامي يقرظ بها الديوان تبدأ بهذين البيتين:

رجِّع الشعر أيها الغريدُ قد شجاني من ثغرك التغريدُ
وأدر كأسه عليّ سلافا إنني من سلافه مستزيدُ

وعنوان القصيدة الأغنية (زهرة الحسن)، وتحت العنوان تعليق يقول: "قطعة غنائية قالها الشاعر ارتجالا لأغنية اقترح عليه النسج عليها". وقد عرفت مؤخَّرًا فقط أن للشاعر الحامد شعرًا مغنًّى غير هذه القصيدة، وبعضه من اللون الحميني (العامي)، الذي كان ينظم فيه شاعرنا الحامد، ولم يكن ينظم في الفصيح فقط كما كنت أظن. وهذه ثلاثة مقاطع مختارة من إحدى قصائده الحمينية المغنّاة:

يا نسيم الصبا والأنس حيا قبالك
وانت يا قلب شف بحر المحبة صفا لك
مجلس الأنس عندي طاب شربه
والعَنَق والبلابل فوق الاغصان سجعت بالتلاحين

* * *

غصن راوي سقاك الله كرع من جبالك
جيت بابرد وباتروّح بضافي ظلالك
ردنا العقل وانّ العقل حنبه
وان قد العقل مانع خيَر نبقى في العشقة مجانين

* * *



يا رحيم ارث لي سالَك بخالق جمالك

لقّها للهوى والعشق لا لي ولا لك

فيك با يحتكم فن المحبة

إن حيينا وإن متنا بقينا مثل بين المحبين

وقصيدة (زهرة الحسن) واحدة من القصائد الفصيحة العديدة التي لَحَّنها وغنَّاها محمد جمعة خان، فقد غنى لأمير الشعراء شوقي عددًا كبيرًا من القصائد، وغنَّى لعلي محمود طه (تسائلني حلوةُ المبسم)، وغنَّى لأبي بكر بن شهاب (بشراك هذا منار الحي ترمقه)، وغنَّى قصائد لعدد من الشعراء القدامى والمحدثين، أثبتها الصحفي الأستاذ عزيز الثعالبي الذي رحل عنا مؤخَّرًا رحمه الله في ٢١ أكتوبر ٢٠٢١م في كتابه (محمد جمعة خان.. الأغنية الحضرمية الخالدة). وغنَّى محمد جمعة لحسين محمد البار بعض القصائد الفصيحة، ولكن غنَّى له عددًا أكبر من القصائد العامية، وشكَّل معه ثنائيًّا فنِّيًّا ناجحًا، يشبه الثنائي أحمد رامي وأم كلثوم؛ إذ غنت أم كلثوم عددًا من القصائد الفصيحة لرامي، ولكن الغالبية العظمى في ما غنته له كانت من الشعر العامي.

وكما عاشت أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب وأسمهان وغيرهم من الفنانين الكبار في عصر كان فيه في مصر عدد كبير من عمالقة الأدب والشعر والثقافة الذين احتضنوا هذه المواهب الغنائية وقدَّموا لها أشعارهم، واختاروا لها من الشعر القديم فغنَّوا تلك الأشعار وشهروها بين الناس، كذلك كان في حضرموت في الأربعينيات والخمسينيات بوادر نهضة ثقافية تبشر بخير كثير، وكان من أبناء القطر الحضرمي ثلة من نابهي الأدباء والشعراء والمثقفين عاصرهم الفنان محمد جمعة خان، ومنهم على سبيل المثال: صالح بن علي الحامد، ومحمد بن سالم السري، وحسين محمد البار، وسعيد عوض باوزير، ومحمد عبدالقادر



الشاعر صالح بن علي الحامد

بامطرف، والأقرب إلى الظن أن أمثال هؤلاء كانوا هم من يختارون للفنان الكبير قصائد الشعر الفصيح المعاصر والقديم كي يلحِّنَها ويغنِّيَها. وأحد هؤلاء، وهو سعيد عوض باوزير، ألف كتابًا يؤرخ فيه للحياة العقلية في حضرموت منذ ما قبل الإسلام، وعندما وصل إلى العصر الحديث ترجم من بين من ترجم لهم لصالح بن علي الحامد ومحمد جمعة خان؛ بوصفهما نموذجين يمثلان الفكر والثقافة في النصف الأول من القرن العشرين الماضي.

الحامد وأبوللو وشعر المهجر

جاءت ترجمة صالح بن علي الحامد في كتاب (الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي) للأستاذ سعيد عوض باوزير ترجمة قصيرة جدًا، إما نظرًا لاختيار مسبق لدى المؤلف، وإما لأنه لم يجد من يزوِّده بمعلومات كافية عن هذا العلم الحضرمي عندما كان بصدد إعداد كتابه، ولكنه





على أي حال لم يشأ أن يغفل ذكره وقد اطلع على إنتاجه الرفيع من الشعر كما أستنتج من وجود ديواني الحامد الأولين: (نسمات الربيع)، و(ليالي المصيف)، في مكتبة والدي، رحمه الله، فكتب عنه ما يأتي:

"أديب موهوب وشاعر مطبوع، وضعه إنتاجه الرفيع الرصين في مصاف الشعراء المجيدين من أدباء العربية في هذا العصر. وهو إلى جانب شخصيته الأدبية اللامعة، فقيه ضليع، شغل مناصب قضائية في عاصمة السلطنة الكثيرية، وله نشاط اجتماعي وسياسي".

أما وقد أشرنا آنفًا إلى تاريخ صدور ديوان (نسمات الربيع) ومكانه، للشاعر الحامد، فإن ديوانه الثاني، (ليالي المصيف)، صدر في القاهرة أيضًا في عام ١٩٥٠م عن (مطبعة مصر)، وهو عام صدور الديوان الثاني للشاعر إبراهيم ناجي (ليالي القاهرة) نفسه، كما يؤكد الشاعر حسن توفيق في مقدمته الطويلة لكتاب (قصائد مجهولة)، الذي جمع فيه قصائد ناجي التي لم ترد في دواوينه المنشورة، وكما هو واضح فإن هناك تناصًا بين عنواني الديوانين؛ إذ يبدأ كل منهما بكلمة (ليالي) مضافةً إلى كلمة أخرى. وكان الشاعر صالح الحامد قد أعد للنشر ديوانه الثالث (على شاطئ الحياة) منذ وقت مبكر، وأشار إليه في أحد هوامش مقدمة ديوانه (ليالي المصيف)، ولكن لأمر ما لم يطبع هذا الديوان في حياة الشاعر وتأخر صدوره حتى عام ١٩٨٤م. وهذه الدواوين الثلاثة تضم قصائد الشاعر صالح بن علي الحامد كلَّها، التي اختارها لتظهر على الناس وتمثله خير تمثيل شاعرًا مهماً يمتلك ناصية التعبير الجميل المؤثر ويتنقل بين الهموم والمواضيع، التي تشغل تفكيره وتلهمه الكتابة، من ذاتية وعامة، وهي حصيلة ليست قليلة في واقع الأمر، ولكن يدل التباعد بين تواريخ نشر الدواوين الثلاثة على أن الشاعر الحامد على الرغم من مقدرته الشعرية العالية فإنَّه لم يكن يغريه قول الشعر في كل حين وفي كل موضوع من أجل أن يظهر ويتباهى أنه من المكثرين أصحاب الدواوين المتخمة الضخمة، بل كان أكثر حرصًا على تجويد شعره وعلى نبرة الصدق في هذا الشعر مهما يكن موضوعه، وهذا ما أكده الناقد الدكتور عبدالله حسين البار في دراسة له عن الشاعر؛ إذ قال: "لكن الحامد انصرف بكليته عن هذا الطراز من الشعر واتجه إلى القصيدة المتماسكة الأجزاء، المتلاحمة الأطراف، التي تكشف عن تجربة شعورية مر بها الشاعر فتقصَّاها صورة صورة، ومعنى معنى حتى اكتمل البناء، وتم له الكيان على أحسن ما يكون وحدة وانسجامًا". وقد سألت ابن الشاعر الأخ العزيز الأستاذ غالب صالح الحامد الذي وضع بين يدي مشكورًا كل ما طلبته منه مما يتعلق بوالده إن كان هناك أشعار لصالح الحامد لم تنشر بعد ولم تشملها الدواوين الثلاثة، فقال إن هناك عددًا من القصائد التي تحتاج إلى جمع وترتيب وإنهم بصدد القيام بذلك. وقد جُمعت الدواوين الثلاثة وصدرت في مجلد واحد عام ٢٠٠٢م، تحت عنوان (الأعمال الشعرية الكاملة)، ولكنها إنما صُورت فقط طبعاتها القديمة ولم يكلِّف أيٌّ من الجهات الأهلية أو الرسمية في حضرموت نفسَها عناء إخراج طبعة جديدة منقَّحة ومحترمة لأعمال هذا الشاعر الفذ تليق بمنزلته الكبيرة وتخلو من الأخطاء المطبعية التي اكتنفت الطبعات القديمة، بما في ذلك طبعة الديوان الأخير (على شاطئ الحياة) الذي لم يُلحق، مع ذلك، بتصويبات كما ألحق الديوانان الأولان!

كان صالح بن علي الحامد مجدِّدًا ورائدًا، فتح فتحًا جديدًا في الشعر الحضرمي، بل الشعر اليمني كله، فهو أول من أصدر ديوانًا ذا نفس عصري وحديث، في إخراجه وحجمه وفي محتواه، في عام ١٩٣٦م، فسبقَ بذلك الشاعرين العدنيين

علي محمد لقمان ومحمد عبده غانم، اللذين صدر ديواناهما الأولان (الوتر المغمور)، و(على الشاطئ المسحور) -على التوالي - في منتصف الأربعينيات من القرن العشرين الماضي. قال عنه الباحث ابن مدينة سيئون الأستاذ عبدالقادر محمد الصبان في كتابه (الحركة الأدبية في حضرموت): "وهو أول من اتبع الطريقة الحديثة وسمى دواوينه بأسماء وعنون قصائده، فإن من سبقه أبوبكر بن شهاب وعبدالرحمن بن عبيدالله مشيًا على الطريقة القديمة... فجاء الحامد واتبع الطريقة الحديثة. إن شعر الحامد نابض بالشعور والحياة متدفق بالسمو الفني الروحي".

صدق الأستاذ الصبان بهذه العبارة الأخيرة في وصف شعر الحامد، فهذا الشعر ظهرت عليه سمات النضج الفني منذ الديوان الأول (نسمات الربيع)، الذي أزعم أنه كان ندًا قويًّا للدواوين التي ظهرت في مصر في الفترة نفسها، بالإضافة إلى أنه كان مثلها ينحو إلى التأثر بالموجة الرومانسية التي أخذت تنتشر آنذاك على يد شعراء حركة أبوللو وشعراء المهجر. وقبل سنتين فقط من صدور ديوان الحامد الأول (نسمات الربيع)، كانت قد صدرت في العام نفسه، ١٩٣٤م، الدواوين الأولى لثلاثة من رموز المدرسة الرومانسية في مصر، وهي: (الملاح التائه) لعلي محمود طه، و(وراء الغمام) لإبراهيم ناجي، و(ديوان صالح جودت)، لصالح جودت. وعلى سَنَن هؤلاء الشعراء وغيرهم من الشعراء العرب الذين نشروا شعرهم في المجلات المصرية كالشاعر التونسي أبي القاسم الشابي، نشر صالح الحامد أشعاره الرومانسية في مجلة (ابوللو)، ومجلة (الرسالة) التي نشر فيها أيضًا مقالات فكرية عميقة كمقاله المعنون (حول الفقه الإسلامي والفقه الروماني)، ومما أعجبني في هذا المقال قوله:

"ووالله إننا لا نكره ذات أوروبا ولا علوم أوروبا ولا ثقافة أوروبا ولكنا نكره هذه النزعة الغالية، وهذه الثقافة الببغاوية الصورية التي يتمشدق بها بعض الشبان المتطرفين. أما علومها وأما ثقافتها الجدية وصناعاتها النافعة فإننا في مقدمة من يحبِّذها ويدعو إليها، ولكن بعد غرس العصبية الدينية والعاطفة القومية في نفوس الناشئة حذرًا من هذا الفناء وهذا الادّغام المشين".

وقد قال الحامد كلامًا مشابهًا فيما يتعلق بالشعر في المقدمة التي كتبها لديوانه الثالث (على شاطئ الحياة)، بل استعمل كلمة (الادّغام) نفسها وليس الإدغام كما كتبت خطأً في الديوان:

"... وإنما نأبى كل الإباء تلاشي روح أدبنا التاريخي القديم وادّغامه في أدب أية أمة أخرى، لاسيما ونحن نرى ثروة لغتنا بأساليبها وبيانها قادرة على هضم كل ما يعرض لها من المعاني السامية والصور الشعرية الطارئة من الآداب الأخرى."

وأنا أود هنا أن أربط بين هذا الموقف الفكري المبدئي وبين المواقف المشابهة، التي عبر عنها الشاعر صالح بن علي الحامد في كثير من قصائده، والتي أجد أصداءً لها عند شعراء عرب من أتباع المدرسة الرومانسية، وأقصد بها المواقف التي تنبثق من هذا الشعور بالهوية القومية التي تشمل في نطاقها النزعة الروحية الدينية؛ إذ يكاد كل الشعراء العرب في النصف الأول من القرن العشرين يربطهم شعور واحد وفكرة واحدة هي أنهم أمة واحدة تتشارك الآمال والآلام وأنهم "كلهم في الهمِّ شرقُ" كما قال أميرهم شوقي. وكنت في مقال قديم لي عن المؤرخ والأديب محمد عبدالقادر بامطرف قد قلت إن الشعراء الذين أتوا قبل موجة شعر التفعيلة حتى الرومانسيون منهم الذين يوصمون عادة بالذاتية والتحليق في سماوات الخيال "كانوا يهتمون بالجهارة والرنين في الشعر ويؤمنون بالوظيفة الاجتماعية للأدب، وبأن الأديب صوت أمته المعبر عن آمالها وآلامها، أو أنه نبي الإنسانية الذي يتقدم





الصفوف نحو آفاق الخير والجمال ليس بالكلمات فقط ولكن عمليًّا إذا اقتضى الأمر". وقد تكلم الدكتور البار عن شيء من هذا المعنى فيما يخص الحامد في دراسته عنه التي اقتبسنا منها آنفًا. ولقد تكلَّمْنا في بداية هذا المقال عرضًا عن حسين محمد البار، والد الدكتور عبدالله، بوصفه شاعر أغنية، وهو أيضًا من رُوَّاد التجديد والرومانسية في حضرموت، وقد رأى فيه المفكر سعيد عوض باوزير صورة الأديب (المجاهد)، التي كان يبحث عنها حبًا في حضرموت وتوقًا إلى نهوضها، وعبَّر عن هذا في المقال الذي أبَّنَهُ به في أعقاب وفاته - رحم الله الاثنين- إذ قال: "فهو بحق الشاعر الحضرمي الوحيد الذي ظل إلى أن فارق الحياة لسان حضرموت، الناطق المعبر عن أفراحها وأتراحها، المترجم لآمالها وآلامها... لقد كان البار هو الابن البار، الذي أعطى لشعبه من موهبته وفنه وفكره وإنتاجه وحياته كل ما يملك، لا يدخر وسعًا ولا يستبقي جهدًا".

عندما جد عزمي على كتابة هذا المقال، انطلاقًا من اقتراح عابر قدمه الصديق المُلهِم الدكتور شهاب غانم -وأعترف بفضله في هذا بعد فضل الله سبحانه وتعالى- تصفحت دواوين صالح الحامد الثلاثة، كما تصفحت بشكل أساسي دواوين أهم شاعرين رومانسيين وأشهرهما، أنجبتهما مصر، وهما علي محمود طه، وإبراهيم ناجي، فعشت بذلك لحظات ما أجملها وما أمتعها منتشيًا بأرق الشعر وأعذب الغناء وأصفى الفكر. وعدا عن السمات الرومانسية التي تكاد تشترك فيها هذه الدواوين، لاحظت هذه الروح القومية والوطنية الواحدة التي تسري فيها جميعها. فمثلاً في ديوان علي محمود طه الأول (الملاح التائه) نجد قصيدة بعنوان (الملك البطل) يرثي فيها فيصل الأول ملك العراق، مع أنه لا يذكر اسمه، ولكن يضع تحت العنوان تقديماً يقول: "نُظمت على أثر وفاته فجأة في مدينة برن بسويسرا، وقد كانت فجيعة العرب فيه أبعد أثرًا من كل الفجائع التي توالت عليهم من أيام الحرب الكبرى الماضية. وقد كان رحمه الله أول ملك عربي عمل جهده لاستقلال (العراق) بلاده المحبوبة، ومن أعظم الرجالات الذين كرسوا حياتهم لخدمة القضية العربية". وفي الديوان الأول للحامد (نسمات الربيع) نجد له قصيدة يرثي بها الشخصية نفسَها تحت عنوان (ملك العرب.. فيصل)، ويقول التعليق تحت العنوان: "ألقاها الشاعر في حفلة تأبينه بالنادي الأدبي العربي بسنقافورة في ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٥٢ و ١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٣م"، ونختار منها هذه الأبيات:

ويح الأثير وما يردد موجه
كم ذا يهيج من الأسى ويثيرُ
يا بؤسه إذ قال أودى فيصل
بطل العروبة فردها المنظورُ
نبأ دوى كالصور يخترق الفضا
كادت جبال الشرق منه تمور
رجفت له أرض العروبة رجفة
منها انحنى رضوى وماد ثبيرُ
أفلا تذوب لهوله مهج الورى
ولو انها بين الضلوع صخور؟
لم يرزء الدهر العراق بفقده
كل الشعوب لرزئه موتورُ
الخطب خطب الشرق قد أضحى له
في كل جانحة يُشَب سعيرُ
فبحضرموت أسى وفي مصر جوى
وبمغرب دمع يفيض غزيرُ
وكذاك في صنعاء والأردنّ بل
في سنقفورَ أسى عليه مريرُ

وعلى أن هذه القصيدة المناسباتية ليست من عيون شعر الحامد وله مناسباتيات رائعة فإنني استشهدت بهذه الأبيات بالذات لكي أخلص إلى القول إن هذه ليست مبالغات شاعر، بل هي الحقيقة، ففي مصر جوى، فعلاً، عبر عنه علي محمود طه كما سبق، وفي الشام الذي يمثله الأردن في الأبيات كتب الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير) واحدة من أجمل قصائده يقول مطلعها:

لبست بعدك السوادَ العواصم   واستقلت لك الدموعَ المآتم

وفي حضرموت أسى نستدل عليه بما كتبه أحد مثقفيها، وهو سعيد عوض باوزير، ليس في هذه المناسبة ولكن في مناسبة مصرع الملك غازي الأول، ابن الملك فيصل نفسه، الذي مات في عام ١٩٣٩م بطريقة مشبوهة مشابهة لحادث وفاة والده، والمتهم في الحالتين هم الإنجليز طبعًا. كان باوزير حينها في عدن، ووصف أثر النبأ على هذه المدينة العربية الصابرة في مذكراته، فقال تحت عنوان (الفاجعة الكبرى): "أصبحت عدن في حداد حزين شامل، فأقفلت المتاجر والمخازن، ورفعت الأعلام السوداء، ومشى الناس في حفل مهيب صامت مؤثر حيث أدوا الصلاة لروح الفقيد العظيم وتبادلوا عبارات التعزية، فكنت تشعر حقًا بأن العرب في عدن لم يكونوا أقلَّ حُزنًا من إخوانهم في بغداد، وأقيمت حفلات التأبين الكبرى في عدن والتوّاهي والشيخ عثمان". وجدير بالذكر أن في ديوان الحامد الثاني (ليالي المصيف) مرثية عصماء في الملك غازي الأول هذا.

حقًّا لقد كنا (شرقًا) واحدًا كما أبدع في تصوير تلك الوحدة واللحمة، التي أضعناها اليوم من بين أيدينا، أمير الشعراء شوقي، إذ قال:

كان شعري الغناءَ في فرح الشرق وكان العزاءَ في أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح وأن نلتقي على أشجانه
كلما أنّ بالعراق جريح   لمس الشرق جنبه في عمانه

وقصيدة الحامد الرثائية تلك بوزنها ورويها وقوافيها تذكرني بقصيدة (الدمعة الخرساء) للشاعر المهجري الكبير إيليا أبو ماضي، وهي قصيدة تعجبني كثيرًا حتى إنني أعود إليها للتلذذ بقراءتها بين الحين والآخر، وهذا ما جعلني أتذكرها على الفور عند قراءتي لمرثية الحامد في ملك العراق. لقد تحدث النقاد عن تأثر الحامد ببعض الشعراء الرومانسيين العرب، وساقوا شواهد من شعره وشعرهم على وجود تشابه في الأوزان والقوافي، وبعض الألفاظ بينه وبين أبي القاسم الشابي، مثلاً، وبينه وبين علي محمود طه، خاصةً في قصيدة الأخير عن (بحيرة كومو) في إيطاليا. وها أنا أدلي بدلوي فأشير إلى التناص بين الحامد وأبو ماضي في أكثر من بيت في قصيدتيهما (ملك العرب)، و(الدمعة الخرساء). يقول الحامد:

والناس باكٍ للفجيعة نادب   يذري الدموع وذاهل مذعورُ
قتمت له الدنيا وغُمّ سبيلها   وكأنها وقفت فليس تدورُ
حالت لناظره المحاسن كلها   وحياله صور الجمال كثيرُ

فهذه الأبيات الثلاثة فيها صدى واضح في الصور والألفاظ والتعابير من قول أبو ماضي في قصيدة (الدمعة الخرساء):

وجمت فأمسى كل شيء واجمًا   النور والأظلال والديجورُ
الكون أجمع ذاهل لذهولها   حتى كأن الأرض ليس تدور
لا شيء مما حولنا وأمامنا   حسن لديها والجمال كثيرُ

وتأمّل الجناس الجميل في بيت الحامد الأخير بين كلمة (حالت)، وكلمة (حياله)!

ولما كانت الدواوين الأولى للشعراء الثلاثة علي طه وناجي والحامد قد صدرت بعد مدة وجيزة من انقضاء عام ١٩٣٢م، وهو العام الذي شهد رحيل الشاعرين الكبيرين الصنوين شوقي وحافظ، لم يخل ديوان من هذه الدواوين من رثاء لأحد الشاعرين أو لكليهما، بل إن الشاعر إبراهيم ناجي رثى شوقي بأربع قصائد ألقيت في





مناسبات مختلفة ونشرت كلها في ديوانه الأول. وسأنقل فيها يأتي أبياتًا مختارة من إحدى هذه القصائد، تظهر فيها أيضًا الروح القومية الأصيلة عند هؤلاء النفر الكريم من الشعراء، ويشير فيها ناجي إلى البيت الشهير لشوقي من قصيدته عن دمشق:

وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرجة يُدَقّ

تقول أبيات إبراهيم ناجي:

شوقي نظمتَ فكنت براً خيرا
في أمة ظمأى إلى الأخيار
أرسلت شعرك في المدائن هاديا
شبه المنار يطوف بالأقطار
تدعو إلى المجد القديم وغابر
طيّ القرون مجلل بوقار
تدعو لمجد الشرق تجعل حبه
نصب القلوب وقبلة الأنظار
تبكي العراق إذا استبيح ولا تضنّ
على الشآم بمدمع مدرار
وترى الرجال وقد أهين ذمارهم
خرجوا لصون كرامة وذمار
فلو استطعت مددت بين صفوفهم
كفا مضرجة مع الأحرار

الحامد وباكثير وحضرموت

في هذا المنعطف من حديثي عن الشاعر صالح بن علي الحامد، أجدني ميَّالاً إلى الربط بينه وبين أديب حضرمي آخر عاش في الفترة نفسها تقريبًا، وخرج من المدينة الحضرمية (سيئون) نفسها، وكلاهما فتح فتحًا جديدًا في الشعر، كل منهما على طريقته، ذلك هو – بلا شك – الأستاذ علي أحمد باكثير. لقد قدم باكثير الديوان الأخير للحامد (على شاطئ الحياة) بقصيدة ذات طابع خاص من ناحية الشكل، يشبه نظام الثنائية (couplet) في الشعر الإنجليزي، ذكر وتذكّر فيها بحنين وشجن أيامه في سيئون، وخاطب صاحب الديوان غير مرة بطريقة تشعرك بالألفة العميقة وصفاء المودة بين الرجلين: "يا صالح"، فقال:

آهًا لسيئون وأيامها   هيهات يا صالحُ أن تنسى
أذكرها اليوم فأبكي لها   وكانت البهجة والأنسا
يا شاعر الأحقاف لا أقفرت   تلك المغاني من أغاريدك
غرد على العلات فيها فقد   تُبعث يوما من أناشيدك
غرد وإن عزّك ذاك الطلب   وضاع فيها منك صوت وصوت
حسبك أن تصغيَ دنيا العرب   للشاعر الصداح من حضرموت

وعلى ما في القصيدة كلها من نبرة حزن وأسى وتفجع على حضرموت؛ إذ يبدأها باكثير بهذه الثنائية التي تشبه اللوم والعتاب الرفيق بين الأصفياء:

صالح هاجتنيَ ألحانك   رحماك! ما شأني وما شانُك؟
قد كدت أسلو عهد ذاك (الحمى)   حتى جلاه لي ديوانُك

فإن الثنائية الأخيرة التي أوردناها قبل قليل ضمن الثنائيات التي ختم بها باكثير قصيدته تحمل نغمة مريرة من خيبة الأمل: "وضاع فيها منك صوت وصوت" قد لا تفلح في التخفيف من لوعتها محاولةُ التسرية والتعزية التي جاءت في البيت الأخير:

حسبك أن تُصغيَ دنيا العرب
للشاعر الصدّاح من حضرموت

وأنا أفهم هذه التعزية على أنها ليست موجهة إلى صاحب الديوان الحامد فقط، بل ربما يقصد باكثير أن يعزِّي بها نفسه أيضًا وكل (الأصوات) التي بُحّت وهي تستنهض الغافلين في حضرموت وتحاول إيقاظهم كي يبحثوا عن مكان لهم تحت الشمس، مثل عبدالرحمن بن عبيد الله السقاف وحسين محمد البار وسعيد عوض باوزير وغيرهم من الشعراء -بالذات- الحضارمة. وأن يختم باكثير قصيدته باسم (حضرموت) فيه ما فيه -كما أرى- من مغزى ومعنى



الحب والتعلق والارتبـــاط بهذا الوطن أو (الحِمى)، كما سماه في بداية القصيدة، رغم تصريحه بأنه قد كاد يسلوه!

وقد سنحت الفرصة للقاء الصديقين عندما زار صالح الحامد مصر في الفترة من ٤ أبريل إلى ٢٨ مايو من عام ١٩٥٣م، أي بعد أيام قليلة من وفاة الشاعر إبراهيم ناجي، الذي توفي بتاريخ ٢٤ مارس ١٩٥٣م، كما أثبت ذلك حسن توفيق أيضًا، وبعد أقل من عام من قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م. كتب صالح الحامد في يومياته: "لقد أتيح لي عهد إقامتي بمصر حضور بعض الحفلات، منها حفلة ذكرى عبدالقادر الحسيني، أحد الشهداء بفلسطين التي أقامها فلسطينيون في دار الشبان المسلمين بمصر، وكانت فرصة لسماع خطابة بعض الشخصيات، منهم مفتي فلسطين السيد أمين الحسيني وزعيم مصر محمد نجيب وعدد من الخطباء والشعراء من فلسطينيين ومصريين ومغاربة". والتقى الحامد في هذه الزيارة بعدد كبير من الشخصيات، وزار كثيراً من المعالم، وسجل كل ذلك في مذكراته عن الزيارة، التي كان باكثير هو المعني بترتيب برنامجها، وكان هو الأكثر مرافقة للحامد، وسلَّمه خلالها قصيدته (يا شاعر الأحقاف)، التي قدَّم بها ديوان الحامد الثالث (على شاطئ الحياة)، والتي تحدَّثنا عنها باستفاضة في بداية هذا الجزء من المقال.

ولعله قد آن الأوان أن نقتبس من عيون شعر شاعرنا صالح بن علي الحامد في باب الاستنهاض واستثارة الهمم نحو العمل والبناء والتسلح بالعلم والنعي على الخمول والجهل والموات. يقول الشاعر الحامد في قصيدة له بعنوان (المعهد العلمي) ألقاها "في حفلة المدرسة السلطانية بالمكلا، التي كانت تحت إدارة الأستاذ الكبير سعيد القدَّال عند زيارة وفد حضرموت الداخل لها بحضور عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطي في يوم ٣ ذي الحجة من سنة ١٣٥٩هـ ١ جنواري سنة ١٩٤١م":

رحماك يا ربي ورشدك في هدى ... شعب تخبط في ظلام ضلالهِ
فلكم بذلت له جميل النصح في ... أبكاره حينًا وفي آصالهِ
كم ضجة مرت على أسماعه ... عبثًا تكاد تهز شم جبالهِ
أسمعتُ لو حيا دعوتُ كأنني ... غيلان معتكف على أطلالهِ
آه على وطن تأصل داؤه ... وبنوه أصل وبائه ووبالهِ
أتراه عق أبا فأسلم ربنا ... سوط العقاب له بكف عيالهِ؟

* * *

يا فتية الأوطان حان جهادكم ... شدوا العزائم لاقتحام مجالهِ
وابنوا على الأعمال أس حياتكم ... ما المرء في الدنيا سوى أعمالهِ
واستكملوا الخلق الرفيع وسمته ... فالشأن كل الشأن في استكمالهِ
خوضوا ببحر العلم جم فنونه ... لا تقنعوا عن غمره بضحالهِ
ما قام بالأوطان غير مثقف ... غير المكارم لا يجول ببالهِ
الدين والأوطان ملء عروقه ... والمجد شغل فؤاده وخيالهِ
جرت النزاهة في أسرّة وجهه ... وتمثل الإخلاص في سربالهِ
أنتم بنو الوطن العزيز وفيكمُ ... ترجى سعادة حاله ومآلهِ
أشباله أنتم وعدّته وهل ... للغاب من حام سوى أشبالهِ؟
أنتم مشاعله ومظهر عزه ... وعماد نهضته ورمز جمالهِ

سنقافورا الحامد ومصر باكثير

– شعر المرأة والحب –

بدأنا حديثنا عن صالح الحامد بذكر إسهامه في رفد عالم الغناء والمغنين ببعض أشعاره، ونختم الحديث عنه بمواصلة الخوض في هذا الجانب اللذيذ من شخصيته وسيرته، والتوسع فيه ليشمل جانبا ألذّ وثيق الصلة بالغناء، ذلك هو موضوع المرأة وعاطفة الحب نحوها، مع الموازنة والمقارنة بينه وبين صديقه الأديب علي أحمد باكثير، وكيف تناول كل من الأديبين هذا الموضوع الحسَّاس في أدبه.

إذا كان صالح بن علي الحامد قد صدرت له ثلاثة دواوين -اثنان منها في حياته - قام بنفسه باختيار قصائدها؛ بوصفها تمثل شعره الجيد، الذي بلغ مستوًى من النضج





مُرضيًا له، فإن علي أحمد باكثير لم يصدر له أي ديوان في أثناء حياته، ولكن الدكتور أحمد عبدالله السومحي اطلع على أشعاره المحفوظة لدى أسرته في مصر، وكتب عنه كتابه المعنون (علي أحمد باكثير.. حياته وشعره الوطني والإسلامي)، ونشر أكثر من دراسة عن أدبه وشعره، استفدْنا منها في هذا المقال. وينتظر أن تصدر قريبًا – إن شاء الله – الأعمال الشعرية الكاملة لباكثير، التي اجتهد في جمعها وإعدادها على مدى سنوات طويلة الصديق الدكتور محمد أبوبكر حميد، وحينَها سيتمكن النقاد والباحثون من الحكم على شعره من خلال نظرة شاملة.

يعد موضوع المرأة والتغني بجمالها وسحرها وفتنتها وتعشُّقها من المواضيع الأثيرة عند الشعراء الرومانسيين، ومنهم الشاعر صالح بن علي الحامد، فإن أشعاره التي تتناول هذا الموضوع، خاصة في ديوانيه الأوّلين، تمثل نسبة عالية، كما أن مستواها الفني من النضج والجودة بمكان متقدِّم، ويبدو أنه يقتفي فيها أثر علي محمود طه وإبراهيم ناجي وأبي القاسم الشابي، ولعله من هذا الأخير أخذ لفظة الهيكل بمعنى المعبد التي تكررت عنده، والشابي كما هو معروف هو صاحب القصيدة الذائعة والرائعة (صلوات في هيكل الحب)، كما ورد في إحدى قصائده اسم (فينوس) ربما تأثرًا بالشابي في قصيدته هذه نفسها. واللافت أنه في مقدمة ديوانه الثاني (ليالي المصيف) (نظّر) لهذه الظاهرة في شعره ودافع عن التغني بالجمال الإنساني المتمثل في "ألطف مظهر له وهو المرأة"، ودافع عن شعر الحب بهذه الكلمات الصريحة: "فشعر الحب أصدق الشعر وأخلصه، إذ هو ناتج عن أقوى الانفعالات العاطفية وأشدها أثرًا، بل ربما يصح لنا أن نجعل ما لدى الشاعر من عاطفة الحب مقياسًا لما له من حدة الشعور وإرهاف الوجدان". وإذا كان الحامد قد تحفظ بعد ذلك في جزء لاحق من المقدمة نفسها فتحدث عن (النظر الفني الصوفي) و(النظرة الصوفية النزيهة) فإنني لا أعد هذا إلا نوعًا من التمويه وذرًّا للرماد في العيون فقط. وفيما يأتي نموذج معبر من شعر المرأة والحب عند الحامد بعنوان (سمراء)، نلاحظ فيه هذا التناصَّ العجيب مع (شاعر المرأة) نزار قباني – الذي جاء متأخرًا عن الحامد قليلاً – في صورة العصفور بين اليدين، ولكن في حين تقول المرأة التي يتقمص نزار شخصيتها:

وبدون أن أدري تركت له يدي لتنام كالعصفور بين يديه

نجد الآية تنعكس عند الحامد فيتمنى الرجل الذي يتحدث باسمه الشاعر لو عاش قلبه كالعصفور بين يدي سمرائه:

سمراء كم لك هام قلبي راجيا
لو عاش كالعصفور بين يديك
جذلا ببذل الأسر عندك راغبا
عن عيشه بين الربى والأيك
ولئن نأيت فكم بعثت على النوى
روحي على ظهر الخيال إليك
ترعاك من مقل النجوم وتارة
تهوي إذا يهوي الصباح عليك
وبعثت شوقي في النسيم لعله
عني ينال الضم من عطفيك
أودعته قُبَلي إليك فهل أتى
ليزف قُبُلاتي إلى شفتيك؟

وحتى في قصيدته بعنوان (الشاي)، بعد أن وصف الشاي ذلك الوصف الجميل الشهير يخلص منه إلى التغني بالحبيب الذي كان نديمه على كأس الشاي؛ ولأن هذه القصيدة من غرر قصائد الحامد كما يصفها الأستاذ الصبان وهي ليست طويلة فسأنقل نصها الكامل فيما يأتي:



روّق لها مـاء الغمام وهاتها
ليَ والحباب يدور في جنباتها
صهباء ما عبثت بها يد عاصر
ما عاشرت إلا أكف سقاتها
من جيد الشاي استحال عصيرها
فأتت تحاكي الشهب في جاماتها
قد راق منظرها ورق زجاجها
فلعلة لم يدهقوا كاساتها
لولا انتصاف الكأس خيل أنها
في كف ساقيها تقوم بذاتها
وإذا الهموم على النديم تكاثفت
وبدت أشعتها جلت ظلماتها
فبها غنيت عن التي سلب النهى
من شأنها والإثم من تبعاتها

* * *

يا ساعة مرت كلمحة بارق
ذاقت بها نفسي نعيم حياتها
عاطيت فيها الكأس خوداً كاعباً
ماء الشباب يجول في وجناتها
فتمايل الأغصان في أعطافها
وشمائل الصهباء في نظراتها
جاءت إلي وخدها متورد
جزعا لخوف رقيبها ووشاتها
قلت استقري واهدئي حتى إذا
سكنت بلغنا في المنى غاياتها
طورا تنازعني الحديث وتنثني
طوراً عليَّ بعتبها وشكاتها
فأجيب معتذرا لها وأود لو
أني بذلت الروح في مرضاتها

* * *

أوتيت ذاك اليوم لذاتي
ولكنني كففت النفس عن حرماتها
الله يعلم ما هممت بريبة
ولتذهب الغوغاء في تهماتها
لا يحفل العف الكريم بقول من
نسبوا إليه فريّة لم يأتها

لم يعرف عن باكثير أنه كان متأثراً بالرومانسية على الرغم من أنه نشر شعره في مجلة (أبوللو)، ويصف صديقه الدكتور عبده بدوي موقفه من الحب فيقول: "فهو لا يخلص قلبه للحب، ولا يهبط إلى صميم التجربة، ولا يقتحم على ما يريد بجسارة، وإنما نراه مجرد مشاهد، ومجرد متأمل، ومجرد مشغول بالتراث!" إن تناول باكثير لموضوع الحب عادة ما يكون مشوبًا بعقدة الشعور بالإثم، فهو يعنون إحدى قصائده الرائعة التي كتبها مع بداية إقامته في مصر بعنوان (بين الهدى والهوى)، وهو يصف فيها كيف وقف (الشاعر التقي) يصلي الفجر، وفيما هو يؤدي الصلاة رأى فتاة جميلة تسقي الزهور في شرفة البيت المجاور فصرفته عن الخشوع في الصلاة، وهذا المقطع من القصيدة يصور هذه اللحظة الحرجة:

مر في سمعه حفيف لسهم   ناشب في فؤاده المنكوب
ما وعى السمع أو درى القلب إلا   بعد حين من وقعه والنشوب
من رماه وأي نصل وعن أية   قوس رمي وفي أي حُوب؟
ولوى الجيد يسرة فإذا هو   بمثال من الجمال النجيب
قمر طالع عليه من الشرفة   يرنو إليه كالمذهوب
لفتته الصلاة نحو المصلى   فادّراه بكل سهم مصيب
رب ماذا أرى؟ ألمحة نور   منك أم وهم ناظر مكذوب؟
أم ملاكا بعثته بقبولي   ونجاح المؤمل المطلوب؟
رب قلبي صبا إليه كأن لم   أكُ في موقف الصلاة الرهيب
أين ولى اطمئنان نفسي ومن لي   بخشوعي إليك والترحيب؟
رب حل الهوى محل الهدى   في القلب ويلاه رب عاف الذي بي
وانتهى من صلاته وهو يهذي   بضلالات شعره والنسيب





بل إن كتابته لرواية (سلامة القس) كانت من أثر انشغاله بهذه الفكرة.. فكرة الصراع بين العاطفة الفطرية نحو المرأة وبين الوازع الديني، وقد تعمق الدكتور السومحي في دراسة هذه الرواية، وبيّن كيف أنها تمثل شخصية باكثير نفسه من خلال بطلها عبدالرحمن بن أبي عمار، وتستلهم البيئة الحضرمية المحافظة أكثر مما تصوِّر البيئة الحجازية في عصر سلامة وعبدالرحمن القس. ومعروف أن هذه الرواية تحولت إلى فيلم سينمائي غنائي، مثَّلت فيه أم كلثوم دور سلامة وغنَّتْ من شعر باكثير هذه الأبيات التي ذاع صيتها:

قالوا أحب القس سلامة وهو التقي الورع الطاهر
كأنما لم يدر طعم الهوى والحب إلا الرجل الفاجر
يا قوم إني بشر مثلكم وفاطري ربكم الفاطر
لي كبد تهفو كأكبادكم ولي فؤاد مثلكم شاعر

وقد فاجأنا الدكتور محمد أبوبكر حميد في مقال له نشر في صحيفة (اليوم السابع) المصرية بأن كلمات أغنية (غني لي شوي شوي) الشهيرة التي ظهرت في الفيلم نفسه بصوت أم كلثوم ولحن زكريا أحمد كتبها علي أحمد باكثير بناءً على طلب أم كلثوم "ولكنه لظروف شخصيته المحافظة الرزينة طلب أن لا تنسب هذه الأغنية إليه، ثم ذاع بين الناس أنها من كلمات بيرم التونسي؛ لأن هذا الأخير كتب قصائد عامية أخرى للفيلم فيما بعد". ويهمُّنا من هذه الرواية الإشارة غير البعيدة عن الحقيقة إلى شخصية باكثير "المحافظة الرزينة" التي لا يُستبعد -فيما نرى- أن تأنف من اقتران اسمها بأغنية خفيفة لاهية مكتوبة باللهجة العامية، ولربما كان باكثير - من ناحية أخرى - يعد هذا نوعًا من الخيانة لمبادئه ورسالته العروبية!

وقد كتب الدكتور أحمد عبدالله السومحي بحثًا جميلاً عن المرأة في شعر باكثير، ومما جاء في هذا البحث قوله - الذي ننقله بتصرف يسير - إن باكثير: "مثقل بقيود دينية واجتماعية وشخصية قديمة، ظلّت تطارده وعاش في علاقته بالمرأة في تناقض عجيب، فبينما تراه يقول شعرًا مغرقًا في الحِسِّية أحيانًا، إذا به يتفلسف في صوفية غامضة".

ويبدو أن صالح الحامد، في أشعار الحب والمرأة عنده، كان أكثر انطلاقًا وتحرُّرًا من عقدة الشعور بالإثم -وما جاء في نهاية قصيدة الشاي، من تبرئة لنفسه من الريبة، شيء آخر مختلف- ولم يكن هذا الأمر ليسيءَ إلى مقامه في المجتمع أو يعيبَه بوصفه عالمًا وفقيهًا. وقد نقل لي ابنه الأستاذ غالب قصة نظمه للقصيدة الغزلية المغناة (أيا ثملَ الجفون بغير سكرٍ) الموجودة في ديوانه (نسمات الربيع)، ويطيب لي أن أرويها هنا بطريقتي الخاصة، وأختم بها هذه الخواطر والتأملات عن الشاعر صالح بن علي الحامد كما بدأتها بالقصيدة المغناة (قف معي نشهد جمالا)، وبالمناسبة فكلتا القصيدتين من عشرة أبيات.

ولد صالح بن علي الحامد بمدينة سيئون في عام ١٩٠٣م، من أم إندونيسية الميلاد حضرمية الأصل. سافر للمرة الأولى إلى الشرق الأقصى وبالتحديد سنقافورا مع والده في عام ١٩٢٣م وهو في نهايات العقد الثاني من عمره، ثم عاد إلى حضرموت، وبقي يتردد على سنقافورا، وطاف وجال في جزائر الشرق الأقصى وإندونيسيا؛ إذْ كانت مصدر وحيه وإلهامه، ولكَمْ تغنَّى بجمال طبيعتها في كثير من أشعاره، وقد قال قصيدته التي بدأنا بها هذا الحديث (قف معي نشهد جمالاً) في جزيرة جاوا بإندونيسيا، وكان الفنان شيخ البار قد غنَّاها في جاوا، ربما بلحن آخر وضعه لها غير اللحن الذي غناها به محمد جمعة خان!

ذلك الشاب السيئوني الوقور، الحضرمي النشأة، ذو الثقافة الدينية المحافظة، ابن الأسرة الثرية، كان آنذاك أحد الشخصيات المرموقة في مجتمع سنقافورة، أديبًا شاعرًا ذا حضور فاعل في الصحافة العربية المصرية وفي

المهجر الإندونيسي، قياديًا في النادي العربي بسنقافورا، ذا نشاط اجتماعي وديني، منفتحًا في علاقاته، شغوفًا بمعرفة الجديد. وفي يوم ١١ يوليو ١٩٣٦م، كان حاضراً في حفل سنقافوري، غريب عما اعتاد عليه، أقيم تكريماً للشخصية المشهورة عربيًّا وآسيويًا الأستاذ السيد إبراهيم بن عمر السقاف بمناسبة منح الحكومة المحلية إياه لقب (J P). وهذه الشخصية ذكرها المستشار الإنجليزي بحضرموت هارولد إنجرامز في كتابه (وصف رحلة إلى الملايو وجاوة وحيدرأباد)، الذي ترجمته وصدر عن دار (مكتبة الصالحية للنشر والتوزيع) على نفقة الأخ العزيز الشيخ عبدالعزيز بن علي بن صلاح القعيطي، وقال إنجرامز عن السيد السقاف: "على الرغم من أن السيد إبراهيم بن عمر السقاف ينتمي إلى عائلة حضرمية معروفة، فإنه لم يعش مطلقًا في حضرموت. فقد ولد في مكة ونشأ في الحجاز وقدم إلى سنقافورا في عام ١٩٢٥م، واهتماماته الأساسية مرتبطة بسنقافورا رغم محافظته على اهتمامه بالشؤون العربية".

كان الذي أقام الحفل هو السيد أحمد بن محمد السقاف، وقد طلب من السيد الحامد أن يلقي كلمة شكر وترحيب بالضيوف باسم الجالية العربية بسنقافورا، وكان الحفل يضم أكثر أعيان سنقافورا بل صفوة المجتمع السنقافوري كلهم، وفجأة دخل صف من الحِسان وتحلّق حول طاولة واحدة، وكانت العيون الساحرة تبث الشعر والسحر حول الحفل، وكانت من بينهم فتاة أرمنية رائعة الجمال اسمها (فينج) فتن بها الشاعر الرقيق الحساس، ولم يتمالك نفسه فكتب فيها عشرة أبيات من وزن القصيدة الطويلة نفسها وقافيتها، والتي ألقاها في حفل تكريم آخر للشخصية نفسها أقيم في النادي الأدبي العربي بسنقافورة وهي موجودة أيضًا في ديوان نسمات الربيع ومطلعها:

هلمّ فذا الأصيل زها سناهُ   وهذا الحسن ماثلة رباهُ

وفي هذه القصيدة لا ينسى أن يكرر مناشدته للشعب الحضرمي أن يهب من نومه فيقول:

محال أن يشاد خراب شعب   غراب الجهل عشش في ذراهُ
أناشده الشعور بملء صوتي   وما عرف الشعور وما دراهُ
تقدمت الشعوب إلى علاها   سراعًا وهو يحلم في كراهُ

فأي القصيدتين يا تُرى كتبت في البداية ثم تأثرت بها القصيدة الأخرى.. قصيدة الحسناء الأرمنية أم قصيدة السيد السقاف، الذي كان هو من ترجم أبيات التغزل في الفتاة الأرمنية إلى الإنجليزية وقدمها لها فجنَّ جنونها وطارت فرحًا! وهذه هي الأبيات العشرة:

أيا ثمل الجفون بغير سكر   ألا تدري بطرفك ما جناهُ؟
بقلب لا يلين صفاه لكن   لهذا السحر ما قويت قواهُ
فهل من عاصم من بطش لحظ   إذا لم يغزه قلبي غزاهُ؟
وهل تغني الوقاية منه لما   تدفق في دمائي كهرباهُ؟
أغانٍ في إزارك أم ملاك   لفتنة خلقه الباري براهُ؟
نزلت من السماء سنى وسحرا   لكي تغزو ابن آدم في ثراهُ
تغلب سحرنا زمنا ودنّا   لطرفك حينما ألقى عصاهُ
هنا لهواك في الأحشاء قرح   مضى عنه الطبيب وما شفاهُ
محال برؤه إلا إذا ما   تلاصقت الجوانح والشفاهُ
حنانَك بالمتيم كيف ترضى   بأن يفنى احتراقًا في هواهُ؟!

هذه القصيدة قام بعد ذلك الفنان البارز أبوبكر سالم بلفقيه بنبشها، وبذوقه الأدبي والموسيقي انتقى منها أبياتًا لحَّنها وأدَّاها مع (كورس) نسائي بطريقة رائعة شدّتني عندما استمعت إليها في (اليوتيوب). وغنَّى هذه القصيدة أيضًا كثيرٌ من المطربين، منهم الفنان السعودي طلال سلامة، ومن حضرموت كرامة مرسال وعمر الهدار وغيرهم. ولعل أكثر هؤلاء الذين غنوا الأبيات – إن لم يكن كلهم – لا يعلمون أنها للشاعر الحضرمي الكبير، صالح بن عليٍّ الحامد..!

غيل باوزير
١٤ نوفمبر ٢٠٢١م





جَدلُ الإدام - تعقباتُ على مقال

(٢ - ٢)

«ملاحظات على طبعة دار المنهاج لكتاب إدام القوت»



د. محمد أبوبكر باذيب

الفقرة السادسة عشرة

اشتملت على سخرية شديدة من ترجمتي للشيخ الصالح سعيد بلحاف، وليس فيها أدنى ملاحظة تاريخية أو استدراك علمي. وفوق السخرية هناك ادعاءٌ بخروج الترجمة إلى ما سمي بالسياق الصوفي الميتافيزيقي، على حد تعبير المقال. ولا أدري لماذا كل هذا السخاء بتلك الألفاظ السيئة وغير اللائقة. علاوة على أن الفقرة قد اشتملت على خطأ في تاريخ وفاة الفقيه المقدم، فهي سنة ٦٥٣هـ، وليست ٣٥٦هـ. وهذا بيان تشنيعات المقال:

أولاً: أما احتمالي المصدّر بـ«لعلّ» فليس فيه إثبات ولا جزم، فإن صح فبها ونعمت، وإن لم يصحّ فقد اجتهدتُ. وهذا الأسلوب سار عليه العلامة السقاف في مواضع من كتابه:

(١) مثال١: فهذه (عين بامعبد) التي ذكرها قبل بلحاف مباشرة قال فيها (ص ٦٥) بعد أن ذكر وجود ناسٍ من آل بامعبد في ميفع: «فيفهم منه أن العين منسوبةٌ إلى جدهم».

(٢) مثال ٢: وقال (ص ٧٧) عند حديثه عن بلدة حوطة الفقيه علي: «والحوطة المذكورة منسوبة للشيخ الجليل علي بن محمد ...»، إلخ.

(٣) مثال٣: ومثلها بلدة روضة بني إسرائيل (ص ٧٨) قال: «منسوبة إلى أخيه إسرائيل بن محمد». وقل مثل ذلك عن خلع راشد التي عرفت مؤخرًا بحوطة أحمد بن زين. فلم لا تكون بلحاف منسوبة إلى الشيخ سعيد بلحاف وهو معاصر للشيخ بامعبد الذي يذهب العلامة السقاف إلى احتمال نسبة بلدة عين بامعبد إليه، وهي قريبة من بلحاف!

ثانيًا: لماذا التهويل والإرهابُ بذكر مصطلحات يشعر قارئها وكأنه داخلٌ على فلمِ رُعب، وهو يقرأ: سياق صوفي!! أسطوري!!! أين هو السياق الصوفي الأسطوري؟ غاية الأمر أني ذكرت مطلع قصيدة لبلحاف عليها شرح لأحد الأعلام، فالمترجمُ متصوف وشعره رمزي، فما دخلي في تكوين شعره!

ثم إن العلامة السقاف ملأ كتابه بذكر كثير من الشؤون والاصطلاحات الصوفية، خلافًا لما يصوره المقال عن شخصيته وكتابه. فمن ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

(١) قوله في «الإدام» ص ٣٨٧: «الشّيخ الكبير سعيد بن عيسى العموديّ، وهو والفقيه المقدّم أوّل من سلك طريق التّصوّف بحضرموت».

(٢) وقال في ص ٤٣٧: «وسكّان أسفل القلعة آل باوزير المتصوّفة، وبها قبور جماعة منهم». وقوله ص ٥٦٧: «وكان آل باشراحيل وضعوا السّلاح ودخلوا في طريق التّصوّف، فقيل لهم: فقراء».



(٣) وقال في ص ٦١٠: «الشّيخ الكبير، العارف بالله، عبدالله بن محمّد بن عبد الرّحمن باعبّاد، وهو أوّل من اشتهر بالتّصوّف بحضرموت».

(٤) وقوله ص ٨٠: «وفي ميفعة كانت وفاة الشّيخ عبدالله الصّالح المغربيّ. وكان من خبره: أنّ الشّيخ أبا مدين أرسل بخرقة التّصوّف للفقيه محمّد بن عليّ بن محمّد، بمعيّة الشّيخ عبد الرّحمن بن محمّد الحضرميّ».

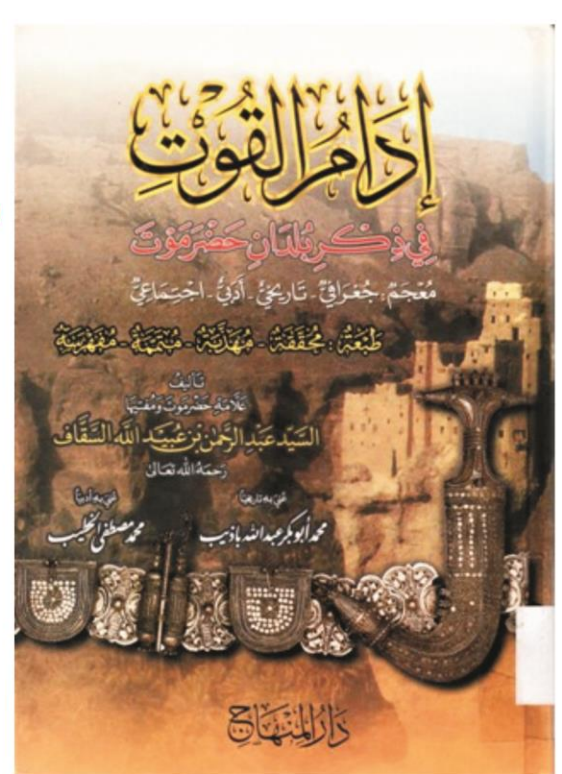
(٥) وقوله ص ٢٧٩ عند ذكر خنفر: «وفيها متصوّفة يسمّون البركانيّين، يدُهم للشّيخ مور بن عمر بن الزغب، وكانوا يسافرون بركب اليمن من الشّحر وأحور وأبين والجبل جميعه وتهامة جميعها، ويزورون قبر النّبيّ صل الله عليه وسلم وصحبة الصّوفيّ البركانيّ».

ثالثًا: إذا كان المقال يرى أن السقاف «يتميز بالبعد عن التفكير الخرافي». فلماذا لم يورد تعريفًا للتفكير الخرافي الذي ابتكره؟ ألم يضق رئيس التحرير بهذه التعميمات وقد انتقدَها في العدد نفسه بنقده الكتاب الذين لا يجيدون «سوَى إلقاء المفاهيم والمصْطلحات بتعميم شَديد: التراث العلمي الحضرمي، السياق المعرفي الإسلامي»(١٤)، إلخ.

رابعًا: عبارة: «لا يحق له بأي مقياسٍ من المقاييس أن ينشره متطفّلاً به على كتاب ابن عبيد (اللاه) [كذا]»،اهـ. أقول: تُرى ما المقاييس التي يتحاكم إليها؟ ومن هم واضعوها؟ وقبلَ هذا، ما الصفة التي بموجبها يتحكم المقال في قوانين عالم النشر والتحقيق؟ وإذا كان كلٌّ من حقق كتابًا، أو ترجمَ لأعلامه يعدّ متطفلاً؛ فإن محققي التراث كلهم متطفلون، بحسب (مقاييس) المقال. أيعقل هذا!

الفقرة السابعة عشرة

عاب المقال عليَّ ذكري كتاب «ما جاد به الزمان في أخبار حبان» في تعليقةٍ لي في (ص ٦٧). فلنذهب إلى حيث أشار فنقرأ قول السقاف عن بلحاف: «وهو مرسى لآل أحمد بن هادي، آل عزان»، انتهى كلامه. فعلقتُ بقولي (هامش ٢): «آل أحمد بن هادي: هم فخذٌ من فخائذ آل الواحدي حكام تلك النّواحي. ولمعرفة المزيد من التّفاصيل حول هذه الأسرة الواحديّة، ومعرفة أخبارهم؛ ينظر: «الشّامل» (٥٥-٦٣)، وفيه تفصيل لم يسبق إلى مثله، و«بضائع التّابوت» (٢/ ٣١٨-٣٢١)، و«ما جاد به الزّمان من أخبار مدينة حبّان» (١٠٢-١١٤)، و«معالم تاريخ الجزيرة العربيّة» (٢١٦-٢١٨)»، انتهى التعليق. كما ترون وثقت كلامي من أربعة كتب مصدران ومرجعان، ولم أكتف بالبكري والعليمي مؤلف «ما جاد به الزمان» الذي عاب علي رجوعي إليه. ترى ماذا في إحالتي على الكتاب المذكور؟ ما هي الجريمة العلمية في الأمر؟ هل لكون مؤلفه معاصرًا(١٥)؟ إن كان كذلك، فيقال فيه ما قيل عن «معجم المقحفي» الذي سبق الكلام عنه. وإن كان غير ذلك فأين الإفصاحُ والإيضاح؟



الفقرة الثامنة عشرة

فيها افتراءٌ علي، لأن التعليقة المنتقدة في (ص ٧٠) التي فيها تعريف بالشهور الميلادية وما يقابلها بالسرياني ليست





من كتابتي ولا من تعليقاتي، فليت المقال وفر سخريته:

حنانيكَ بعضُ النقْدِ أسوأُ من بعضِ

الفقرة التاسعة عشرة

هذه فقرة من الفقرات الساخرة الكثيرة، وليس فيها ملاحظة تاريخية ولا استدراك علمي. يعيب عليّ تعريفي بمدينة زبيد! ألم أنبه في تعليقتي عن زبيد على مصادر مهمة في تاريخها. وحجر زبيد لم أجِد لها ذكرًا في المراجع التي بين يديّ وإلا لأوردتُه. ثم إنني عرفتُ بمنطقة حَجْر حضرموت تعريفًا حديثًا وافيًا، اشتمل على ذكر المسافات الأرضية، وتحديد موقعها الجغرافي، ونص تعليقي في هامش صفحة ٩٢. وكله مفيد ونافع والحمد لله.

الفقرة العشرون

اشتملت على التشنيع والسخرية من تعليقتي التي نبهت على الفرق بين (باصرة الخامعة) الذي ورد ذكرهم، وبين باصرة من السادة آل باعلوي. فاستخفافُ المقال ليس بتعليقتي فقط، بل بعلم إسلامي عظيم هو علم (مشتبه النسبة)؛ وبيان ذلك: أن التعليق كان لتنبيه القارئ على وجود أسرة تحمل الاسم نفسه (باصرة)، من باب مشتبه النسبة، كما يعبر عنه المحدثون وعلماء الرجال في كتبهم. ليكون القارئ على انتباه عندما يطالع اسمَ هذه الأسرة في كتب التاريخ الحضرمي فلا يقع في اشتباه. وهذا التعليقُ من صميم عمل المعلِّق، وفيه إضاءةٌ للنص. فهل يستحق السخرية؟

الفقرة الحادية والعشرون

اشتملت على التشنيع والسخرية من تعليقتي في إيضاح بعض أنساب المذكورين في الكتاب. وزعمَ أن التعليقة (ص ١٠٣) لا تتلاءم مع سياق المؤلف، مع أن سياق المؤلف في ذكر أعلام منطقة حجر، وأنا قمت بمهمتي في التعريف بهم حسب منهجية العمل. فما الذي يدعو للعجب من ربط التعليقة بين الأعلام وذكر الصهارات والعلاقات الاجتماعية بينهم؟ والكتابُ مشحون بذكر النواحي الاجتماعية والروابط بين البيوتات. أما الصفحات المشار إليها، وفيها ذكر للسادة بني علوي بوادي حجر، فهي لم تخرج عن سياق المؤلف. ففي صفحة ١٠٤، هامش ٢، نبهتُ على وجود سقط في نص نقله السقاف من كتاب «شمس الظهيرة» [٢/٥٣٨]. وهذا يعدّ من واجباتِ المعلق. فعلام السخرية والتشنيع؟

الفقرة الثانية والعشرون

انتقد المقال تعليقتي (ص ١٠٥) في التعريف بمرسى بروم، فأورد كلام المؤلف، ووصف تعليقتي بأنها تكرارٌ، وتحاشَى ذكرها، فها هو ذا نصها: «بروم: ميناءٌ صغير غربيّ مدينة المكلا، بمسافة (٣٠) كم تقريبًا، كان بندرًا شهيرًا مأمونًا للسفن الشراعية أيام الرياح الموسميّة، تأوي إليه السفن عند اضطراب الأمواجِ وهيجَان البحر، ثم خَمُل دورُه بعد عمارة المكَلاّ، إلا أنه أعيد إنشاؤه حديثاً لكي يستوعبَ استقبال السفن وإمكانية تفريغها. وقد شهد العديدَ من الحوادث، سيذكرها المؤلفُ هاهنا»، اهـ. وهو مستقى من «الشامل»: ص ٤٣١ (ط. دار الفتح)، ومن غيره، فهل هو تكرار؟ أم هو من باب (عنزة ولو طارت!).

الفقرة الثالثة والعشرون

اشتملت الفقرة على مساوئ عدَّة. منها ادّعاء أني تبرعتُ بترجمة السيد حسن بروم! وتجاهل المقال نصَّ السقاف في الصفحة نفسها (ص ١٠٦) بقوله: «وإلى بروم ينسَبُ السّيّد حسن بن محمّد بن علويّ بن عبد الله بن عليّ بن عبد الله باعلويّ». ولم أزد في تعليقتي سوى إيرادي تاريخ وفاته موثقًا بذكر المصدر، فما المعيبُ وأين هو التبرع والإقحامُ هنا! كما جاء في تعليقتي نقلٌ مهمّ مناسبٌ للسياق عن كتاب «المعجم اللطيف في أسباب الألقاب



والكنى في النسب الشريف» للعلامة الشاطري فيه شرح لقب (بـرُوم). فاتهمني المقال بـأني أتفلسـفُ! ما دخل الفلسفة في النقل والتوثيق! هل هذا نقد موضوعي؟

الفقرة الرابعة والعشرون

شنع المقال في هذه الفقرة على تعليقـتي (ص ١٠٧) التي قـلتُ فيها إن مزاحـم باجابـر من أعيان القـرن التاسـع، استدراكًا مني على المؤلف في ذهابه إلى أنه من أعيان القرن الثامن. ومع أنه الموضع الوحـيد الذي تضمن اسـتدراكًا عليّ إلا أنه لم يوفق فيه. فاعتراضه خاطئ تمـامًا، وليـس في محله إطلاقًا. فمن توفي سـنة ٨١٧هـ يعد من أعلام القـرن التاسع لا الثامن. ولكن المقال يغالط، ويجهّلُ القراء.

وهذا بيان المغالطة:

(١) **أولاً**: اجتزأ المقال عبارة السقاف، وهذا نصها: «ومن أعيان بروم في القرن الثّامن العارفُ بالله الشّيخ مزاحم بن أحمد باجابـــر، أخذ عنه ســيّدنا الإمامُ الكبــير الشّيخ عبدالرّحمن السّقّاف، المتوفىّ بـتريم سـنة (٨١٩ هـ)»، اهـ. أقول: إن القارئ المتتبع لأسـلوب العلامة السقـاف يجزم أنه كان دقيقاً في نقله عن المصادر التي بـين يديه، وأنه كان يتطلب الأقــدم فالأقــدم منها، بــل نراه يرجع إلى كتب الكرامات والمناقـب ويسـتخلص منها معلومات تاريخية خلت منها المصادر المعروفة. من ذلك «الجوهر الشـفاف» للشيخ الخطيب الذي يتحاشـاه أكثر الباحـثين بحـجة أنه محشـو بـالكرامات والخرافات، ولكن السقــاف نظر فيه واستخلص منه أخباراً تاريخية وسياسية كثيرة.

(٢) **ثانيًا**: كان العلامة السقـاف حـريصًا على ذكر وفيات الأعلام، دقـيقًا فيها، لا يفوت تاريخًا يظفر بــه. ولكن في بعض الأحيان قد يحصل له بـعض الفوات، كما هو الحال في تاريخ وفاة الشــيخ مزاحــم المذكور، فإنه ومع وجود «تاريخ شنبـل» بـين يديه، ونقــله الكثير عنه، إلا أنه فاته الرجوع إليه في نقل تاريخ الوفاة. واعتمد في سَوق أخبارِه وتقريب الزمن الذي عاش فيه على كتاب «الجوهر الشفاف» فقط. فنقل من صفحة ١٠٧ عن الحكاية ٣٠٤ منه: قـصة حصول الشيخ مزاحم على خيمة هدية من سلطان اليمن. وفي صفحة ١٠٨ عن الحكاية ٣٤٤: أن أحمد بن علي باجابر كان إذا اجتمع بـعمه الشـيخ مزاحــم يســمعه يثني على الشيخ عبدالرحمن السقاف. قال المؤلف: «وكان ذلك قبل سـنة ٨٠٥هـ». ثم نقـل بـعد ذلك مباشرة عن «ســفينة البضائع» للعطاس تاريخ وفاة عبدالرحمن بن مزاحم سنة ٨٨٧هـ ببروم. فبـناء على هذه المعطيات، فقـد فهمتُ أن المؤلفَ لم يتوفر على تاريخ وفاة مزاحم، فأتيت به في تعليقتي نقـلاً عن «تاريخ شنبــل». وهذا يحصل كثيرًا للمؤلفين، فكثيرًا ما يكون مصدر تاريخ علم مهم بين يديه، ثم يغفل أو يتوه عنه ولا يقف عليه، لا يكون ذلك تجاهلاً منه.

وهذه نماذج لوفيات أخرى نسبها السقـاف لقـرن الوفاة وليس قرن الحياة، فالشيخ عمر بن عبدالله باجمال الشبامي عدَّه من أكابر أعيان القرن العاشر، ووفاته سـنة ٩١٦هـ. والشيخ محمد بـن أبي بـكر باعبـاد، عده من أعيان القـرن التاسـع الهجري، ووفاته سـنة ٨٠١هـ، وقـيل ٨٠٢هـ. فبـناء على هذا، نعلم يقـينًا أن من توفي سـنة ٨١٧هـ، يعدُّ قـطعًا من أعلام القـرن التاسـع، وليس من أعلام القــرن الثامن، كما هو صنيعُ كل المؤرخين عن بكرة أبيهم. وهذا الأمر من بـدهيات الاشـتغال بــالتاريخ والتراجم، فعُلمَ بهذا أن الاستدراك ليس في محله، وهو خطأ مردود.

الفقرة الخامسة والعشرون

اشتملت على عدة مساوئ. أما الأولى: فادعاء أني كتبت (ص ١٢٠) تعليقـة في طريقـة تحويل التاريخ الميلادي إلى الهجري، وهي ليستْ لي. وأما الثانية: فادعاءُ أني استعرضت معلوماتٍ ذات توجه متيافيزيقي! عن القبـب والمزارات،





إلخ. وهذا غير صحيح، بل فيه تزييف للحقيقة؛ لأن ذكر القباب والزيارات ورد في نص الكتاب ومتنه. وهذا يدل على أن المقال كتبه من لم يقرأ كتاب «إدام القوت» ولم يعرف محتواه. والجهل المركب: في اشتمال الفقرة على توظيف لمصطلح الميتافيزيقيا في غير موضعه، دلالة على التعالم والجهل العميق بمدلول المصطلح الفلسفي. إن الميتافيزيقيا: مصطلح يوناني (Metaphysics)، يتركب من كلمتين (Meta) وتعني: ما بعد، و(physics) (= الفيزياء) وتعني المحسوس الموجود(١٦)، ثم أصبح علمًا على علم ما وراء الطبيعة، ومصطلحًا متعلّقًا بالغيبيَّات واللامحسوس والماورائية(١٧)، فأين في تعليقاتي ذكر لعلم الميتافيزيقيا؟ هل مجرد الترجمة لعلم بنيت عليه قُبةٌ يعدُّ عندكم من الميتافيزيقيا! أليس وصف القبور هو وصف فيزيائي مادي محسوس، وليس من علم الغيب واللامحسوس. قبرٌ ماثلٌ أمامكَ، وفوقه قبة، أين الميتافيزيقيا في الموضوع؟! فالجهل المركَّب هنا: في عدم فهم معنى المصطلح على حقيقته، ثم توظيف الفهم الخاطئ في غير موضعه، وتوجيهه توجيهًا غير مناسب، ثم اقتران التوظيف الخاطئ بتشنيع وتسفيه، مما يدل على التخبُّط وعدَم معرفة وُجهَة النقد.

الفقرة السادسة والعشرون

اشتملت الفقرة على افتراء فيما أشار إليه من ترجمتي لإنجرامس في (ص ١٣٠)، بادعاء أنني لا أعرف جرائم إنجرامس، مع أنني كتبتُ عددًا من التعليقات ذكرت فيها عددًا من جرائمه. منها:

(١) في صفحة ١٤٧ التعليقة ٢، في تنكيله بعمر محيرز.

(٢) في صفحة ١٨٨ التعليقة ٢ نقلاً عن الشيخ الناخبي رحمه الله.

(٣) في صفحة ٦٣٨ التعليقة ١ فيها بيان حقد المستر إنجرامس.

(٤) في صفحة ١٠٤٢ التعليقة ١ فيما يتعلق بالحدود.

ثم يجحد المقالُ الناسَ أيًّا كانوا مسلمين أو كفارًا من صنائع طيبة صنعوها، وهذا لا يحق له، ومن أراد المزيد عن إنجرامس وصنائعه فليرجع إلى كتاب د. صادق مكنون، وعنوانه «إنجرامس سلطان حضرموت غير المتوّج، أثر هارولد إنجرامس في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في حضرموت ١٩٣٤-١٩٤٤م»، صدر عن تريم للدراسات والنشر، عام ٢٠١٨م، يقع في ٥٤٤ صفحة.

الفقرة السابعة والعشرون

اشتملت على سخرية من ترجمتي للعلامة القاضي محسن بونمي إشارة إلى تعليقتي في (ص ١٤٨)، ثم كُذبَ عليَّ بأنني ترجمت للقاضي في ١٦ سطرًا، بينما ترجمتي له لا تتجاوز ٦ أسطر، أما بقية التعليقة فقد عرفت فيها بكورسات القضاء الذي كلف بتدريسها على عهد الدولة القعيطية، وبيان خريجيها. ثم يقترح المقال ساخرًا مني بأن أكتب كتابًا مستقلاً عن السيد محسن بونمي، ولماذا أكتب عنه استقلالاً وهؤلاء أحفاده وأسباطه أجدر مني بالقيام بذلك، وها هو سبطه الأستاذ محسن باعلوي يصنف كتابًا ضخمًا سمّاه «الغيث الهمي» استقصى فيه حياة جده المذكور، وقد أطلعني على «مختصره» وقدمتُ له. وذاك جهد آخر لسبطه د. حسين الحبشي في نشر بعض مؤلفاته وترجمته أيضًا. وأكتفي هنا بالإحالة على ترجمتي الواسعة للسيد محسن بونمي في الجزء الثاني من كتابي «جهود فقهاء حضرموت» (٢/ ١٢١٧).

الفقرة الثامنة والعشرون

اشتملت على مساوئ وتهُم، في إشارة إلى تعليقة في (ص ١٧٤) بادِّعاء أنني كتبتُ حكمًا منافيًا للشرع! وأقول: أولاً: التعليقة ليست تاريخية، فهي لا تخصني. وثانيًا: إن الذي قرر المسألة هو العلامة السقاف نفسه، قال في «إدام

القوت» ص ١٧٤: «وقد قرّرتُ في «الأصل» ما ذكره ابن قاسم العبّادي من حرمة التوابيت. وأما القبابُ فإن كانت في مسبّلةٍ فحرام، وإلاّ فلا، بشرطه»، اهـ. فكلامه واضح، والتعليقة تحصيل حاصل. ولكن المقال يخشى أن ينتقد العلامة السقاف فذهب يترّسُ بالتعليقة، فلماذا لا ينتقد المقال نصَّ الكتاب ومؤلفَه مباشرة؟

الفقرة التاسعة والعشرون

وهي فقرة طويلة جدًا، لا نجد فيها ملاحظة تاريخية واحدة، ولا استدراكًا علميًا ذا بال، كلها استنكار: لماذا كتب باذيب، ولماذا لم يكتب، وعلى هذا فقسْ. وأشار إلى تعليقة في (ص ١٩٦) مستنكرًا عليّ ذكر آل باشكيل دون سواهم. فأقول: أولاً: المؤلف في مادة (الشحر) هو من قال: «وخرج من الشحر جماعةٌ من العلماء الفضلاء، كآل أبي شكيل»، إلخ. ولم يذكر أحدًا منهم على عادته في كتابه، فعلقتُ بذكر بعض أعلامهم، فسخرية المقالِ من تعليقتي بأنها استعراضٌ، فيها شخصنةٌ غير لائقة، بل وليست في محلها، فهي حشو خالص. ثانيًا: رماني المقال بعدم فهم أسلوب السقاف، وهذا اتهامٌ باطل؛ بل إنني فهمت أسلوبه تمامًا، وما كتبتُ تعليقاتي إلا بعد أن عشتُ مع كتاب «الإدام» مخطوطًا ومطبوعًا ما لا يقل عن تسع سنوات، منذ بداية جمعي لما نشر في «مجلة العرب» إلى حين فرغتُ من التعليقات، تسع سنوات ألا تكفي في معايشة النص وفهم أسلوب كاتبه!

الفقرة الثلاثون

وهي متصلة بالفقرة السابقة، وفيها، سوى التهكم، ادعاءُ أن تعليقتي فيها إلزامٌ للعلامة السقاف. ولا أدري عن أي إلزام يتحدث المقال؟ ومنذ متى توصف التعليقات على الكتب بأنها إلزاماتٌ للمؤلفين؟ في أي منهج ورد هذا الفهم وهذا الاصطلاح الغريب؟ أما سؤال المقال: لماذا لم أذكر بني حاتم وبني السبتي؟ فجوابه: بل ذكرتهم في تعليقاتي، وها هي بين يدي القراء، نقلاً عن صفحة ١٦٥ من (التصحيح التاسع)، ولكن دار المنهاج حذفت التعليقين ٤ و٥:

(٣) لم يذكر المصنّف هنا أحداً من علماءِ آل باشكيل، وحقُّهم أن يذكروا؛ فمن أجلّهم:

• العلامة القاضي مُحمّد بن سعد بن مُحمّد بن عليّ بن سالم باشكيل الأنصاريّ الخزرجيّ، ولد سنة (٦٦٤هـ)، وتولّى قضاة زبيد، ثمّ درّس بـ(عدن)، وانفصل سنة (٧٢٠هـ)، وأقام بـ(الشّحر) ثلاث سنين، كان فقيهاً كبيراً، له شرح على «الوسيط» للغزاليّ، في عداد المفقودات، وفتاوى، ونبذة في الأنساب، توفّي أواسط القرن الثامن.

• مُحمّد بن مسعود بن سعد بن أحمد بن سعد باشكيل، ولد بـ(غيل باوزير) سنة (٨٠٤هـ)، ومناقبه كثيرة، له شرح على «المنهاج» للنووي، جمع فيه بين شروح الإسنوي والسُّبكيّ والأذرعي وابن النّحوي.

وهو جدُّ القاضي المؤرّخ مُحمّد الطّيب بامخرمة، لأمّه، توفي سنة (٨٧١ هـ). (باذيب).

(٤) انظر تراجمهم في تريم (ص) (باذيب).

(٥) سيأتي ذكر أعلامهم في تريم والذين في الشحر إنما قدموا إليها من تريم. (باذيب).

١٦٥

إدام القوت ـ تصحيح تاسع

الفقرة الحادية والثلاثون

في هذه الفقرة أورد المقال متبرعًا إحصائية لأكثر من ٢١٠ من تعليقاتي على مادة الشحر، وادَّعى أنني تطفلت بها على الكتاب، لأن أكثرها في تراجم السادة العلويين، وأن بإمكاني إفرادهم في كتاب. فأقول: هل الوصف بالتطفل (للمرة الثالثة) من أدبيات النقد؟ وهل يندرج في الملاحظات التاريخية والاستدراكات العلمية! ولم يخف المقال تضايقه من ترجمتي لأعلام من السادة الأفاضل؛ وهذا أمرٌ يوجب التعجب الشديد ويدلنا على مقدار الشخصنة والكراهية التي يستبطنُها المقال، فلماذا لا يثور على الكتابِ نفسه وعلى مؤلفه! هذا «الإدام» المشحون بذكر المئات من عشيرة المؤلف من السادة بني علوي، أطنب في أخبارهم، وتراجمهم، وأوصافهم، ومكارم أخلاقهم التي شرّقَتْ وغرَّبت وملأت الخافقين. ثم قد سبق لي قولي: إن تعليقاتي شملت كافة شرائح المجتمع الحضرمي، وليست خاصة بفئة كما يدَّعَى علي. فلماذا





الظلم والتجنّي؟ أما المؤلفات في تراجم بني علوي فهي كثيرة، لا أريد أن أطيل بذكرها هنا، وهم مستغنون بما كتب أكابرهم عن كتابتي.

الفقرة الثانية والثلاثون

في هذه الفقرة استنكر عليّ المقال ترجمتي للسيد علوي الجنيدي (ص ٢١١) وتفريقي بين نسبتي: الجنيد، والجنيدي. فقط استنكار، ليس فيه ملاحظة تاريخية ولا استدراك علمي. نعم، لا شيء سوى التحكُّم المقرون بجهل بأصول علم التحقيق. وأقول: إن تعليقتي من باب «مشتبه النسبة» كلقب باصرة، الذي تقدمَ في (الفقرة الحادية والعشرين). والمقال يريد أن يكون حجر عثرة ليحول بيني وبين تصحيح وهم وقع فيه العلامة السقاف، في جعله السيد علوي من آل الجنيد، والصوابُ: إنه من آل الجنيديّ. وفرق بينهما، كما فصلتُ في التعليقة. وأما ثناء المقال الظاهر، في سياق التهكم، على معرفتي بالأنساب، فهذا من فضل الله وكرمه وعطائه، وقديماً قال السري الرفَّاء الكنديّ الموصلي (ت ٣٦٦هـ):

وشمائلٌ شهد العدوّ بفضلها　　وَالْفضلُ مَا شهِدت بِهِ الأَعْدَاءُ

الفقرة الثالثة والثلاثون

في هذه الفقرة كلام طويل لا طائل تحته، جرت فيه الإشارة إلى تعليقتي (ص ٩٠٣) حول «رحلة المغربي إلى تريم». وفيه جملة من المساوئ من مغالطات، وإلزام بما لا يلزم، وكذبٌ. أما الغلط: ففي افتراض المقال أني أقول بصحة الرحلة. وهذا غلطٌ، لأنني قلتُ بالحرف الواحد كما نقله هو عني: «وجرى كلام حول صحة ومصداقية هذه الرحلة». فلماذا المزايدة؟ وأما التناقض: ففي قوله: «ومن الأدلة على أن هذه الرحلة موضوعة ما ذكره باذيب نفسُه»، إلخ. فهذا الدليلُ لي وليس عليّ. وأما المغالطة: ففي إلزامي رأي بافضل أو كلامه، وأقول: ليس في إيرادي قول الشيخ بافضل جزمٌ بصحَّة «الرحلة» ولا أرى أنها حقيقية، بل حتى عبارته لا تدل على الجزم بذلك، وما ذكرتهُ إلا من باب إثراء التعليق، ليُعلمَ أنّ هناك رأيَينْ. وأما الكذب: ففي ابتكار عبارة نسبها إليَّ لم أقلها ولم أكتبها ولا توجد في تعليقتي البتة، وهي قوله: «ونقول له: يا باذيب، إن هذه الرحلة التي تطنطن وتدندن لتثبت وقوعها، إنما ما احتاجت لتأييد أهل الباطن لها إلا لأن أهل الظاهر أنكروها. ثم نسأله أيضًا: من هم أهل الباطن». أين ورد في كلامي ذكر (الباطن) أو (الظاهر)؟ عبارتي بين أيديكم، نقلها المقال بحروفها، ولكنّه حشفٌ وسوءُ كَيلة.

الفقرة الرابعة والثلاثون

فيها تشنيع على تعليقة (ص ٩٢٦) عن مدرسة الحق ومدرسة الكاف وخريجيها. وليس فيما كتبته خطأ، بل أنا نقلتُ تحول مدرسة الحق إلى مدرسة الكاف عن كتاب «أدوار التاريخ الحضرمي» للعلامة الشاطري، (ص٤٢٣). وهل يليق عدم إيراد موضع الخطأ ومحل النزاع! إن من صوَّب لي أخطائي وأوقفَني عليها له مني كلُّ الاحترام، مع الاحتفاظ بحقي في المناقشة، أما رميُ التهم جزافًا، فليس من أخلاق أهل العلم، ولا من آداب النقد. وهذا بيانٌ للمستفيد: الموضع الأول: قال السقاف ص ٩٢٦: «وفتحت في الأخير مدرسة على نفقة خيرات المرحوم شيخ بن عبدالرحمن الكاف (٣)، إلا أنهم لم يبنوا لها منها مكانًا. وقد تخرج منها جماعة (٤)، أنجبهم: الشيخ سالم سعيد بكير، وامبارك عمر باحريش...»، انتهى. وأزيد القول إيضاحًا: بأن تعليقتي كانت طويلة، فهذبها الناشر فيما هذب. فليسمح لي القراء بإيراد نصّ ما كتبته، ففيه تفصيل يبعد كلَّ شائبة وهَمٍ:



[١] صورة التعليق الأول ص ١٠٢٤ (التصحيح التاسع):

(١) كان افتتاح مدرسة الكاف سنة (١٣٥٢هـ)، وكانت مدرسة خاصة بأولاد آل شيخ الكاف، وبني عمومتهم، ثم أدرجت في مدرسة جمعية الأخوة والمعاونة، وأطلق اسم الكاف على مدرسة جمعية الحق، وكان من المدرسين بها السيد عمر الكاف، والسيد محمد بن حفيظ.

● المعهد الفقهي: افتتح هذا المعهد إثر إدماج مدرسة الكاف في مدرسة جمعية الأخوة وذلك في حدود (١٣٦٠هـ). وكان الداعي لذلك أن كبار طلاب مدرسة الكاف كانوا قد قرأوا «منهاج الطالبين» في الفقه و«الألفية» في النحو وغيرها مما لم تكن جمعية الأخوة تدرسه بعد لطلابها، فطلب هؤلاء الطلاب الكبار من السيد محمد بن سالم بن حفيظ والسيد عمر بن علوي الكاف أن يخصصا لهم أوقاتاً لمراجعة هذه الفنون خوفاً من نسيانها.. فبرزت فكرة هذا المعهد، وأوكلت إدارته إلى السيدين المذكورين ومعهما: أبو بكر بن حسين الكاف، وعبد اللاه بن حسن بلفقيه، وحمزة بن عمر العيدروس.

وممن درّس به من السادة الأكفاء الشيوخ الفضلاء: السيد عمر بن زين عيديد المتوفى بـ(جدة) سنة (١٤١٥هـ) رحمه الله، والسيد حسن عابدين الجنيد، والسيد علوي بن عمر الحداد المتوفى بـ(تريم) سنة (١٤١٨هـ) رحمه الله، والسيد أحمد بن عبد الله بلفقيه، والعلامة مفتي تريم فضل بن عبد الرحمن بافضل المتوفى سنة (١٤٢١هـ)، وجماعة غيرهم. (باذيب).

[٢] صورة التعليق الثاني ص ١٠٢٤ (التصحيح التاسع):

(٢) الذين سيذكرهم المؤلف هنا.. ليسوا من خريجي مدرسة الكاف، إنما هم خريجوا مدرسة جمعية الحق، وإنما اشتبه الأمر عليه؛ لأن جمعية الحق التي أسست سنة (١٣٣٤هـ) قُلِبَ اسمُها إلى مدرسة الكاف بعد سنة (١٣٥٢هـ) لأسباب عدة.. وهذا الأمر حدث بعد تخرج هؤلاء الأعلام منها بزمن.. فليعلم. (باذيب).

● جمعية الحق: افتتحت جمعية الحق بـ(تريم) سنة (١٣٣٤هـ)، وكان مقرها بالجانب الغربي لمسجد بروم (وهو مسجد بني جديد سالفاً)، وفي يوم افتتاحها.. حضر جماعة من أكابر الأعيان؛ على رأسهم: العلامة الحبيب علوي المشهور، والعلامة الحبيب عبد الله الشاطري، والسيد الورع أحمد بن علوي السري، والإمام المحدث محمد بن سالم السري.

وافتتح التدريس فيها بثلاثة أساتذة: السيد علوي بن أبي بكر خرد (السابق ذكر والده)، والسيد محمد عبد المولى بن طاهر، والشيخ العلامة محمد بن عوض بافضل.. ولما كثر طلابها.. فُتح لها فرعٌ قام بإدارته السيد أبو بكر بن علوي المشهور.

ثم بعد ذلك بنيت لها ثلاثة صفوف أخرى ومزجت المدرسة مع فرعها وأضيف لها الأساتذة: السيد العلامة الفقيه أحمد بن عمر الشاطري، والسيد العلامة حامد بن محمد =

١٠٢٤

إدام القوت - تصحيح تاسع

= السري، والشيخ النحوي ترفيق فرج أمان.

وفي السنة الثالثة (عام ١٣٣٧هـ).. أضيف: السيد العلامة أبو بكر بن محمد السري، والشيخ حسن بن محمد عرفان بارجا، والشيخ سالم سعيد بكير.

ودرّس بها أيضاً: السيد محمد بن حسن بن علوي بن شهاب (السابق ذكره ووالده) والسيد عبد الله بن محمد بن هارون بن شهاب، والسيد محمد بن هاشم بن طاهر، وفي أواخر عهدها (في سنة ١٣٤٤هـ).. درّس بها آخر خريجيها وهو العلامة عمر بن علوي الكاف، والسيد عبد الرحمن بن علي بلفقيه، والسيد أحمد بن عبد الله بن هارون بن شهاب، وغيرهم.

وتخرج من هذه المدرسة العظيمة التي هي أشبه ما تكون بالجامعة كثير من العلماء والأدباء والمفكرين؛ منهم: المفتي والمدرس والواعظ والفقيه والمصلح.. وغير ذلك. وانتهى عهدها الزاهر في أواسط القرن الرابع عشر بعد أن أطلق عليها اسم مدرسة الكاف.

● جمعية الأخوّة:

في تلك الأثناء وبعد أن بدأ الضعف يدب في جمعية الحق.. برزت إلى الوجود جمعية فتية أخرى تضارع تلك بل فاقتها في منجزاتها الحضارية وأعمالها العلمية والاجتماعية، وإن كان الفضل للمتقدم.. تلك هي جمعية الأخوة والمعاونة التي أسسها وقام بأعباء إدارتها السيد الإمام العلامة الأديب الجهبذ محمد بن أحمد الشاطري.. وتاريخ تأسيسها هو سنة (١٣٤٧هـ)، وكان عمر مولانا الشاطري يناهز الـ(٢٦) عاماً، وتاريخها حافل، وقد طبع لها بيان عام (١٣٦٤هـ) فيه أهم أعمالها وأعضائها، وصدرت لها صحيفة شهرية تسمى: «الإخاء» حفلت بالهام والمفيد من المواضيع، والحديث عنها يطول ويطول، وتوجد مادة علمية خصبة لمن أراد أن يكتب عن هذه الجمعية ودورها في إحياء المجتمع الحضرمي وخدمته.

وكفانا أن نعلم أن مشروع المياه في شبام الذي نفذ في الستينات كان أحد المشاريع التي نفذتها الجمعية بتمويل شبامي، تريمي!

وسيأتي في الصفحات الآتية كلام موجز للمؤلف عن هاتين الجمعيتين، وقد سبق القلم بالكتابة هنا.. فلا حيلة لإعادته ثمة. (باذيب).

الفقرة الخامسة والثلاثون

في هذه الفقرة خطأ المقال ما ورد في تعليقتي (ص ٩٩٣) في تعريف (الجرب) الموضع المعروف. وقد جبُنَ المقال عن تخطئة المؤرّخَين العيدروس وبافقيه، فتترس كالعادة بباذيب. واشتملت الفقرة على تطاولٍ مَقيت، ولم يترك المقال لفظاً من ألفاظ الاستخفاف والتعالي إلا وأتى بها. فتارة يسخر بعقل باذيب، وتارة يتعجب من قفزات باذيب، وتارة يتهكم بجهل باذيب، منتهيًا إلى تلاعب باذيب. لماذا كل هذه الحفلة؟ كل هذا لأني نقلتُ تصويب ضبطِ هذا الموضع من مصادر تراثية قديمة. أقدمها كتاب «النور السافر» للعيدروس المتوفى سنة ١٠٣٨هـ، وهو أقرب المؤرخين زمنًا بتلك الواقعة التي جرت سنة ٩٥٨هـ.

هذه نصوص المؤرخين التي رجعت إليها: [١] قال العيدروس في «النور السافر» (ص ٣٣٥): «وفيها: كانت وقعة الجرب، **بجيم وموحدة بينهما راء ساكنة**»، اهـ. [٢] وقال المؤرخ بافقيه في «تاريخ الشحر» (ص ٢٩٨): «وفيها كانت مقتلة الجرْب، **بجيم وموحّدة بينهما راء ساكنة، وهي مشهورةٌ عند أهل حضرموت**». [٣] بل إن الأستاذ محمد بن هاشم (ت ١٣٨٠هـ) في «تاريخ الدولة الكثيرية» (ص ٥٢) نقل كلام العيدروس ولم يتعقّبه، وهو ابنُ تريم، وشيخُ مؤرِّخيها. هؤلاء ثلاثة أعلام ضبطوا الجرب كما ضبطته في تعليقتي، لماذا لا يخطئهم المقال، ألا يجرؤ أن يضع الأمور في نصابها؟ أم أن تعود التطاول والتعالي يصعّب النطق بكلمة الحق! هل أنا إلا ناقلٌ عن المصادر! ثم زعم المقال أنني انتقلت بالقارئ إلى تعريف الجرْب؟ وما قلتُ سوى: «والجربُ معروفٌ عندهم»، ومعنى كلامي: أن الجرب معروفٌ ضبْطُه بالفتح والسكون. فهل في كلامي أي تعريف للجَرْب؟

الفقرة السادسة والثلاثون

في هذه الفقرة سخر المقال من تعليقتي في (ص ٩٧٠) حين فرقتُ بين الفجير التي ذكرها المؤلف في هذا الموضع، وبين الفجير الأخرى التي تقدمت في (سيئون).





ولم أكن أعلم أن السفاهة تعدُّ نقداً وملاحظَات تاريخية إلا بعد قراءتي هذا المقال. وللمرة الثالثة يسخر المقالُ من علم مشتبه النسبة. ما هو الخطأ والعيبُ في قولي: إن (الفُجَير) موضعان في حضرموت!؟ هل اقتفائي أثر الأعلام من المحدِّثين والمؤرِّخين والبلدانيين في التفريق بين مشتبه النسبة مثيرٌ للسخْرية إلى هذا الحد!

الفقرة السابعة والثلاثون

فيها تشنيعٌ وسخرية بتعليقتي (ص ٩٧٠) أيضًا، بالادعاء أنني عرفت (حصن دكين) بأنه (بير الدكين)، ولم أقل ذلك، وإنما عزوت إلى مصدر بين يدي لرجل عالم من أهل تلك الناحية، وصفها رأي عين ولم يذكر الحصن وذكر البير، فأوردتُ كلامه من باب الإثراء، وكان ينبغي أن تصدر التعليقة بعبارة: «وهناك أيضًا بئر ...»، إلخ.. وللعلم ومزيد البيان: فإنني نشرتُ في سنة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م رسالةَ «بغية من تمنى في توضيح بعض معالم تريم الغنَّاء»، للقاضي السيد عمر المشهور (١٣٣٩ - ١٤٢٥هـ)، ولما وصلت في تعليقاتي إلى هذا الموضع من «الإدام» لم يكن أمامي من المصادر والمراجع للتوثيق إلا تلك الرسالة، فنقلت عنها ما نقلتُ. وهذا نص «بغية من تمنى» (ص ٦): «كذلك (مسجد بروم) الواقع في البير المسماة (بير السَّوم) قرب بير (الدّكَين) المعروفة، والمعمورة بالزراعة والنخيل، وقد كانت مشحونةً بالسكان كما بلغنا، إلا أن آثاره طمست ولا تعرف الآن. كذلك (مسجد النور) بالغويطة»، اهـ. نقلتُه لإثراء التعليق، وليس للاستدراك على العلامة السقاف، وقد تضيق أو تقصر العبارة عن الشرح والتفصيل، فاكتفيتُ بنظر القارئ الحصيف ليقارن ويفحصَ بنفسه، فما التعليقاتُ إلا لإثراء البحث والمناقشة. وإذا كنت أخطأتُ، وكلنا خطَّاءٌ، فأين الرد المهذب؟ وأين أخلاق العلم؟

الفقرة الثامنة والثلاثون

لا يزال الكلام مستمرًا عن التعليقة السابقة. وتجاوز المقال تجهيلي إلى تجهيل السيد القاضي المشهور والحط من قدره، وكأن المقال لا يجيد إلا هذا الأسلوب، وكتاب القاضي المشهور أنا الذي طبعتُه وصححته بين يديه تحت إشرافه، فلم أتفلسف ولم أزعم شيئًا، كل الذي فعلته هو أني نقلتُ رسم الكلمة كما وردت في كتابه. وهذه صورة الصفحة التي فيها ذكر (الغويطة) (ص ٦):

آثاره طمست ولا تعرف الآن . كذلك (مسجد النور) بالغويطة
قرب الدكين ، وكان يسكنها المشايخ آل باشعيب قديماً ، إلا أنه في

وكنتُ قد طبعت الكتاب سنة ١٤١٩هـ، وسلمته للمؤلف، ومكثت في تريم أتردد عليه إلى أن غادرتها سنة ١٤٢١هـ، ولم أتسلم منه تصويبات، وظل الكتاب على هيئته. فسواءً كان الغلطُ مني أو من شيخنا القاضي فمن ذا الذي ما ساء قط؟ وقد قال أبو الطيب:

ومن ذا الذي ترضي سجاياهُ كلُّها
كفَى المرْءَ نُبلاً أن تعد معايبُهْ

خاتمة المطاف

خُتم المقال، مجدداً، بالتأسف والتألم من التعليقات التي أقضت المضجع، وأرقت الجفن، وبتمني أنها لم تكن نشرت مع الكتاب، وهذا كلام لا يرد على مثله. لأنه صدر عن تصور أبدته عين السخط، وإنني بدوري آسفُ لرؤية تلك الملاحظات العاطلة الخالية من أي قيمة علمية أو تاريخية.

نتائج وإحصائيات

١ - المقال ليس مقال نقد وملاحظات تاريخية ولا استدراكات علمية، سوى في موضعين: الأول ملاحظة هو مخطئ فيها (وفاة مزاحم باجابر) وقد بينت غلطه فيها. والثاني تصويب الغويضة بدلاً من الغويطة وكون البئر غير

الحصن. فنتيجة المقال كلها: في كلمة وحرف (بئر، وطاء)!
وغير ذلك كلام إنشائي وتحامل ونبز وسخرية وافتراءات، فندتها كلها وليس فيها عليّ أدنى ممسَك بفضل الله.

٢- المقال يصنف بامتياز ضمن مقالات العنف والإرهاب الفكري، فقد تنوعت فيه عبارات ليست من أدب النقد في شيء، منها عبارات سخرية وتعال وتطاول وازدراء واحتقار للآخرين وتقزيم جهود نافعة مضنية، عرضت في سياقات بعيدة كل البعد عن النقد النزيه والحوار الهادف. من ذلك:

[أ] التحجج بمخالفة الثقافة أو المذهب:

(١) بدءاً من عنوان المقال الذي يحمل عبارة «من بلدان حضرموت إلى صوفية حضرموت» هذا العنوان الذي يتجه بذهن القارئ مباشرة إلى اتهام التعليقات التي في «إدام القوت» بأنها ذات طابع صوفي. وذلك لغرض تشويهها، والافتراء بأنها قد انحرفت بالكتاب من صبغته الجغرافية والقومية إلى صبغة مذهبية وعنصرية، وإبرازه في العنوان قد يتضمن تحريضاً ضد المعلق نفسه والتسور على نوايا الباحثين وتصيد العثرات وتضخيمها.

(٢) في وصف بعض التعليقات بأنها ذات طابع صوفي أسطوري خرافي. لمجرد أنه ورد في تعليقة في الكتاب (ص٦٧) بيت شعر لشخصية تاريخية عاشت في القرن السابع الهجري. ومع أن التصوف علم إسلامي معروف، يتعلق بالسلوك العملي، وله مصطلحاته، ومنه أنواع فلسفية. إلا أن التعليقة خلتْ من أي توجيه فكْري يصبُّ في ناحية من هذه النواحي المعرفية. والتعليقة ببليوغرافية بحتة، تقوم على وصْف شخصية المترجَم وأعماله العلمية والتراثية، لا أكثر.

[ب] نشر عبارات التهويل والسخرية والازدراء المتكررة، منها:

وقد أحصيت في الجداول التي نشرتها في المقال الأصلي(١٨):

(١) سبعةً وثلاثين عبارةً ساخرة تناولتْني شخصيًّا أو تعليقاتي.

(٢) ستَّ عبارات تعرَّض فيها المقال للعلامة السقاف وسخِر منه أو تهكَّم به.

(٣) تسعةَ مواضع سخِر فيها المقال من مؤلفين محترمين ومن مؤلفاتهم كالأستاذ المقحفي و(الموسوعة اليمنية) الصادرة عن مؤسسة العفيف، ومن كتاب (ما جاد به الزمان) للشيخ العليمي رحمه الله، كما سخر من بعض العلوم والفنون الإسلامية ومن عموم المثقفين الحضارمة.

(٤) واحداً وثلاثينَ موضعًا فيها كذبٌ صريحٌ وافتراء واضحٌ عليّ.

(٥) أربعةَ مواضع تترّس فيها المقال بتخطئتي متحاشيًا توجيه النقد إلى المصادر الأصلية.

هذا ما يسر الله كتابته وعرضه في هذه الصفحات، وأستغفر الله وأتوب إليه من الخطأ والزلل، وأسأله لي ولمن قرأ وكتب واعترض وناقشَ العفو والعافيةَ والموتَ على الإسلام والإيمان الكامل، وأن يوفقنا لخدمة ديننا وتراث أسلافنا الخدمة المرضية، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

حرر ليلة الجمعة ٢٤ صفر ١٤٤٣هـ = ١ أكتوبر ٢٠٢١م

الهوامش:

١٤) باعيسى، تضارب المداخل والاتجاهات، مجلة حضرموت الثقافية، العدد ٢٠: ص ٧٩.

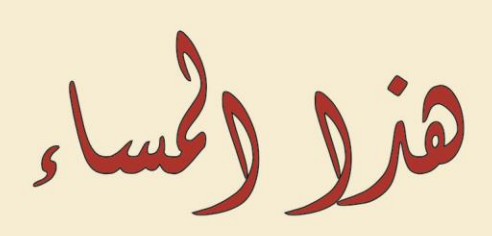
١٥) توفي مؤلفه الشيخ الفاضل عبد الله العليمي باوزير عام ١٤٤٢هـ، وقبل موته بنحو شهر أرسل لي، من الرياض، هديةً مجموعة من مؤلفاته التي طبعت حديثًا، ومنها «ما جاد به الزمان» الطبعة الثانية في مجلد فاخر.

١٦) إمام، إمام عبد الفتاح، مدخل إلى الميتافيزيقيا، (القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٥م): ص ١٧-١٨.

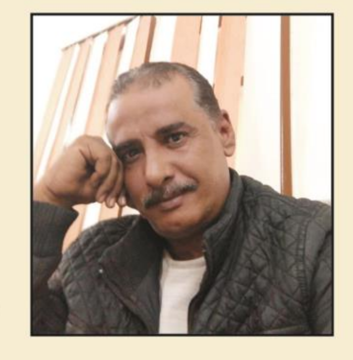
١٧) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، (القاهرة: عالم الكتب، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م): ٣/ ٢١٤٢؛ سعيد، جلال الدين، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، (تونس: دار الجنوب للنشر، ٢٠٠٤م): ص ٤٦٠.

١٨) يجده القراء الكرام في قناتي على التلقرام.





هذا المساء



بدر العرابي

سأكون حضرميًا بإتقان

وسأبوح للبحر بكل قصص العشق والإنسانية

والحضارة العالقة في جبين التاريخ كشامة خلقية،

وسأمنحه

قلبي؛ كي تنتظم أمواجه وتمتد بسحر ورهافة حس.

هذا المساء سأكون حضرميًا بامتياز

وأبوح للشجر عما ينوي الحطَّاب، الذي

يتوسَّد الآن فأسه بانتظار الصباح.

هذا المساء سأكون حضرميًا بكثافة..

سأحدث الرصيف

عن اجتماع طارئ الآن، تعقده أكياس البلاستيك

النافقة، وكيف تخطط الآن لدس أظافرها في قلب المدينة

المكثفة بالحب والصفاء.

هذا المساء سأكون حضرميًا بشكل حصري، وسأحدث

الأطفال كيف يرتدون البراءة؟ والصدق، وكيف يقفون،

بشموخ، أمام الرياح، حين تهب محملة بوجع الإنسان؛

كي لا تغرسه في صدورهم خلسةً، وهم يلهون في الشارع

وكيف يغدو الطفل

راشدًا في جسده الصغير؟

هذا المساء سأكون حضرميًا بسخاء....

وسأردم ثغور البكاء المنبثقة في وجوه الحزانى، لأوقف

تسرب الملح المقوِّض لانفراج الشفاة، وانداياح

الغمام البيضاء منها، لتبل اليباس الذي يحيط الجفون

بإحكام.

هذا المساء سأكون حضرميًا بوجع؛

كي أتعلم الصمت،

حين تجتاح الثرثرة

حناجر الوقت، وتضج بمسامع المكان.

هذا المساء سأكون حضرميًا حد الرزانة ....

سأجيد الحب بإتقان

وقبل ذلك، عليَّ أن أكنس نتوءات تخلفها اللحظة

المحملة بالغبار في عتبات الشارع المطل على أرائك الحب،

وأغرس وردة على كل نافذة، ثم أشيد جسرًا يتدحرج من

خلاله النسيم؛ ليداعب العطر ويوزعه على الشبابيك

المطلَّة على الخور.

هذا المساء سأكون حضرميًا بثقة

وقبل أن أنام سأجز نتوءات تشخص على وسادتي كل

مساء

وألتمس منها أن تحاول الهدوء، ولا تنتفخ كبالون

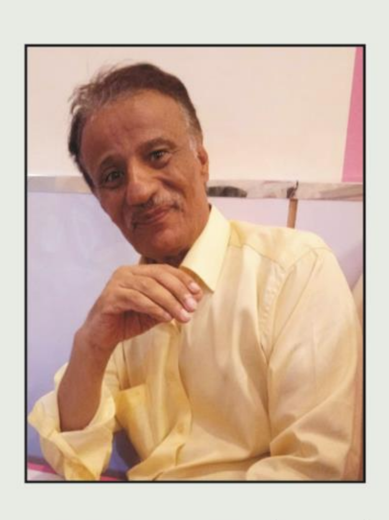
كعادتها، حتى لا يترهل الحلم

ويتلاشى قبل قدوم الفجر.



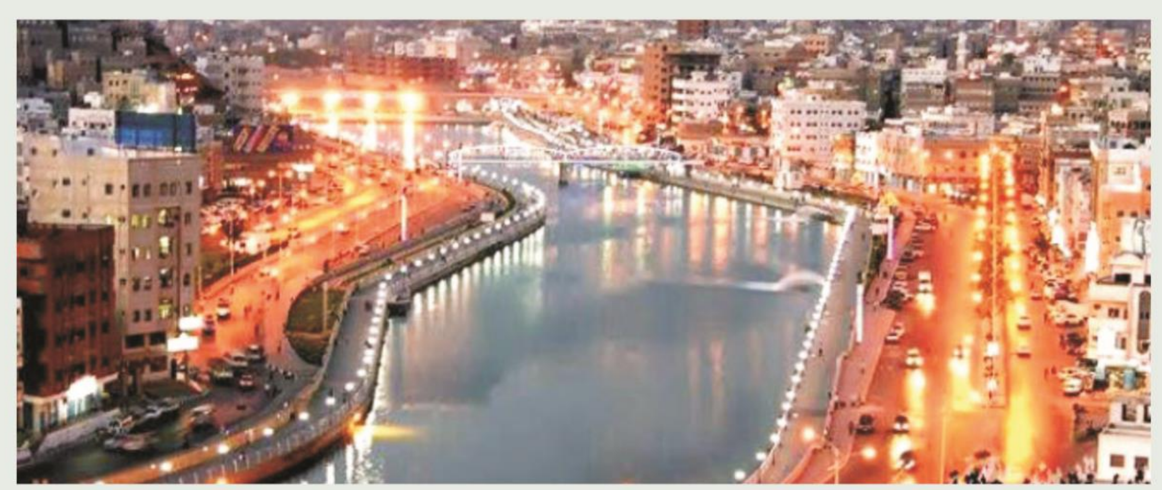
خور المكلا - ١

شقيق النيل



شعر: د. أبوبكر محسن الحامد

انظر! هنا خور المكلا ينثني،
كالنيل، منتشيًا يرش نشيدا!
مترقرقًا، والليل يشرق ها هنا،
والماء يرسم بالضياء العيدا!
تلك المكلا
لوحة سحرية!
بالعيد زفت حسنها المعبودا!
قبس من الرحمن، شكل هكذا،
فأتى إلينا رائعًا تجسيدا!
ترنو الجبال إلى الشواطئ، خلتها..
تتبادل الأشواق والتنهيدا!
آمنت أن الحسن نفخة خالقي،
يهمي. فيرعش متعبًا مكدودا!
ياخور! قلبي مثل قلبك باسم،
والليل من حولي يدك وئيدا!
وكما تبدده بضوئك ساخرا،
فأنا أبدده هوى، وقصيدا!
أهلا مكلا الحسن! شادية الهوى!
غنيت بحرك، والربى، والبيدا!
ودخلت في سحرين خورك والمدى،
ولثمت ثغرك، واللمى، والجيدا!







قَمَرِي



د. عمر بن شهاب

ما بالني والعيون النجل تغريني ... أما سئمت وأنت اليوم خمسيني ؟!

أما تخليت عن غي الصبا وسطا ... مشيب رأسي فماذا بعد يثنيني ؟

أفق فؤادي ونهنه صبوة وهوى ... وليّ وعمرك مثل الأمس عشريني

ماذا عساهن مني يبتغين وقد ... أضأن مني دروبا في شراييني

يا بارئ الحب شرعا والهوى قدري ... رضيت بالحب ما يرضى به ديني

غنّيته ملء سمع الكون قافية ... فالحب فاتحة في سفر تكويني

هذا أنا تهت في ساحات مزولتي ... ناديت ماذا جرى كي لا تجيبيني

مضيت في زورق الأحلام أعبرها ... في هدأة الليل أدنيها وتقصيني

إنيّ أناجيك أدعو واللقا أملي ... في الله والأمر بين الكاف والنون

يا بهجة الروح يا حلما قدمت له ... محطم النفس ذل العيش يذويني

رسمته في خيالي صورة وسعت ... ما لم يسعه سوى ظنّي وتخميني

مضيت نحوك في حلمي لرابية ... والكون لم يتسع إلا لأثنين

أخشى عليك من اللاشيء يا قمري ... إني ضممتك في عيني فضمّيني

لا لست أنساك يا حضن المنى أبدا ... مهلا إذا اسطعت نسيانا تناسيني

يا خفقة الروح يا عطر الندى سحرا ... آوي إليه فينسيني ويسليني

يا دفقة القلب في أبهى مباهجه ... يا بوح معنى تماهى في دواويني

أسلمتك العمر مفتاحا فتحت به ... مغالقي كيفما شئت ملكتيني

كوني كما لم نكن من قبل واغتمضي ... ثم ابصريني وقولي: ما رأيتيني

يا واحة أنتِ يا وبلا يضمخني ... أموت من قسوة الدنيا فيحييني

يا همسةً تحتويها كل أوردتي ... كأنّ قلبا تقاسمناه نصفينِ

مالي سواك إذا ما اجتاحني غضبٌ ... أطفأتها حمما أعتى براكيني

يا قارّة تيّمتني مالها شبهٌ ... لا في أوروبا أو امريكا أو الصينِ

يا منحة العمر لا تعلوك جائزة ... وقد ظفرت بذات الأصل والدين

مظلتي دمت يا أحلى من العينِ ... ومن عداها في الأخرى يساويني

أتيتها وبي الآلام غائرة ... فباشرت نزعها مثل السكاكينِ

أتيتها وهموم كل أمتعتي ... فاستبدلتها بإيناسٍ وتطمينِ

بلاغتي هي ذا حبي النقي لها ... بلا مجازٍ وتشبيهٍ وتضمينِ



سُكْنَةَ الحَرْفِ



عمر حسين المقدي

يَا سُكْنَةَ الحَرْفِ يَا نَهرًا مِنَ العَجَبِ   مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْكِ تُعْلَى قِمَّةُ الأَدَبِ
يَرَاكِ قَلْبِي لِفَرْطِ الحُسْنِ سَاحِرَةً   وَإِنْ نَظَرْتُ أَرَى فِي دَفَّتَيْكِ نَبِي

* * *

لاَ تَمْشُطِي الشَّعْرَ أَرْخِي خَصْلَتَيْكِ هُنَا   مَا أَجْمَلَ الحُبَّ فِي طَيْشٍ وَفِي صَخَبِ
لاَ تَرْحَمِي عَاشِقِيكِ الغُرَّ وَابْتَعِدِي   وَخَاطِبِيهِمْ جَلاَلاً مِنْ وَرَا الحُجُبِ

* * *

تِيهِي دَلاَلاً وَوُدًّا وَانْثَنِي خَجَلاً   كَقُبْلَةٍ سَافَرَتْ دَهْرًا لأَجْلِ صَبِي
وَأَشْعِلِي فِي جَبِينِ اللَّيْلِ أُغْنِيَةً   لِتُلْبِسَ الحُزْنَ ثَوْبَ الأُنْسِ وَالطَّرَبِ

* * *

شَاخَ الزَّمَانُ وَمَا شِخْتِ فَقَالَ سُدًى   أَلَمْ تَمُرَّ عَلَى أَعْتَابِهَا حِقَبِي
إِذْ تَسْتَغِيثُ عَلَى جَفْنَيْكِ حَاضِرَةٌ   وَحَاجِبَاكِ يُعِيدَا سَطْوَةَ العَرَبِ

* * *

عَيْنَاكِ مِنْ نَزَقِ الأَحْلاَمِ مُتْعَبَةٌ   يَا لَلْعُيُونَ الَّتِي تَزْدَانُ مِنْ تَعَبِ
نُورِيَّةُ القُدْسِ لَمْ يُحْجُبْ سَنَاكِ مَدًى   وَقَدْ كَنَسْتِ عَتِيمَ الجَهْلِ بِالشُّهُبِ

* * *

فَمُذْ مَرَرْتِ عَلَى الدُّنْيَا أَنَرْتِ نُهًى   وَاسْتَأْنَسَ الكَوْنَ مِنْكِ كُلُّ مُغْتَرِبِ
وَعَاتَبَ الرِّيحُ حُبًّا مُزْنَةً فَنَمَا   عَلَى شِفَاهِ الصَّحَارَى مُخْلِصَ العُشُبِ

* * *

تَبَسَّمِي لاَ يَرُعْكِ الدَّهْرُ آخِرُهُ   وَلاَ تَنَامِي عَلَى شَيْءٍ مِنَ الغَضَبِ
فَأَنْتِ خَالِدَةٌ فِي العَالَمِينَ هُدًى   وَأَنْتِ صَادِقَةٌ مَا مِلْتِ بِالكَذِبِ

* * *

مَاذَا أَقُولُ ثَنَاءً وَالحُرُوفُ صَدًى   وَقَدْ حَوَيْتِ بِفَخْرٍ سَيِّدَ الكُتُبِ
كُلُّ اللُّغَاتِ حِسَانٌ إِنَّمَا لُغَتِي   تُعَلِّمُ الحُسْنَ مَعْنَى الحُسْنِ مِنْ كَثَبِ

* * *

تَخَيَّرِي أَيَّ وَصْفٍ قُلْتُ يَا لُغَتِي   أَحْلَى مِنَ الشُّهْدِ أَوْ أَنْقَى مِنَ السُّحُبِ
إِنِّي أُحِبُّكِ حُبَّ الأُمِّ فَلْذَتَهَا   فَهَلْ تُحِبِّينَنِي يَوْمًا كَحُبِّ أَبِ

* * *



18 ديسمبر 2020
#18ديسمبر يوم اللغة العربية العالمي

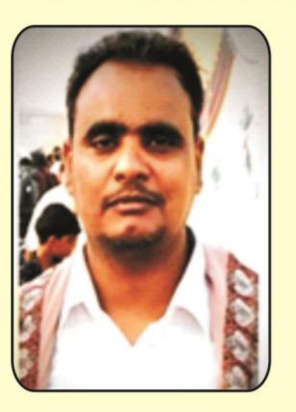


حكاية..

إتحاف الأنام بالهمارات رحلة الأحلام

رحلة عسد الجبل





مسعود علي الغتنيني

(١)

مع الأصيل والسماء تصطبغ بلون الشفق الذهبي، مؤذنًا بغروب الشمس، أخذت سيارتنا تطوي الأرض مسرعة بنا إلى وادي عسد الجبل، تحفُّنا الجبال السامقة، وتشجعنا أشجار السمر والقتاد، استوقفتنا المَحرْم ببيرها الأعجوبة وقصتها الخالدة، صلَّينا المغرب، ورفعنا أكُفَّ الضراعة، وواصلنا المسير في ثنيَّات الوادي، وقابلنا حصن النصر، وقد أرخى عليه الليل سدوله، ولَمَّا كانتْ كلُّ رحلة لا تكتمل إلا إذا حفت بالصعاب والمكاره فقد أصيبت السيارة ببعض الأعطاب، وأخذت تتعثر بين الهضاب، وربما ارتعدت من هيبة ذلك الشامخ، الذي يقف منتصبًا مصعرًا خدَّه في كبرياء، موليًا وجهه شطر مظوبة، فخارتْ قواها، وتركتْنا هناك على بعد رميةِ حجر منه، فترجَّلْنا منها مسرعين، وحملْنا متاعَنا مهرولين، وضعْناه في وسط باحة وسيعة، وحاولنا أن نطمئن مركبتنا أن هذا الشيخ الجليل هو شيخنا وفخرنا، وأن لا بأسَ عليها منه، وهدّأنا من روعها بعد جهد جهيد، حتى عاد إليها نشاطها؛ لتعود أدراجها، وأكملنا طريقنا مترجِّلين، فإذا بنا نسمع خطواتهم، ونرى آثارهم وهي تروي لنا ألف حكاية وحكاية...

(٢)

وصلنا زحر بيت غتنين، بوادي عسد، بُعَيْدَ صلاة العشاء، وقد خيّم الظلام، ولكنْ لا تزالُ بعض الأنوار مضاءة، وضعنا أمتعتنا في ساحة فسيحة، لا تبعد عن حصن (النصر) سوى بعض خطوات، صلَّيْنا صلاة



العشاء، وشرعنا في نصب الموقد؛ لتجهيز الغذاء، إلا أن (التيس) لم يَرُقْ لـه المكـان، فأخذ يضطرب، ويثغو بشـدَّة، ولم يكن الحبل الذي ربط به بتلك المتانة؛ ليبقى إلى الصباح بـأمان، فخفْنا أن يسـتغل ذلك الوضـع ويهـرب مخـلِّفًا لنـا الآهـات والحسرات، فانبرى له الشُّبّانُ وأخـذوه الى بـيت أحـد الجيران، وطلبـوا منهم حفظه إلى الصباح، فلبَّوا الطلب بارتياح، وبقينا في مجلسنا مطمئنين، نتبادل أطراف الحديث حتى جهِّز العشاء، فأقبلنا عليه بـنَهَم لِمَا أصابنـا في الطريق من عناء وهَمٍّ، بـعدها طاب السَّمَر، وتذكَّرْنا من تراثنا ما خلّد لنا طيب الأثر، وبقينا على هذه الحالة حتى أخذ منَّا التعب مأخذه، تمدَّدْنا على الحسـير، وتوسَّدْنا بـما وقـع بأيدينا من أوان و(قصدير)، وقد هبَّ النسيم العليل بـعد انتظار طويل، فمنَّا مَنْ نام سريعًا، ومنَّا مَنْ أخذ يتقـلَّب يمنة ويسرة كما هو حـالي، فلمْ يغمضْ لي جفنٌ، فأخذْتُ أرتِّبُ الكلمات لتقديم ما هو آت، ولمْ أكدْ أستسلم لسلطان النوم حتى سمعْتُ همهمة القـوم ..أصوات ترتفع، وأوَان تقـرع، فاستيقـظت على عجل، وبحـثْتُ عن مصدر الصوت في وجل، غيرَ أنه سرعَانَ ما اختفى فجأة، فقـلْنا لعلَّها رحـلة أتتْ معنا لزيارة الوادي، أو هم من سـاكنيه وأزعجهم نزولُنا فيه، أخذْتُ أتقلب إلى حين أذان الفجر، فصلَّيْنا في المسجد وعُدْنا للمقعد...

(٣)

أخذت تباشـير الصباح تغمر المكان بـفرح وانشراح، فتسـلَّلتْ نسـمة رطبـة محمَّلة بعبـق الماضي التليد؛ لتعلن ميلاد يوم جديد، وبدا لنا حصن النصر، وهو يقف شـامخًا على مرتفع مـن الأرض، وهـو يطـل عـلى وادي النخيـل السامقة، وقابلتْنا مظوبـة وهي تحتضن الوادي كأم رؤوم،



حصن النصر (حصن قبيلة الغتنيني الثعينية)- زحر بيت غتنين- عسد الجبل

غمرتْنا فرحة عارمة، فقد مضتْ سنواتٌ عدَّةٌ منذ زيارتنا الأخيرة للوادي، ذلـك الـوادي الـذي كـان في مـا مـضى مقصداً للناس في موسم الخريف؛ إذْ ينتقـل معظم سـكان سرار إليه؛ للاتصال بـأموالهم المنتشرة في ربــوع الوادي، بـالإضافة إلى كثير من الأسر الكريمة من مدينة قـصيعر وما جاورها؛ فقـد كان هذا الموسـم من المواسـم المهمَّة في المشقـاص، فهناك يلتقـي الأصدقـاء والأحبـة، ويصبـح الوادي قبلة للشـعراء و(محبـي السـلا)، فتقـام جلسـات السمر والدان، وتنشد أعذب الألحان، وقـد ارتبـط بـيت غتنين بعلاقـات متينة بسـاكني الوادي ومرتاديه، وما أن وقفت جوار الحصن حتى خُيِّل لي ذلك اليوم البعيد، وقد هلَّتْ تباشير العيد، وقد أقبل الشيخان عبد الله بـن عقيـل باعبـاد ومحمد الشـايع -رحمهما الله- إلى الزحــر لعواد إخوانهم بيت غتنين، مردِّدين في صف عرمرم :

وسلام يا زحر الزبين فيك الرياسة والوسل
والرسم شايع في الجهين
عا وثر قادم واقفين وعلى السوارح لي زمن
نطلب من المولى يعين
واقف على الساس المكين قـد لك عوايد في العلا
تبلغ بالحمل الرزين
ما شي عذارة ما تبين بالعز والرفعة تقع
والنجم زاهر في الجبين
والعفو لا يا الحاضرين وعسى بحسن الخاتمة
للكل في دنيا ودين



وخُيِّل لي الوالد/ عبود بن عمرو الغتنيني - رحمه الله - يدور أمام صف بيت غتنين و(يعلّم) الصف ليردِّدوا مرحِّبين بأهلهم وإخوانهم آل باعباد:

وبديت بالفرد المتين جلّ تعالى ربنا
عما يقول الملحدين
آيات بالحق المبين والأمر كله والبقاء
للّه رب العالمين
صلوا على الهادي الأمين المصطفى بو فاطمة
خاتم جميع المرسلين
احمد شفيع المذنبين في يوم بارض الساهرة
وجمع الخلائق واقفين
حيا كلام العارفين والاسم بالجد اعترف
والشرب من عين اليقين
يااللّه عسى الدنيا تزين وترد عاعدانها
وعلى السواس السابقين
تغتاث يا وادي زمين غيث المسرة والهنا
والعز في دنيا ودين
تصلح ولاة المسلمين والنصر على جمع العدا
بحق رب العالمين
بالدين لي عليه واثقين تصلح عمالي والنيه
واجعل كتابي باليمين

(٤)

جاهدت الشمس طويلاً حتى استطاعت الوثوب من على قمة (منيعاقة) المحاذية من الشرق لحصن النصر؛ لتنشر أشعتها في الأجواء، وتكسو نواحي الوادي بحلة بهيجة من نسيجها الذهبي، ونحن نرقب الموقف من أعلى حصن النصر بعد أنْ كُنَّا قد تجوَّلْنا في أثنائه، وحكى لنا حكاياه، التي ملأت السمع والبصر، ثم شكى لنا اشتياقه ولوعة فراقه وتأثير عاديات الزمن فيه، وحاجته المُلِحَّة لِمَا يعيد له رونقه وبهاءَه؛ ليبقى شاهد صدق على مآثر الأجداد وإرثهم الخالد، فأعطيناه عُهُودَنا ومواثيقَنا؛ لنحقِّق له أمنيته، فأسرعْنا بإحضار المعلِّم لتقييم ما تهدَّم.. ثم استأذنَّاه في رمي (الغرض)، ووقفْنا قبالة (الغرف)، وجعلنا فيها الهدف، وما أنْ سمع ذلك الصوت، واستنشق رائحة البارود، حتى تمايل طربًا، ومدَّ عنقه في كبرياء، حتى بلغ عنان السماء، فأشفقْنا عليه من إثارة الشَّجَن فيه...

(٥)

أرسلت الشمس ُأشعتَّها الملتهبة، فلفحتْ وجوهنا، ولمْ نكنْ قد باشرْنا العمل .. فبادرْنا مُسرِعينَ إلى الوادي الفسيح الممتدِّ أمامَنا باتجاه (حمد المهرف)؛ لتجميع الحطب والحصى، وتجهيز المضباة، بينما ذهب بعض الشباب باتجاه الوادي صوب الغيضة والعيينات والحدبة والقويرات.. للتطواف على بعض (أموالهم) هناك، ولتنسم الأخبار، وتجميع الأشعار؛ فقد مررْنا من هنا من قبل، ولنا تراث زاخر، فلا بد من السؤال عماَّ خلَّفه الأجداد من مآثر، فـ(عسدْ) إحدى مثاوينا التاريخية:

وعسد معي مسراح جد مسراح من زام الكفر
وبدر عاده ما وجد

(عبود بن عمرو الغتنيني)

أما من بقوا فقد شرعوا في تجهيز الغداء، وتم إحضار (التيس)، وذبحه، واتفقنا على أن يكون بعضه مضبيًّا، والبعض بالتنور في (قصعة) محكمة، والبعض مطبوخًا لأجل المرق، فكان لنا كل ذلك، فتمَّ تجهيز الأخيرين، وتأجيل المضباة إلى بعد الصلاة، وحضر الشباب من الوادي يحملون ما سرَّ الفؤاد، وكان مما أحضروه شريط (كاسيت) نادر لدان بيت غتنين بصوت الوالد المرحوم/







عبود بن دويلة (عبود شخاوي)، فكان فرحُنا به أيّما فرح، وتبادر إلى ذهني في الفور جلوس مجموعة من بيت غتنين بجوار حصن النصر، يدندنون بدانهم الشهير في موسم الخريف؛ إذْ قال الوالد/ عمرو بن سعيد الغتنيني – رحمه الله –:

نا طفت وادي عسد والشعب كله خضر
غضيت عيني شكرت اللّه مليون كر

فيجيبه الوالد/ عبدالله بن عوض الغتنيني – رحمه الله –:

العين با تحاسبك من كثر غض البصر
فيهن سقاطر وهن متعودات الثمر

وكأنّي بمرتادي الوادي يصغون إلى ذلك الدان، وقد سلب عليهم لُبَّهم بما يمتاز به من ألحان شجية وإيقاعات موسيقية نادرة، لم يقف خيالي عند هذا الحد فقدْ توارد إليه مشهدٌ آخر، وقصيدةٌ أخرى للمرحوم/ عبدالله بن عوض الغتنيني، وقد أطال المكث في عسد بجانب أمواله، فشدَّه الحنين لموطنه الآخر، أرض المسرة (سرار)، فأخذ يدندن على ذلك الصوت الشجيِّ متمنيًّا الذهاب مع السيارة التي رمز لها بـ(بوعجل)، وتأكيده على دفع أجرتها (نولها) ولو كان مضاعفًا؛ لشدة حنينه لأرض المسرة، واصفًا إيَّاها بأنها أعزُّ مدن الساحل:

ودي مع بوعجل وبغيت تعبر بنول
أرض المسرة وهي عز المدن في السحول

ثمَّ تراءى لي مشهدٌ آخر أيضًا لإحدى نساء بيت غتنين، تسكن خارج سرار، وقبصها (لدغها) ثعبان، فتذكَّرتْ أهلها القاطنين في عسد وسرار، فردَّدتْ مكلومة:

يا ذا المعني وصل سعد وضويه نهار
قل له يشد المطيه لي تشل البهار
وقبصت بالليل ماحد من سعفي عتار
أما صحابي في عسوده وحد في سرار

لم يوقظني من ذلك الخيال الخصب سوى الأذان، مُعلنًا دخول وقت صلاة الجمعة، وإذا بالوادي ممتدٌّ أمامي، ونخله تطاولَ سموقًا قمة مضوبة، وكأني أنظر إليها وهي تتمايل طربًا على نغمات الدان.. صلَّيْنا الجمعة، ثمَّ عدنا إلى خيمتنا، وأنضجْنا اللحم على المضباة، واستمتعْنا بطريف الأشعار والأخبار بصحبة أخيار من سكان الوادي الأحرار، ولَمَّا لمْ يكنْ للمشهد أنْ يمرَّ دون قصيدة وإن اختلف الصوت من الدان إلى الهبوت فقد جادت قريحة سعيد عوض الغتنيني بقصيدة، واصفًا الرحلة وما صاحبها من عناء، لكنْ هناك ما بدَّد ذلك العناء والمشقة:

كلفينا ع القدم ما اعتمدنا ع المطية
حصن شامخ يستحق العناء والافتخار
صانع الأمجاد بالسيف وزنودي قوية
والشوامخ لي شواهد ياكم راحن عمار

بعدها تناولنا الغداء، وشددْنا المطيَّة باتجاه ظبق هزاول الأبية، مودِّعين الوادي، وقد امتلأت صدورُنا غبطةً وانشراحًا، متذكِّرين قصيدة الوالد/ عمرو عبود الغتنيني – رحمه الله –:

وادي عسد زين من شافه سلى خاطره
فيه المعايين وسقاطر بها زاهيه
خلعه على السوم تسوى خمستعشر ميه
يا بخت من هي ضماره باتقع ملك له
حاسب ضماري رأس المال والفايده
غبّوا علينا طرق عاشوفهن باينه
يا وعل عذّبتنا قدنا ثنعشر سنه
عذّبتنا في صيق وحيود متباعده
في الضرب مسيوط ما باتعلّم الترميه
وسلبنا شرف قيمة خمستعشر ميه
حتى في البعد باجيبك في الباديه

(٦)

ولم تكد الشمس تهم بالزوال حتى كنا على متن السيارة متوجِّهين إلى ظبق هزاول، تملَّكني شعور غريب وأنا في طريقي إليها، فهذه هي المرة الثانية التي أزور فيها الظبق، فلقد زرْتُها لزواج أحد الإخوة قبل سنوات، ولا تزال مناظرها الخلابة وطبيعتها الساحرة عالقة في ذهني، وأخذت الكثير من الذكريات الجميلة تتوارد إلى مخيلتي، وصلْناها بُعَيْدَ صلاة العصر مباشرة، وقفْنا بجانب المسجد، وقد طالعنا حصن هزاول شامخًا، يحكي تاريخًا تليداً، وفي الجهة المقابلة يقف حصن شقبون الشهير.. استقبلَنا بحفاوة بالغة من قبل إخواننا هزاول، وليس ذلك مستغربًا منهم؛ فهم المعروفون بشهامتهم ونخوتهم، بالإضافة إلى ما تربطنا بهم من روابط القربى والإخاء والصهارة؛ فهم بنو عمومتنا وأهلنا وعزوتنا. صلينا العصر في مسجد المنطقة، ثم اصطحبَنا أحدهم إلى بيته، فأكرمَنا أيَّما إكرام، ثمَّ توجَّهْنا جميعًا إلى الوادي، تحفُّنا أشجارُ النخيل والمانجو والموز، وأشجار أخرى بديعة المنظر، وارفة الظلال، تحكي مثابرة سكان الظبق واهتمامهم بالزراعة والعناية بها، رأينا (جوابي) وسواقي (التنمية)، التي أسهمت في الحفاظ على الماء، وانتعاش الزراعة، أسرَنا الوادي بمناظره الخلابة، ونسيمه العليل، وجباله الشامخة، ومنها جبل (العلك) الشهير، تذكَّرْتُ حضور بيت غتنين إلى هذا المكان في إحدى المناسبات؛ إذْ قال شاعرهم/ عبدالله بن عمر الغتنيني (الخيش):

زرنا جبل والنوف من حيث الردى

والمقدمي دور العشيرة جابها

وسلام عاأهل المنابة والزهاء

أهل الشهامه عارفين حسابها


منظر من ظبق هزاول

فردَّ عليه الشيخ/ كرامة بن عمرو بن حمادة مرحبًّا به:

حيا تراحيب المسرة والرجاء

وقلوب تفرح من سرار أعجابها

أنتم مثيل النور في ليل الدجى

حيث النمارة تفتخر بأنيابها

استرحْنا قليلاً على حصاة (المنقود) قبل أن نواصل المسير في ثنيَّات الوادي، ثم عُدْنا إلى مكان السيارة مردِّدين قصيدتنا التي سبق أنْ جادتْ بها قريحة الشاعر/ سعيد عوض الغتنيني:

كلفينا ع القدم ما اعتمدنا ع المطية...

ركبنا السيارة والشمس تغرقُ في ترابها الذهبي، ناثرةً بعضَه على رؤوس الأشجار، التي تراقصتْ طربًا على ضفَّتي الوادي، راسمةً لوحة بانورامية آسرة. تحرَّكتْ بنا السيارة والغروب يشيِّعُنا بموكبه المهيب، ونحن منطلقون باتجاه أرض المسرَّة، والأرض تُطوَى لنا طَيًّا، مررْنا بوادي عسد، وقد خيَّم الظلام، وأرسل بظلاله على كل شيء، ولَمْ نرَ منه سوى مصابيح قليلة متناثرة هنا وهناك، ورؤوس النخل تلمع مع كل اهتزازة للسيارة، ودَّعْنا الوادي محُمَّلين بأجمل الذكريات وأحلى الأوقات، وبعد حوالي ساعة من المسير شارفْنا على أرض المسرَّة بعدَ رحلة كُتِبَتْ فُصُولُهَا بماءِ الذَّهبِ؛ لتبقى رحلة الأحلام دون منازع....







"دفرنا وبغيت المسقط"



أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي

كلمات هذا المثل الحضرمي فصيحة وليست عامِّيَّة، وهي واضحة في معانيها، ومباشرة في فكرتها، وغالبًا ما تقال لمن يريد اتخاذ قرار ما لكنه متردِّد لأسباب معينة، وفي الوقت نفسه يتمنى مَنْ يدفعه إليه أو يجبره عليه، وعندما يقال المثل من متكلم إلى آخر مستمع يدخل في باب السخرية، والغيبة والنميمة، وهذا الصنف الذي يتمنى (المساقط) قد يكون من مُدَّعِي الوطنية، والنزاهة والشرف، لكنه في باطنه يرغب في المناصب ذات الامتيازات الكبيرة أو الفرص (الذهبية)، حتى مع وجود مؤشرات بسقوطه في دهاليزها، لكنه يدَّعي (الموافقة) على مضض، وبعد وساطات (الوجهاء والعقلاء) وإلحاحهم ، أو تحت سقف إصلاح ما يمكن إصلاحه، أو بحجة إعطاء فرصة في دور (للصالحين) لترميم ما يفسده (الطالحون)، وهذا النوع المنافق غالبًا ما يكون على حافات السقوط، ويجيد تمثيل دور البطولة، بل يطلق المزيد من الكلمات الوطنية الرنانة؛ كي يصل اسمه، ويسمع صوته من به صممٌ، لكنه يجعل أبوابه مواربة؛ ليطمئن فيها جميع الأطراف بأنه حبيب الكل.

وعندما يُردِّد هذا المثلَ (دفرنا وبغيت المسقط) شخصٌ على لسان حاله فغالبًا يوجه خطابه لجهات صديقة؛ ليبينّ موقفه البطولي الاضطراري لفعلته التي فعلها. أما إذا كانت الجهة غير صديقة أو محايدة فهو يردد المثل من باب الهجمة الاستباقية؛ ليدفع عن نفسه لومة اللائمين، وفي الحالتين يتصف (الساقط) - من هذا النوع - بالشفافية والقدرة على المواجهة وهو يدافع عن نفسه من وجهة نظره الخاصة، ويبقى حق المستمعين في قبول روايته أو رفضها وفقًا لقناعاتهم الخاصة، وبمدى ما يقدِّمه (المدفور) من حجج وبراهين.

ويحضر المثل في جانبه الإيجابي عندما يكون شخصٌ مناسبٌ في المنصب المناسب، والظروف مناسبة، لكن تغيرت الأحوال والظروف وصار عليه أن يغض الطرف عن تصرفات وإجراءات تتناقض مع قيمه ومبادئه، لكنه لا يستطيع أن يعارض بشكل مباشر درءًا لردَّة فعل





ثورية عنيفة، أو مذهبية متعصبة، فيبدأ بانتهاج سياسة السقوط التدريجي عن طريق المناورة الذكية، التي تقرِّبه إلى حافة السقوط بحيث تجد الأطراف (الدافرة) من مصلحتها إيجاد البديل الخفيف، وهم كثر يتزاحمون عند حافات (السقوط).

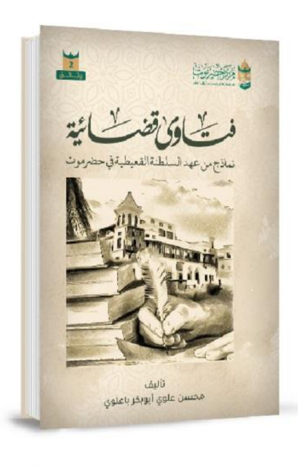
إن الفطرة السليمة تجعل ممن عندهم اعتداد بأنفسهم يتجنبون التهافت على المناصب حتى ولو كانوا مؤهلين لها، ويستحقونها، بل يتجنبون بحياء صادق لفت الأنظار إليهم، فضلاً عن الطلب من طرف صديق صناعة (دفرة) إليها، كما أن الوعي الجمعي يستنكف موقف المتطاولين والمتعرضين، ثم إن المسلمين عندهم قاعدة نبوية تقول: "طالب الولاية لا يُولَّى"، لكننا نجد في موقف سيدنا يوسف (عليه السلام) بعد تفسيره لرؤيا عزيز مصر بحسب قصة القرآن العظيم مقاربة إيجابية تستحق الإشارة خاصة بعد أن قال له العزيز: "إنَّكَ اليومَ لَدَينَا مكينٌ أمين"، فبادر سيدنا يوسف وطلب - مع المكانة الرفيعة التي حظي بها - أن يكون مسؤولاً عن خزائن الأرض وقيِّماً عليها، وهي وظيفة مستقبلية؛ لأن الخزائن ستكون عامرة في السنين السبع السمان القادمة كما أوحى الله به إليه، والمشهد كله يدخل في العناية والتدبير الإلهي، لكن الموقف يعطي درسًا نبيلاً يشجع على الإقدام بثقة في المواقف التي تستدعي التصدي والتحدي، ويشبه هذا من قريب موقف الفارس الذي يخبر قبل مبارزة فارس أقوى منه بقراره الخاص دون أن ينتظر موافقة من قائده أو جندي (يدفره).

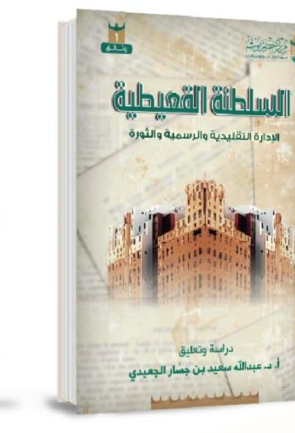
إن ازدهار هذا المثل (الدفرة والسقطة) غالبًا ما يكون في المجتمعات الرهيفة أو الهشة التي تربَّى فيها الأجيال على ثقافة الخوف، ولا تشجع مؤسساتها التعليمية ولا الأسر على فضيلة الثقة بالنفس، وحب الإقدام والشجاعة والمغامرة، وتغيب عنها ثقافة الشفافية، وعدالة الفرص، وقوة القانون، وحيث يسند فيها القيادة والإدارة إلى أصحاب الثقة، وليس أصحاب الكفاءات لهذا تكثر في هذه المجتمعات حافات السقوط، ويهرول إليها المتساقطون وهم يعلمون.

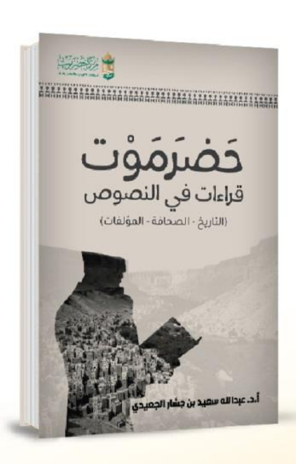
أما دلالات المثل وارتباطاته بالشخصية الحضرمية فتحيل إلى منحى سلبيٍّ، يَنِمُّ عن شخصية خجولة متردِّدة، تتجنَّب ما يمكن وصفُه بثقافة اللَّوم عند عرض أفكار بناءة، أو محاولات جادة للتطوير، أو قرارات مفصلية، لهذا نلاحظ الجمود في واقعهم، والرتابة في حركتهم، وقلة من الرُّوَّاد، والمبادرين، والمتميزين في داخل بلادهم إلا في مواقف معدودات، في حين المهاجرون منهم - من منظور هذا المثل - تحرَّروا من أعباء ثقافة اللوم المحبطة، وشَقُّوا طريقهم إلى أرزاقهم التي كتبها الله لهم، ووفق هذا المنظور ممكن القول إن المهاجرين - بصرف النظر عن تبعات الهجرة - هم مَنْ (دفروا) أنفسهم بأنفسهم، أمَّا مَنْ مكث في الأرض؛ فمنهم من ينتظر (دفرة)، ومنهم مَنْ يتمنَّى (سقطة)، وما بدَّلوا تبديلاً.

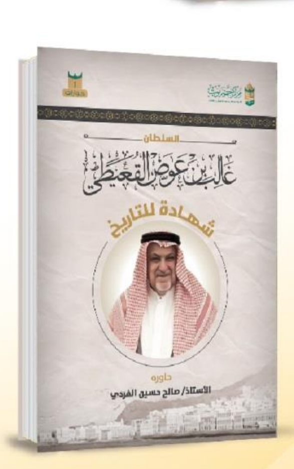

لوحة للفنانة التشكيلية
عبير الحضرمي

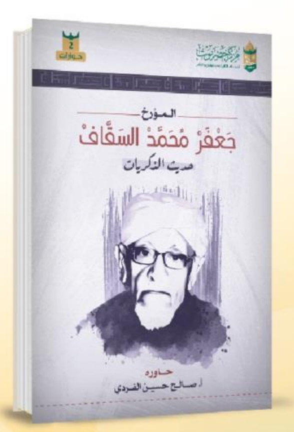
متوفر الآن

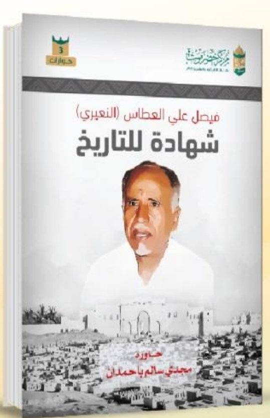

فتاوى قضائية
نماذج من عهد السلطنة القعيطية في حضرموت


السلطنة القعيطية
الإدارة التقليدية والرسمية والثورة

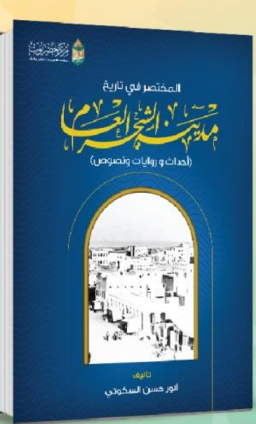

حضرموت
قراءات في النصوص
(التاريخ - الصحافة - المؤلفات)

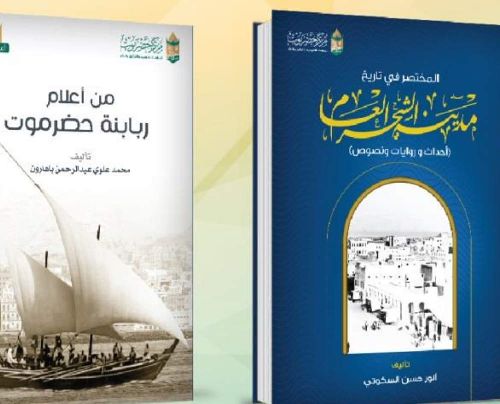

السلطان
غالب بن عوض القعيطي
شهادة للتاريخ

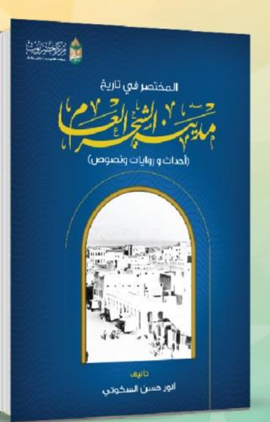

المؤرخ
جعفر محمد السقاف
حديث الذكريات


فيصل علي العطاس (النعيري)
شهادة للتاريخ


الدولة الكثيرية في حضرموت






المختصر في تاريخ
(أحداث وروايات ونصوص)